

# السردية العربية

بحث في البنية السردية  
للموروث الحكائي العربي

د. عبدالله ابراهيم





الطبعة الثانية ١٩٩٤



(1)

في إحدى خرافات «ألف ليلة وليلة»، يكاد الملك «محمد بن سبائك» يقايض عرشه بخرافة عجيبة، والخضوع لسلطة «التخريف» يدفع الملك «شهريار» إلى التخلي عن قرار قتل النساء. وهذا الأمر، يتواتر في المرويات السردية العربية، بما يجعله مظهراً متكرراً فيها. وهنا لا بد أن يثار سؤال محدد، ما الذي يجعل المروي له - وغالباً، ما يكون ملكاً - يعرض عرشه لمن يروي له حكايات غريبة؟ إنها، فيما نرى، «المتعة التخيلية» التي يثيرها الراوي في ذهن المروي له، وهي المتعة الوحيدة التي يفتقر إليها، من بين متع كثيرة يتوفر عليها، فلا يكون أمامه إلا السعي في طلبها، بما يجعله، يستمرىء وضع مملكته تحت أقدام راوٍ مجهول، يطلق له عنان التخيل، ويبدد إحساسه بالعزلة الذاتية.

لقد انقضت الآن المتع واللذات التي كان «ملوك الخرافة» يجذون في طلبها، واستبدلت بنوع من «المتع العقلية» التي يثيرها البحث في أصول المعرفة ومصادرها. وفيما كانت «المتع التخيلية» تلزم الملوك، الاستلقاء على طنافس وثيرة، أوجبت «المتع العقلية» على الباحثين التقصي والتصنيف والمضاهاة والتحليل والاستنتاج، فاقترنت المتعة بالبحث، وأصبحتا متلازمين، وصارت صعاب البحث سبباً، يجعل الباحثين يمشون قدماً في الاستغراق بمتعمهم العقلية.

فما تلك الصعاب؟

(2)

تتركز الصعاب التي تواجه البحوث التي تعنى بـ «الأثار المعرفية والإبداعية» لأمة من الأمم، حول مجموعة من المحاور الأساسية المتداخلة، وهي: طبيعة المادة موضوع البحث، والرؤية التي يصدر عنها الباحث، والمنهج الذي يتبعه، والأهداف التي يتوخاها من بحثه، ويقتضي بيان ذلك شيئاً من التفصيل.

لقد بدأ في الربع الأخير من القرن العشرين اهتمام جاد ومركّز للبحث في أصول الفكر العربي، ومصادره ومظاهره التركيبية والتعبيرية، بغية كشف سماته، وأبنيته وركائزه الأساسية التي يقوم عليها. وذلك من أجل تخصيص الجوانب الفاعلة فيه، ونقده نقداً علمياً، يمكنه من تجاوز الأسباب التي تشدّه إلى الوراء. ويفتح الأفق أمامه، ليوكب الثورة المعرفية الحديثة التي شملت مكونات الفكر الإنساني ومظاهره كلها. وفيما استأثرت الأنظمة المعرفية للعقل العربي، ومظاهر الثبات والتحول في الثقافة العربية، ومظاهر التعبير اللساني والبلاغي بالاهتمام<sup>11</sup>، فإنه لم يولِ اهتمام مماثل بمظهر آخر، لا يقل شأناً عن تلك، ألا وهو «المظهر السردية» الذي، يشكل إلى جانب النتاج المعرفي والشعري، الهيكل الكلي للثقافة العربية، بتجلياتها الفكرية والإبداعية. ❖

إن الصعاب التي تشخص إزاء بحوث، تنتدب نفسها، لمعانية ركن من أركان الموروث المعرفي والإبداعي، تكاد تكون متماثلة، وفي طليعتها: المادة الواسعة المتناثرة في مظان كثيرة، مثل: مصادر الفقه وعلم الحديث والتفسير وعلم الكلام والتاريخ والأدب وكتب التراجم والطبقات والأخبار. فضلاً عن المرويات والمدونات السردية أو الشعرية. ويعود ذلك، فيما يعود، إلى أنّ الثقافة العربية، بمظهرها الكلي، تكونت واستقامت في دائرة دينية واحدة، وذلك أتى إلى أنّ مكوناتها المختلفة، تتصل فيما بينها، على صعيد الرؤية والمحتوى، وأحياناً الركائز والأنظمة والأبنية، على الرغم من توزعها بين حقول متعددة، الأمر الذي يلزم الباحث، فحص الأصول، واشتقاق مادة بحثه منها.

إنّ اشتقاق مادة البحث من مظان لم يعتن بها، تحقيقاً وتبويماً وفهرسة، يمثل عقبة أولى في هذا المجال، تليها مهمة تصنيف المادة ذاتها، وربما من المفيد هنا وصف الطريقة التي استخلصت بواسطتها مادة «السردية العربية» إذ حددت الحقول الأساسية لمكونات الثقافة العربية، وجرى حفر وتنقيب في مصادرها الأصلية مثل علوم الدين والأدب والتاريخ، فضلاً عن المرويات السردية التي تؤلف متن المادة، وذلك دون وساطة مراجع حديثة، قد تقوم على قراءة تلك المصادر، قراءة محكمة بظرف خاص، قد تهضم الهدف الذي يتوخاه البحث، وهو استنباط البنية السردية في الموروث الحكائي العربي كما تشكلت في دائرة الثقافة العربية، وأعقب ذلك تصنيف المادة، وأوصلت الثوابت فيما بينها، على النحو

(1) نحيل بهذا الصدد على عدد من البحوث المتميزة في هذا المجال، مثل: نقد العقل العربي لمحمد عابد الجابري، والثابت والمتحول لأدونيس، والتفكير اللساني في الحضارة العربية لعبد السلام المسدي، والتفكير البلاغي عند العرب لحمادي صمود.

الذي تشكلت فيه، وأخضعت بعد ذلك للتحليل، سواء ما تعلق منها بالأطر العامة الموجهة للسرد، أم بالمتون السردية ذاتها.

اتخذت عناية البحث إلى منحي محدد من مناحي الثقافة العربية وهو «السرد» بوصفه مظهراً تعبيرياً، تكون في محضن الثقافة العربية - الإسلامية. وتكثف بفعل الموجهات الخارجية التي صاغت أنظمتها، ثم تركزت تلك العناية، حول «سردية» ذلك المظهر، بغية استنباط أبنيتة الداخلية، ف «السردية» لا تعني بالمتون السردية ذاتها، إنما بكيفيات ظهور مكوناتها سردياً Narrativity أي بالممارسة التي اتخذتها مكونات السرد ضمن البنية السردية. ولقد تجنب البحث، ما استطاع، إخضاع «السردية العربية» إلى معيار خارجي مستمد من موروث سردي آخر، فما كان يهدف إليه هو تحديد طبيعة السردية العربية، كما تكونت في نطاق المحضن الثقافي الذي تشكلت فيه.

لم ينظر إلى السرد العربي، بوصفه ركناً معرفياً محضاً من أركان الثقافة العربية، إنما نظر إليه، بوصفه مظهراً إبداعياً تمثيلاً، استجاب لمكونات تلك الثقافة، فنجلت فيه على أنها مكونات خطافية. انزاحت إليه بسبب هيمنة موجهاتها الخارجية وبخاصة الشفافية والإسناد، فالسرد العربي، خلفية تترأى فيها تلك الموجهات، وهو يقوم بـ «تمثيل Representation» خطابي لها، وليس عكسها «Reflection» بصورة آليّة.

لقد استدعت هذه الرؤية للموروث السردية الحاجة إلى عملية منهجية تعومها، وتعبر عنها، فاعتمد علي أنواع من «الاستقراء الفني» الذي يستند إلى الاستنتاج تارة، والوصف تارة أخرى. إذ شُخصت الثوابت والمتغيرات في مادة البحث، وكثف العمل على كل محور من محاورها على مستويين، أولهما: وصف المحور منفصلاً بذاته، وثانيهما: وصفه متصلاً بغيره. وفيما تم استنتاج الأصول، ابتغاء استخلاص الهياكل التي تؤطر بنية المرويات السردية، في القسم الأول من البحث، تم في القسم الثاني منه، الاعتماد على نوعين من الوصف والمعابنة؛ الأول: تاريخي تعاقبي «Daichronic» غايته كشف تشكل الأنواع القصصية الرئيسة كالخرافة والسيرة والمقامة؛ والثاني: وصفي تزامني «Synchronic» انصب الاهتمام فيه على مكونات البنية السردية للأنواع المذكورة، وتوج التحليل، بكشف مستويات التماثل بين بنية الموجهات الخارجية وبنية السرد، بما يؤكد أنّ الاتصال قائم بينهما، على نحو تمثيلي، في أشد الركائز أهمية، وهو: الإرسال السردية بأركانه من راوٍ، ومروري ومروري له.

راعى البحث استنتاج الأصول المعرفية، استنتاجاً يتعد عن «التقويل» ويترك لها أن تكشف عما تخيبه دونما تعسف، سوى توفير «الظروف المنهجية» التي تسهل، بوساطة

القراءة، عملية كشف المقاصد والمرامي التي تنطوي عليها تلك الأصول. ذلك، أن الهدف، لا يتجه إلى كشف تناقضات الأصول بذاتها، إنما استنتاجها، بما يجعلها تسفر عما تكتمه، لتضح طبيعة الموجهات الخارجية التي كانت تمارس سلطتها في الخطاب السردي. كما امتثل البحث، وهو، ينظر إلى نتاج الثقافة العربية، بوصفه كلاً موحداً، وإلى المرويات السردية كونها جزءاً منه، إلى ثنائية الاتصال/ الانفصال. إذ تجلى الاتصال فيه، بالوقوف على الأطر الموجهة، وعدّ المرويات السردية مظهراً خطابياً تشكل فيها، وتمثل الانفصال، بالوقوف على المظهر الفني للنوع القصصي، بما ينطوي عليه من ثوابت متواترة تحدد بنيته السردية. فالانفصال ضرورة منهجية، يغذي البحث بالموضوعية التي لا تتأثر مباشرة بعوامل التطور التاريخي، أو بالثوابت المتزاخة إلى الخطاب من خارجه، فيما يعد الاتصال ضرورة ثقافية، لأنه يستجيب لأهداف البحث في تحديد طبيعة السردية العربية ضمن البنية الثقافية - العامة. لهذا، ففي الوقت الذي مكن الانفصال فيه، من رصد البنى السردية للأنواع، مكن الاتصال من كشف خصائص البنية السردية عامة.

لم يكن البحث يهدف بمصطلح «السردية العربية» إلى مقصد عرقي، إنما هدف إلى الوقوف على المرويات السردية التي تكونت، أغراضاً وبنى، ضمن الثقافة التي أنتجتها اللغة العربية، والتي كان التفكير والتعبير فيها، يترتب بتوجيه من الخصائص الأسلوبية والتركيبية والدلالية لتلك اللغة، ومن المؤكد، أن الشفاهية التي استندت إلى قوة دينية، قد جعلت اللغة العربية، وسيلة الخلق والتعبير الأساسية في ثقافة تتصل بها مباشرة، ذلك أنها لغة الخطاب الذي ينطوي على تلك القوة، الأمر الذي مكن اللغة العربية، بوساطة الشفاهية الدينية، أن تمارس حضورها الثقافي في أماكن، تستوطنها أعراق متعددة، مما جعل مظهر التعبير فيها، تخضع ألباً إلى خصائص العربية وسماتها<sup>1</sup>.



(1)

السردية Naratology فرع من أصل كبير هو: الشعرية poetics التي تعنى باستنباط القوانين الداخلية للأجناس الأدبية، واستخراج النظم التي تحكمها، والقواعد التي توجه أبنيتها، وتحدد خصائصها وسماتها<sup>(1)</sup>.

لقد ظهرت الشعرية، بوصفها نظرية تعنى بالخطاب الأدبي<sup>(2)</sup>، من أجل ضبط حدود الأجناس الأدبية، استناداً إلى تحديد أنظمتها الخاصة، ولهذا فقد اعتمدت على الاستقراء الفني الذي استمد وجوده من التجريب المستمر، دراسة وتحليلاً. وقد وصفت، بأنها «نظام نظري، غدي، وخصب بالبحث التجريبي»<sup>(3)</sup>.

إن السردية تبحث في مكونات البنية السردية للخطاب من راوٍ ومروي ومروي له، ولما كانت بنية الخطاب السردية<sup>(4)</sup> نسيجاً قوامه تفاعل تلك المكونات، أمكن التأكيد، أن السردية، هي: العلم الذي يُعنى بمظاهر الخطاب السردية، أسلوباً وبناءً ودلالة.

(1) تزفتان تودروف، الشعرية، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، الدار البيضاء 23، واديت كيرزويل، عصر النبوة، ترجمة جابر عصفور، بغداد 283.

(2) يُعرف الخطاب، بأنه «نصّ محكوم بوحدة كلية واضحة، يتألف من صيغ تعبيرية متوالية تصدر عن متحدث فرد، يبلغ رسالة ما»

Hartman and Stork, Dictionary of Language and Linguistics, P.69.

وللاطلاع على الآراء المختلفة حول الخطاب وحدوده، نحل على:

Wales, A dictionary of stylistics P.128-131.

(3) Ducrot and Todorov, Encyclopedic Dictionary of the sciences of language, P.79.

ونحل، بغية التفصيل في أصول مصطلح «Poetics» وتطوراته على:

Alex Preminger, Princeton Encyclopedia of poetry and poetics, P.636-639.

(4) يُعرف الخطاب السردية بأنه «لعبة تركيبية، تمثل الحادثة تخيلاً»

Group JJ, A General Retic, P.187.

إنّ العناية الكليّة بأوجه الخطاب السردية، أفضت إلى بروز تيارين رئيسين في السردية، أولهما السردية الدلالية التي تعنى بمضمون الأفعال السردية دونما اهتمام بالسرد الذي يكوّنهما، وإنما بالمنطق الذي يحكم تعاقب تلك الأفعال، ويمثل هذا التيار: بروب وبريمون وغريماس. وثانيهما: السردية اللسانية التي تعنى بالمظاهر اللغوية للخطاب، وما ينطوي عليه من رواة، وأساليب سرد ورؤى، وعلاقات تربط الراوي بالمروي. ويمثل هذا التيار، عدد من الباحثين من بينهم: بارت وتودروف وجنيت. ولم يعدم تيار السردية، محاولة للتوفيق بين منطلقات هذين التيارين، إذ حاول جاتمان وبرنس، الاستفادة من معطيات السردية في تباريها: الدلالي واللساني، والعمل على دراسة الخطاب السردية في مظاهره بصورة كليّة. وفيما اتجه اهتمام برنس إلى مفهوم التلقي الداخلي في البنية السردية، من خلال عنيته بمكوّن المروي له، اتجه اهتمام جاتمان إلى البنية السردية عامة، فدرس السرد بوصفه وسيلة لإنتاج الأفعال السردية، وبحث في تلك الأفعال بوصفها مكونات متداخلة من الحوادث والوقائع والشخصيات، تنطوي على معنى. وعدّ السرد نوعاً من وسائل التعبير، في حين عدّ المروي محتوى ذلك التعبير، ودرسهما بوصفهما مظهرين متلازمين من المظاهر التي لا يتكون أي خطاب سردية بدونهما<sup>(1)</sup>.

يعزى اجتراح مصطلح Narratology المنحوت من Narrative - سرد، Logy - علم، إلى تودروف<sup>(2)</sup>، بيد أنّ الباحث الذي استقامت على جهوده، السردية في تيارها الدلالي هو: فلاديمير بروب، الذي بحث في أنظمة التشكل الداخلي للخرافة الروسية عندما خصّها ببحث مفصّل أكد فيه، أنّه يهدف إلى دراسة الأشكال والقوانين التي توجه بنية الحكاية الخرافية، محتدياً حذو الدراسات العلمية التي اقتصت بدراسة التشكلات العضوية للنباتات<sup>(3)</sup>، مما يشير إلى أنّ جذور السردية، تتصل على نحو أو آخر بكشوفات المناهج العلمية. ولقد أقرّ الباحثون اللاحقون في حقل السردية، زيادة بروب المنهجية والتاريخية لهذا العلم<sup>(4)</sup>، وأصبح بحثه في الخرافة الروسية، موجهاً أساسياً لعدد كبير من الباحثين، يسميهم شولز «ذرية بروب progeny of proop»<sup>(5)</sup> مثل غريماس وبريمون وتودروف وجنيت، ومن المؤكّد أنّ «ذرية بروب» قد عملت على توسيع حدود السردية، لتشمل جميع مظاهر

(1) Chatman, Story and Discourse, P.26.

(2) Pavel "Some remarks on narrative grammars" In ching (ed) Linguistics perspectives on Literature, P.187.

(3) فلاديمير بروب، مورفولوجية الخرافة، ترجمة إبراهيم الخطيب، الدار البيضاء 17.

(4) Todorov, poetics of prose, P.219 and Ibid, P.187.

(5) Scholes, Structuralism In Literature, P.91.

الخطاب السردية، وقد اتجهت بحوثهم اتجاهين، أولهما يمكن الاصطلاح عليه بـ «السردية الحصرية» وتهدف إلى إخضاع الخطاب لقواعد محددة، بغية إقامة أنظمة دقيقة تضبط اتجاهات الأفعال السردية. وثانيهما «السردية التوسيعية» وتهدف إلى إنتاج هياكل عامة، توجه عمل مكونات البنية السردية، وتتطوي على قدرة توليد نماذج شبه متماثلة، على غرار نماذج التوليد اللغوي في اللسانيات.

لقد انحصر اهتمام السردية، أول الأمر، في موضوع الحكاية الخرافية والأسطورية، فضلاً عن اهتمام بروب بالخرافة، اهتم «راغلن» باستنباط الخصائص المميزة للبطل الأسطوري<sup>(1)</sup>، وانتخب «داندز» متوناً خرافية لهنود أمريكا الشمالية<sup>(2)</sup>، وجعل «ستروس» الأسطورة الإغريقية الخاصة بأوديب موضوعاً لأحد أشهر بحوثه<sup>(3)</sup> وسرعان ما تعدد اهتمام السرديين، ليشمل الأنواع القصصية الحديثة كالرواية والقصة القصيرة، فظهر عدد من الباحثين في هذا الشأن أولوا تلك الأنواع جلّ اهتمامهم مثل باختين، وأوسينسكي، وامبرتوايكو، وجوليا كرسيفا، وفردمان وشولز وفاولر وغيرهم، وخصبت بحوثهم جميعاً، هذا العلم الجديد، وسعت آفاقه، ثم توجت السردية، علماً معترفاً به، مع صدور كتاب جيرار جنيت «خطاب البرد» Narrative Discourse عام ١٩٧٢، وفيه تبييت لمفهوم السرد<sup>(4)</sup>، وتنظيم لحدود السردية.

## (2)

تشكّل البنية السردية للخطاب، من تضافر ثلاثة مكونات هي: الراوي والمروي والمروي له.

يعرّف الراوي، بأنه ذلك «الشخص الذي يروي الحكاية، أو يخبر عنها، سواء كانت حقيقية أم متخيلة»<sup>(1)</sup>. ولا يشترط أن يكون الراوي اسماً متعيناً، فقد يكفي بأن يتقن بصوت أو يستعين بضمير ما، يصوغ بوساطته المروي. وتتجه عناية السردية إلى هذا المكوّن، بوصفه منتجاً للمروي، بما فيه من أحداث ووقائع، وتعنى برؤيته تجاه العالم المتخيل الذي

Ibid, P.65-66.

Linguistics perspectives on Literature, P.188.

(3) كلود ليفي ستروس، الاثنوبولوجيا البنيوية، ترجمة مصطفى صالح، دمشق ٢٠٠٣-٢٠٠٤.

Genette, Narrative Discourse, P.25.

A dictionary of Stylistics, P.316.

(1)

(2)

(3)

(4)

(5)

يكونه السرد، وموقفه منه، وقد استأثر بعناية كبيرة في الدراسات السردية<sup>(1)</sup>.

يمكن تعريف المروي، بأنه كل ما يصدر عن الراوي، ويتنظم لتشكيل مجموع من الأحداث تقترب بأشخاص، ويؤطرها فضاء من الزمان والمكان، وتعدّ «الحكاية» جوهر المروي، والمركز الذي تتفاعل عناصر المروي حوله، بوصفها مكونات له، ولقد جرى تفريق بين مستويين في المروي، أولهما «متوالية من الأحداث المروية، بما تتضمنه من ارتجاعات واستباقات وحذف»، وقد اصطلح الشكلانيون الروس على هذا المستوى بـ «المبنى - SJUZET». وثانيهما «الاحتمال المنطقي لنظام الأحداث» وقد اصطلحوا عليه بـ «المتن Fabula»<sup>(2)</sup>. إن «المبنى» يحيل على النظام الذي يتخذه ظهور الأحداث في سياق البنية السردية، أما «المتن» فيحيل على المادة الخام التي تشكل جوهر الأحداث، في سياقها التاريخي<sup>(3)</sup>، واتسع مجال البحث حول المبنى والمتن بوصفهما وجهي المروي المتلازمين، إذ ميز جاتمان بين «القصة Story» وهي سلسلة الأحداث، وما تنطوي عليه من أفعال ووقائع وشخصيات، محكومة بزمان ومكان، وبين «الخطاب Discourse» الذي هو التعبير عن تلك الأحداث، وخلص إلى القول «إن القصة هي محتوى التعبير السردى، أما الخطاب فهو شكل ذلك التعبير»<sup>(4)</sup> ووضح الفرق بين المحتوى وكيفية التعبير عنه، فالأول يحيل على المتن، باصطلاح الشكلانيين، فيما يحيل الثاني على المبنى.

أما المروي له، فهو «الذي يتلقى ما يرسله الراوي»<sup>(5)</sup> سواء كان اسماً متعيناً ضمن البنية السردية، أم كائناً مجهولاً، ويرى برنس، الذي يعود الفضل إليه، في العناية بالمروي له «أنّ السرد، شفاهية كانت أم مكتوبة، وسواء أكانت تسجل أحداثاً حقيقية أم أسطورية، وفيما إذا كانت تخبر عن حكاية، أم تورّد متوالية بسيطة من الأحداث في زمن ما، فإنها لا

(1) نحيل على البحوث الآتية على سبيل المثال

Stevick, Theory of the Novel, P.118.

Scholes and Kellogg, The Nature of Narrative, P.240

Fowler, Linguistics and the Novel, P.71.

Culler, Structuralist Poetics, P.189.

وقد خصصنا الفصل الرابع من كتابنا «البناء الفني لرواية الحرب في العراق» لعرض أهم القضايا الخاصة بالراوي، وأساليب السرد، مما يفني عن التفصيل مرة أخرى هنا.

Story and Discourse, P.19-20, adictionary of stylistics, P.422-423.

(2)

Structuralism in Literature, P.80.

(3)

Story and Discourse, P.23.

(4)

Adictionary of Stylistics, P.311.

(5)

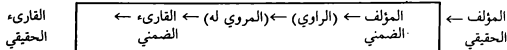
تستدعي راوياً، حسب، إنما مروياً له أيضاً. والمروي له شخص يوجه إليه الراوي خطابه، وفي السرود الخيالية، - كالحكاية والملحمة والرواية - يكون الراوي كائناً متخيلاً، شأن المروي له<sup>(1)</sup>.

إن الاهتمام المتأخر بالمروي له، جعل البحث في البنية السردية، أكثر موضوعية من ذي قبل، ذلك أن أركان الإرسال الأساسية، من راوٍ ومروي له، قد استكملت، مما سهّل فعالية الإبلاغ السردية الذي هو الحافظ الكامن خلف الأثر السردية، وينبغي التأكيد هنا، أن العناية بمكون المروي له، تعود إلى الاهتمام الكبير الذي أثارته «نظرية التلقي - Reception Theory»<sup>(2)</sup> في أوساط المعنيين في السرديات.

ميّز جاتمان بين مستويات عدة للإرسال والتلقي، تبعاً لنوع العلاقة التي تربط المرسل بالمتلقي، فتوصل إلى المستويات الآتية:

- 1 - مستوى يحيل على مؤلف حقيقي، يعزى إليه الأثر الأدبي، يقابله قارئ حقيقي يتجه إليه ذلك الأثر.
- 2 - مستوى يحيل على مؤلف ضمني، يجرده المؤلف الحقيقي من نفسه، يقابله قارئ ضمني يتجه إليه الخطاب.
- 3 - مستوى يحيل على راوٍ ينتج المروي، يقابله مروي له، يتجه إليه المروي. ويرى جاتمان أنّ «النص السردية» يكون نتاجاً للمستويين الثاني والثالث، أما المستوى الأول، الذي يمثله المؤلف الحقيقي والقارئ الحقيقي، فإليهما يعزى الأثر السردية المجرد، قبل أن تُغذّيه القراءة بإمكانات التأويل. وبعد أن يعبر جاتمان عن تلك المستويات، بترسيمة توضح العلاقات فيما بينها، ينتهي إلى القول، «إنّ تقديم نموذج لراوٍ، يفضي إلى-استدعاء نموذج من المروي له، يكون موازياً له»<sup>(3)</sup>.

#### النص السردية



(1) Prince "Introduction to Study of Narratee" In: tomkins (ed) "Reader-Response Criticism", P.7.

(2) اتجاه في الدرس والتحليل، يعنى بالأثر الذي يحدثه الخطاب في المتلقي، وطرائق تلقي الأثار الأدبية، وقد اهتم به عدد من الباحثين الألمان، بوجه خاص، مثل: ياكوبس وآيزر وشميد، وسرعان ما احتل مكانة مرموقة في حركة النقد الحديث، للتفصيل، نحلل إلى Tompkins, Reader-Response criticism الذي احتوى على أهم البحوث في هذا الشأن.

(3) Story and Discourse, P.255.

وينحو لتنفلت المنحى ذاته، حينما يربط مستويات الإرسال، بمستويات التلقي بما يجعل المروي له في نفس مستوى الراوي، وكلاهما، إرسالاً واستقبالاً، يسهمان في خلق العالم الفني في الخطاب السردى<sup>(1)</sup>. أما جوناثان كلر، فإنه يحدد أربعة مستويات للتلقي، ترتبط بالدرجة التي تحدد موقع المتلقى، سواء كان متلقياً للآخر، أم للمروي، وتلك المستويات هي:

- 1 - مستوى يمثل المتلقي الحقيقي وهو القارئ بمعناه العام.
- 2 - مستوى يمثل المتلقي النظري، وهو الذي يتلقى الأثر الأدبي بوصفه رسالة متخيلة من المؤلف.
- 3 - مستوى يمثل المتلقي السردى، وهو الذي يستقبل المروي بوصفه رسالة من الراوي.
- 4 - مستوى يمثل المتلقي السردى المثالي، وهو الذي يؤول رسالة الراوي حسب رغبته الخاصة<sup>(2)</sup>.

إنّ مستويات التلقي الثلاثة تماثل لدى جاتمان ولتفنت وكلر، أما المستوى الرابع، حسب تصنيف كلر، فإنه يندرج في التأويل، ولهذا، فهو أدخل بما يصطلح عليه كلر نفسه بـ «شعرية القراءة Poetics of Reading».

يحدد برنس، وظائف المروي له، في البنية السردية، قائلاً، إنه «يتوسط بين الراوي والقارئ، ويسهم في تأسيس هيكل السرد، ويساعد في تحديد سمات الراوي، ويجلي المغزى، ويعمل على تنمية حبكة الأثر الأدبي، كما إنه، يؤشر المقصد الذي ينطوي عليه ذلك الأثر»<sup>(3)</sup>.

إنّ نظرة إلى العلاقات التي تربط بين الراوي والمروي والمروي له، تكشف، أنّ كل مكون، لا تحدّد أهميته بذاته، إنما بعلاقته بالمكونين الآخرين، وأنّ كل مكون، سيفتقر إلى أي دور في البنية السردية، إن لم يندرج في علاقة عضوية وحيوية معهما، كما أنّ غياب مكون ما أو ضموره، لا يخلّ بأمر الإرسال والإبلاغ والتلقي، حسب، بل يقوض البنية السردية للخطاب، ولذلك، فالتضافر بين تلك المكونات، ضرورة ملزمة في أي خطاب سردي.

---

(1) جاب لتفنت، مستويات النص السردى الأدبي، ترجمة رشيد بنحدو، مجلة أفاق، المغرب عدد 9/8 لسنة 1988 ص 79-90.

(2) Culler, on Diconstruction, P.34.

(3) Reader - Response criticism, P.23.

### (3)

تتحدر المرويات السردية بصورة عامة، عن جذور شفاهية، ذلك إنها، كانت تتداول مشافهة، فهي «فن لفظي»<sup>(1)</sup>، يعتمد على الأقوال الصادرة عن راوٍ، يرسلها إلى متلقي، ولهذا السبب، كانت الشفاهية موجهاً رئيساً في إضفاء السمات الشفاهية على الملاحم والحكايات الخرافية والأسطورية، وظلت تهيمن على صياغة الأخبار والحكايات إلى أن ظهرت الطباعة في مطلع العصر الحديث، إذ استأثرت الكتابة، بمكانة لا بأس بها، في التعبير عما كانت المشافهة تعبر عنه من قبل، أما «التدوين» فلم ينهض إلا بمهمة تقييد المرويات الشفاهية.

لقد جرى تمييز بين السرد الشفاهية، وبين السرد المكتوبة، ولم يخضع التمييز لعامل الزمن، كون الأولى تنتمي إلى الماضي البعيد، والثانية إلى العصر الحديث، إنما وضع في الاعتبار، الخواص الفنيّة المميزة للبنى السردية في كل منهما، إذ انصفت المرويات السردية الشفاهية، بأنها تتألف من «الراوي وحكاياته والمتلقي الضمني»، أما السرد الكتابية، فإنها تتألف من «محاكاة» أو «تمثيل» لكل من «الراوي وحكاياته والمتلقي الضمني»<sup>(2)</sup>. ويلزم هذا التمييز، القول، إنه يقرن السرد الشفاهية، بالبروز الكامل للمكونات السردية التي تكونها، بما يجعل كل مكون، عنصراً قائماً ظاهراً، ذلك، أن المرويات الشفاهية، لا توجد إلا بحضور جليّ لراوٍ ومروي ومروي له، ولا يمكن تغييب أي مكون، الأمر الذي يقرر أن تلك المرويات، صورة استمدت وجودها من نمط الإرسال الشفاهي الذي كان مهيمناً، زمنياً طويلاً، في البنية الثقافية للمجتمعات البشرية. كما أن ذلك التمييز، يحجب عن السرد الكتابية، صفة إشهار مكونات بنيتها السردية، ويستبدلها بنوع من «المحاكاة» أو «التمثيل» لتلك المكونات. ولكنه لا يلغيها.

وفيما يمكن القول، إن المرويات السردية الشفاهية، تجعل «مسافة» واضحة، بين مكونات البنية السردية، فالراوي، غالباً ما يكون متعیناً، سواء بسماته، أم بالمسافة التي تفصله، زمنياً، عما يروي، بحيث يروي أحداثاً لا تعاصره وقد لا ترتبط به إلا كونه راوياً لها حسب<sup>(3)</sup>، كما أن المروري له، يتعدد تبعاً لتعدد الرواة، ويتكاثر كلما تكاثرت عددهم، والأمر

Ong, Orality and literacy, P.130.

(1)

Scholes and Kellogg, The Nature of Narrative, P.53.

(2)

(3) تصطلح في هذا البحث، على ذلك الراوي بـ «الراوي المفارق لمرويته» ويتصف بأنه يروي متوناً لا تنسب إليه، إنما يقتصر دوره في الأخذ عن راوٍ سابق، والإرسال إلى مروري له. ولا نعدم في المرويات السردية العربية وجود راوٍ آخر، دونه شأناً في البنية السردية، وهو يروي ما حدث له، وتصطلح عليه بـ «الراوي المتساهي بمرويته»، وسيلقى الضوء على دور هذين الراويين في تضاعف هذا البحث.

نفسه ينطبق على المروي، الذي يكون مباحاً أمام عدد غير معروف من الرواة، يتكاثرون بتوالي الأزمان، مما يجعلهم يروون مروياً لا ينتمي إليهم ولا إلى عصرهم. فإنَّ السرد المكتوبة، تغيب إلى حدِّ كبير «المسافة» بين مكونات البنية السردية، وغالباً ما يتخفى الراوي وراء «ضمير»، يحيل إلى شخص مجهول، لا يعلن عن حضوره، ويتجنب الإشارة إلى نفسه، ويؤدي وظيفته في تشكيل المروي، بوصفه جزءاً منه، ولا يعنى بتوجيه خطابه إلى مروي له، ذي ملامح متعينة، وبذلك تنعدم، أو تكاد، الخصائص التي كانت لصيقة بالسرد الشفاهية، ويصبح الخطاب، وحدة كلية متجانسة، تتطلب تدقيقاً وتفحصاً لكشف آثار مكونات البنية السردية، ذلك أنَّ الكتابة، على نقيض المشافهة، لا تستدعي انفصلاً بين الخطاب وكتابه، شأن المشافهة التي تلزم بضرورة الانفصال بين المروي وراويها، لأنها تستعين بالصوت المسموع وسيلة لها، فيما تعتمد الكتابة على الحرف أداة لصياغة الخطاب السردية. ولقد أفضى ذلك، حسب فراي، إلى أن تتصف السرد الشفاهية بأنها «عرضية»، فيما اتصفت السرد المكتوبة، بأنها تنطوي على «الديمومة»<sup>(1)</sup>. كون الأولى تتغير بتغير العصور والرواة، في حين تظل الثانية خالدة، تقاوم عوامل التغيير والانقراض. فضلاً عما تتميز به السرد المكتوبة، من ميزة الاندراج في سياق قراءات جديدة، كلما تغير الزمن، مع احتفاظها بالأصل الذي ظهرت فيه، في حين لا تتصف المرويّات الشفاهية بسمة الثبات، مما يعرضها للتغيير والتزييف والفناء، بفعل مرور الزمن<sup>(2)</sup>.

#### (4)

ينتمي السرد العربي القديم إلى السرد الشفاهية، فقد نشأ في ظلِّ سيادة مطلقة للمشافهة، ولم يقدِّم التدوين، الذي عرف في وقت لاحق لظهور المرويّات السردية، إلا بتثبيت آخر صورة بلغها المروي، الأمر الذي يؤكد قضية تاريخية مهمة، وهي أنَّ المدونات السردية، لا تمثل سوى المرحلة الأخيرة التي كان عليها المروي قبل تدوينه.

لم تكن الشفاهية نظاماً طارئاً في الثقافة العربية، بل كانت حضناً نشأت فيه كثير من مكونات تلك الثقافة، في مظاهرها الدينية والتاريخية واللغوية والأدبية، ولقد استمدت

Frye, Anatomy of criticism, P.249.

(1)

(2) استأثرت الكتابة بعناية المناهج الحديثة في الفلسفة والتحليل، وبخاصة تلك التي يصطلح عليها وما بعد البنية Post-Structuralism، ومن أبرزها «التفكيك Deconstruction» وخصها دريدا، باهتمام بالغ، بما جعلها من مقولات منهجه الأساسية، وقد فصلنا ذلك في كتابنا «التفكيك: الأصول والمقولات» الدار البيضاء 74-80.



الشفافية قوتها المعرفية من الأصول الدينية - الفكرية التي وجهتها توجيهاً خاصاً، بما يجعلها تندرج في خدمة الدين، رؤية وممارسة.

لقد نشأت المرويات السردية العربية وسط منظومة شفافية من الإرسال والتلقي، مما جعلها، تشكل أنواعاً وبنى في ظل تلك المنظومة، وأصبح تبعاً لذلك، أمر الكشف عن طبيعة الشفافية العربية أصولاً ومظاهر، ضرورة لا يستقيم البحث دونها كونها موجهاً رئيساً، صاغ بنية تلك المرويات<sup>(1)</sup>.

يتألف الموروث الإخباري والحكائي لأية أمة من الأمم، من عدد يصعب حصره من الأخبار والحكايات في أغراض شتى، وموضوعات كثيرة، ومن المؤكد أن ذلك الموروث خضع لنظام تراكم الأخبار طبقاً لمرور الزمن، مما جعله، غنياً ومتنوعاً وكثيراً، كلما مضت الأزمان والعصور، وشيئاً فشيئاً، بدأ ذلك الموروث، يخضع آلياً لتصنيف خاص، فيتنظم في أغراض وأنواع محددة، كالأخبار والحكايات الخرافية أو الأسطورية، أو الدينية، أو الأخبار الخاصة بأعمال الأشخاص أو الأمم. إن الموروث الإخباري العربي، لا يتناقض وطبيعة الموروث الإخباري لدى الأمم الأخرى، فشأنه شأنها، إذ هو يزخر بمختلف الحكايات والأخبار في أغراض شتى.

لقد نهضت الأنواع القصصية العربية الكبرى، كالحكاية الخرافية والسيرة والمقامة على موروث إخباري وفيما يمكن القول إن الحكاية الخرافية، استندت إلى الأخبار القديمة التي تنتمي إلى مرحلة متقدمة من مراحل وعي الإنسان، فإن السيرة تشكلت أول الأمر من الأخبار الخاصة بالرسول وحياته، أما المقامة، فإنها استلهمت أخبار الشطار والعيارين والظرفاء، ولكن بنية النوع القصصي، تختلف عن بنية الخبر في كل مكونات البنية السردية، وعليه فإن البحث في تشكل الأنواع، لا يهدف إلا إلى كشف تكوينها، في سياق التطور التاريخي لها، فضلاً عن الوقوف على الأشكال التي تندرج ضمن النوع الواحد، وانتخاب أجزائها تمثيلاً، لتكون موضوعاً للبحث والتحليل.

إن هذا البحث، سيقف تحديداً على الحكاية الخرافية والسيرة الشعبية والمقامة، بوصفها الأنواع التي تهيأت لها الظروف، لتكون أظهر الأنواع والأشكال القصصية في الأدب العربي القديم.

---

(1) سنخصص الباب الأول من البحث لكشف طبيعة الموجهات الخارجية التي أثرت في المرويات السردية العربية.



الباب الأول

---

الموجهات الخارجية للسرد العربي: استنطاق الاسس



## 1 - الرؤية الكتابية للوجود :

لم يقتصر القرآن الكريم على تثبيت دلالة مركزية لمفهوم الكتابة، بل قدم صياغة وجودية للكون بوساطتها، حينما جعله قائماً.

إنَّ الجذر الدلالي، الذي جعله القرآن مركزاً للفعل «كتب» وما يشتق منه، هو: الجمع، الذي هو ضد التفريق والتشتيت، ولهذه الدلالة، أهمية كبيرة في سياق عملية التحول الحضاري التي صاحبت نزول القرآن، ورافقت الأثر الذي أحدثه في البنية الثقافية آنذاك، بوصفه رسالة إلهية، تهدف إلى جمع شتات العالم، وتأسيس حالة جديدة، إثر مرحلة انفتحت إلى أسباب الترابط والتماسك.

لقد أظهرت دلالة الجمع في اللغة العربية، فيما بعد، إذ يورد ابن منظور (1331 = 732) والنويري (1418 = 821) والقلقشندي (1418 = 821)، أن الكتاب سُمِّيَ كتاباً لأنه يجتمع الحروف<sup>(1)</sup>، وذلك، إنما يشير في الوقت نفسه، إلى أنَّ ما لا ينضوي في نظام الحروف، ممثلاً بالكتابة، سيكون معرضاً للتشتت والضياع.

لقد اختلف في أمر معرفة العرب الكتابة، فقيما يرى ابن سعد (844 = 230) وابن كثير (774 = 1372)، إنها كانت قليلة قبل الإسلام، بل نادرة<sup>(2)</sup>، فإن ابن النديم (990 = 380)، يورد أخباراً، كثيرة، ترجع معرفة العرب بها إلى عصور سحيقة في القدم<sup>(3)</sup>، ف «أول شيء خلقه، الله تعالى القلم»<sup>(4)</sup> كما يؤكد ابن أبياس (ق 59 = ق 15 م) وذلك، قبل أن يخلق

(1) ابن منظور، لسان العرب، بيروت، مادة «كتب» والنويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة 1:7، والقلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا القاهرة 51:1.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق ادوارد سخبو، ليدن ج 3 ق 2: 35، 59، 77، 148، وج 6: 36، وابن كثير، فضائل القرآن، ذيل تفسير القرآن العظيم، بيروت 450:7.

(3) ابن النديم، الفهرست، تحقيق رضا - تجدد طهران 8-7.

(4) ابن أبياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، بغداد 3.

العرش والوجود. أما القاضي النعمان (363 = 973) فيقرر أن «أول ما خلق الله الحروف»<sup>(1)</sup>. وسواء كان الله قد خلق القلم في أول الأمر، أم الحروف، فإن، ما كان يهدف هؤلاء إلى تأصيله، ليس معرفة العرب بالكتابة، وحسب، إنما كيفية قيام الكون بها أيضاً، طبقاً للموروث الديني الذي استقوه من القرآن والحديث حول القلم واللوح.

ورد ذكر القلم، بصيغة الإفراد، في القرآن، مرتين: في سورتي القلم - 1 والعلق - 4. وبصيغة الجمع مرتين أيضاً، في سورتي لقمان - 27 وآل عمران - 44. وورد ذكر اللوح، بمعنى الشيء الذي كتب القرآن عليه. مرة واحدة، في سورة البروج - 22، وبمعنى ألواح التوراة في سورة الأعراف - 145 و 150 و 154، وبمعنى اللوح الخشبي الذي يستعمل في السفينة، مرة واحدة في سورة القمر - 13. واقسم الله بالقلم في قوله «نون والقلم وما يسطرون»<sup>(2)</sup>، وقرن العلم به، في قوله «اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم»<sup>(3)</sup> وذلك كما يقول ابن المديبر (279 = 892) - «إفصاحاً عن حاله، وإعظاماً لشأنه، وتنبهياً لذكره»<sup>(4)</sup>، ويؤكد الزمخشري (538 = 1143) تلك الفكرة، بقوله إن ذلك إنما جاء «تعظيماً له لما في خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة»<sup>(5)</sup>.

ورد عن الرسول ﷺ ، قوله «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن»<sup>(6)</sup> وفي رواية أخرى «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له اكتب، فقال ما أكتب؟، فقال: أكتب القدر، وما كان، وما هو كائن إلى الأبد»<sup>(7)</sup>. وعن ابن عباس (68 = 687) قوله «إنما يجري الناس على أمر قد فرغ منه»<sup>(8)</sup>. ويعبر عن ذلك المقدسي (378 = 988) بقوله، «إن الله «لما أراد أن يخلق الخلق، علم بما هو كائن، وما هو مكُونه، فأجرى القلم به على اللوح»<sup>(9)</sup>. أما اللوح المحفوظ، فهو، حسب رواية الترمذي (279 = 892) - «درة بيضاء صفائحها من الياقوت الأحمر، وطوله ما بين السماء والأرض، وعرضه من المشرق إلى المغرب»<sup>(10)</sup>. وعليه، طبقاً لرواية عمرو بن العاص (43 = 633)

(1) النعمان بن حيون، أساس التأويل، تحقيق عارف تامر، بيروت 36.

(2) ابن المديبر، الرسالة العذراء، تحقيق زكي، القاهرة 41.

(3) الزمخشري، الكشاف، القاهرة 4:141.

(4) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1:32.

(5) المسعودي، أخبار الزمان، بيروت 26، والهندي، كنز العمال في السنن والأقوال حيدر أباد 16:6،

وبدائع الزهور 3.

(6) تاريخ الرسل والملوك 1:35.

(7) المقدسي، البدء والتاريخ، باريس 1:162.

(8) بدائع الزهور 3.

«كتب الله تعالى مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات الأرض بخمسين ألف عام»<sup>(1)</sup> وبذلك فقد احتوى كل شيء «ومما كان ويكون»<sup>(2)</sup>.

لم تقتصر العناية بأمر القلم واللوح على المؤرخين والمحدثين، إنما وجدت لها صدى كبيراً في مرويات الإسراء والمعراج، إذ يرد وصف مفصّل لهما في «معراج محمد» على لسان الرسول، وبصيغة السرد المباشر على النحو الآتي: «وفي الطريق رأيت كرسي العرش، وقد اتصل بالسماء حتى بدا لي أنه خلق معها، كان كله من نار، وبه العناصر الأربعة: النار والهواء والماء والتراب والعالمين والجنة والجحيم، كلها خلقها الله في نفس الوقت مع كرسيه الذي وسع كل شيء، وأشع وأعظم الضياء، ومعها خلق الله اللوح المحفوظ، طوله مسيرة ألف عام، وكله من اللؤلؤ الأبيض، وحوافه من الباقوت، ووسطه من الزبرجد، وكل ما خط عليه من كتابه، فهو مسجل بالنور الخالص، ينظر الله إلى هذا اللوح، مائة مرة كل يوم، وفي كل مرة يمحو ما يشاء، ويثبت، يحيي ويميت، يعزّ من يشاء، ويذل من يشاء، وقد خلق الله مع اللوح قلماً من نور، طويل عريض، يبلغ مسيرة خمسمائة سنة، وأمره أن يكتب كل علمه وخلقته الذي كان منذ بدء العالم إلى منتهاه، فامتثل لأمره، وسجل بخطه الناعم الرقيق السريع، كل شيء»<sup>(3)</sup>.

إنّ الوجود، على وفق الرؤية الدينية التي تصدر عما ورد في القرآن والأحاديث النبوية، حول القلم واللوح المحفوظ، ما هو إلا فعالية كتابية مستمرة من إنتاج الخطاب. إنّ الكون وموجوداته يعيشان في سراب الكتابة، منذ ابتداء الزمان، إلى منتهاه، وهو إنما تدافع حروف القلم على اللوح المحفوظ.

يصوغ الغزالي (505 = 1111)، هذه الرؤية الكتابية للوجود، صياغة عرفانية قائلاً: إنّ الله «كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره في اللوح المحفوظ، ثم أخرجه إلى الوجود على وفق تلك النسخة، والعالم الذي خرج إلى الوجود بصورته تتأدى منه صورة أخرى إلى الحس والخيال، فإن من ينظر إلى السماء والأرض، ثم يغض بصره، يرى صورة السماء والأرض في خياله، حتى كأنه ينظر إليهما. ولو انعدمت السماء والأرض، وبقي هو نفسه لوجد صورة السماء والأرض في نفسه كأنه يشاهدها، وينظر إليها، ثم يتأدى من خياله أثر

(1) م. ن. 3.

(2) السكتواري، محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر، القاهرة 11.

(3) معراج محمد، أورده صلاح فضل، ملحقاً في كتابه «تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لداني» القاهرة 237، وتجيل حول مرويات الإسراء والمعراج فضلاً عن ذلك إلى ما رواه ابن عباس والقشيري حول واقعة إسراء الرسول ومعراجه.

إلى القلب، فيحصل فيه حقائق الأشياء التي دخلت في الحس والخيال، والحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال، والحاصل في الخيال موافق للعالم الموجود في نفسه، خارجاً من خيال الإنسان وقلبه، والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة في اللوح المحفوظ<sup>(1)</sup>.

لم يقتصر الأمر عند تأويل ما ورد في القرآن والحديث، تأويلاً باطنياً إستناداً إلى ما توحى به تلك الإشارات الموجزة، بل تعداها إلى العمل على تشكيل الكون ونظامه، طبقاً لما توحى به تلك الإشارات. ولعل أكثر التصورات عمقاً التي تندرج في هذا الإطار، التصور الذي قدمه الكرمانى (411 = 1019) في نظريته الباطنية - التأويلية، الخاصة بالمطابقة بين «الصنعة الإلهية» و«الصنعة النبوية».

يصدر الكرمانى عن رؤية تأويلية، انحدرت عن أصول غنوصية<sup>(2)</sup>، ويهدف إلى إيجاد مماثلة بين رتب الموجودات الإلهية من جهة ورتب الناطقين والأسس (= الأنبياء والأولياء) من جهة ثانية. مؤكداً أن الله أوجد العالم على سبيل الإبداع من لا شيء، وأولى مراتب الإبداع عنده؛ «الموجود الأول» - «الذي وجوده لا من مادة، والشئ الأول الذي إن طلبت إحاطة بكيفية وجوده، لن تنال كونها محجوبة عن العقول بوقوعها تحتها»<sup>(3)</sup>. ينقض الكرمانى هنا، نظرية الفيض التي تقول بأن الوجود فاضٍ عن ذات الخالق، منطلقاً من مبدأ التوحيد وتجريد الذات الإلهية عن أيما صفة، ذلك أن نظرية الفيض، كما يرى الكرمانى، تناقض بالقول: إنَّ الفيض يكون من جنس ما منه يفيض، مشاركاً له في الصفة. ولما كان «الذي يتعالى على ذلك، فلا سبيل إلا القول بالإبداع، الذي أول مراتبه، «الموجود الأول» الذي هو شأن الخالق، يتصف بالقدرة على الإبداع، وعن هذا «الموجود الأول» ينبعث «العقل الأول»، وعن هذا الأخير ينبعث كل من «المنبعث الأول» الذي هو «القلم» و«المنبعث الثاني» الذي هو «اللوح» ويفرق بينهما، بكون «القلم» ينتسب إلى عقل الموجود الأول، في حين ينتسب «اللوح» إلى معقول ذلك الموجود، فالاختلاف حاصل في طبيعة الانتساب ولهذا، فالقلم، عند الكرمانى، أشرف من اللوح، بحسب انتسابه.

تتكون العلاقة بين القلم واللوح، في كون الثاني قابلاً لصور الأول، الذي يقوم بمهمة

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين القاهرة 2:3.

(2) بحث في أصول الغنوص وانتقاله إلى الفكر العربي الإسلامي، تفصيلاً الجابري في «نقد العقل العربي» بجزئيه الأول والثاني، وكوربان في «تاريخ الفلسفة الإسلامية». وأولييري في «الفكر العربي ومركزه في التاريخ».

(3) الكرمانى، راحة العقل، تحقيق مصطفى غالب، بيروت 174 وسنجح عليه في المتن.



الفاعل، في حين تتخلق صور موجودات العالم على سطح الثاني. فالقلم مأمور منذ الأزل بخطط صور الموجودات على اللوح، وتلك الموجودات محكومة بنظام العلاقة بين القلم واللوح إلى الأبد، تبعاً لمراتب الإبداع وبوساطة العلاقة المترابطة بين القلم واللوح، يمتلك الوجود ديمومته وأبديته.

يتصف القلم بأنه عقل قائم بالفعل، لأنه وجد عن موجود عاقل، فهو كالشعاع الصادر عن الشمس، ولما كان الموجود الأول عقلاً محضاً، كان القلم كذلك لصدوره عنه من ناحية العقل، ولهذا، لا فرق بينهما، ويتشاركان في الصفات، وأحوالهما متشابهة في «الجلالة والعلاء والكبرياء والهيبة والسناء والاعتباط والمسرة» - 219. لكن القلم مشتاق إليه، بسبب صلته به إذ هما ينتسبان معاً إلى مركز العقل. أما اللوح، فلأنه ينتسب إلى معقول الموجود الأول، فهو لا يشبهه في الصفات، لأن وجوده عن المبدع الأول لا بقصد أول، شأن القلم، ولأن درجة المراتب تتحدد بدرجة الانتساب. ومن أجل أن يمنح المبدع الأول، اللوح، قوة، تلتحق به، أضفى عليه خاصية، تمثل الأشياء، سواء أكانت فاعلة أم مفعولة، وعن الأشياء الفاعلة انبثقت «المتحركات من السماوات والكواكب» وعن الأشياء المفعولة انبثقت «الطبايع والمواليد» ويتفاعل هذين الركنين تنبثق الحياة. وذلك أن «الموجودات بتطابقها متوازنة ناطقة بتمام العناية بها في إعطائها كل شيء منها حقه الذي يليق به، موجبة أن ما وجد عن الأول من الهيولى (= اللوح) صار مادة للمعقول البرية فيها تعمل، وما حصل عن العقول البرية فيما فعلته عن عالم الجسم دون الأفلاك من المواد، صار مادة للطبيعة فيها، تعمل في إخراج المواليد» - 225.

ولما كان القلم عقلاً واللوح هيولى، فإن الأخيرة «تظل محتاجة إلى تأثير العقول المنبثقة فيه لتصير بسطوع أنوارها فيها، قائمة بصورتها، فاعلة في غيرها» - 227. وذلك لتستمر دورة الحياة في مراتب الوجود التي تلي هذه المرتبة.

تكشف المعطيات التي وقفنا عليها، سواء المعطيات الأصلية في القرآن والحديث أم المعطيات التأويلية حولهما، عن منحى في تفسير ماهية الوجود، يرى، بأن الكون علامة، ركنها القلم واللوح المحفوظ، وأن ديمومة الوجود مقترنة بفعل الكتابة وأنه لا يكتب سيرورته من كونه واقعاً، إنما من كونه نتاجاً كتابياً أوجده الخطاب الذي لا يمثل في حقيقة الأمر سوى ذاته، إذ هو لا يحل إلى غيره. ومهما تكن طبيعة النقد الذي يمكن أن يوجه إلى هذه الرؤية، فهل أحدثت تلك الرؤية، أثراً في البنية الثقافية؟، وهل استطاعت أن تمد الكتابة بقوة خاصة في تلك البنية، أم أن فهم الأوائل لكلام الله، على نحو مغاير، سوغ عملياً ظهور المشافهة؟ إلى ذلك تنجبه عناية الفقرة اللاحقة.

## 2 - الصوت وميتافيزيقيا المعنى :

لم يقبض للرؤية الكتابية للكون، التي وقفنا عليها في الفقرة السالفة إن ترك أثرًا ما في البنية الثقافية، فقد كانت جزءاً من الجدل الكلامي الذي غلّف بالتأويل. ولم تعامل الكتابة، إلا على أنها وسيلة لتدوين الألفاظ، ولم ينظر إليها أبداً على أنها كيان خاص يحيل على معنى خاص به، ولهذا، ألحقت بالكلام، وحددت وظيفتها في تقييد المنطوق، وبذلك لم تدل على ذاتها، بل على غيرها، وصارت أهميتها تتقرر في ضوء ما تقوم بتدوينه من كلام شفاهي، ويرجع ذلك إلى القرآن نفسه إذ إنّ مفهوم «كلام الله» دعم اتجاه المعنى واللفظ، وقُلل من شأن الكتابة، كما سنرى.

يعرّف أبو الحسن الأشعري (330 = 941) الكلام، بأنه: «معنى قائم بالنفس»<sup>(1)</sup> ولمّا كان القرآن كلام الله، فهو إذن معنى قائم بنفسه، و«الكتابة رسوم تدل عليه، وليس بموجود معها»<sup>(2)</sup>. إنّ نفي الكتابة عن القرآن، قضية جوهرية عند الأشعري وغيره من الأصوليين، فالكتابة، اصطلاح بشري محدث، والقرآن معنى قديم كامن في نفس الله، ولا يجوز إلحاقه بها، إلا كونها رسوماً تحيل إليه. إنّ ما تؤديه الكتابة، كما يؤكد القلقشندي، هو أنها تعمل على «تقييد الألفاظ بالرسوم الخطية»، لأن «مادتها الألفاظ»<sup>(3)</sup>، فالكتابة إذن تحيل على لفظ، وهذا اللفظ يحيل على ملفوظ هو المعنى الخالد في النفس.

وقف الغزالي على إشكالية المعنى واللفظ في كلام الله، فتوصل إلى «أنّ الكلام إمّا أن يسمعه نبي أو ملك من الله تعالى، أو يسمعه نبي أو ولي من ملك، أو تسمعه الأمة من النبي. فإن سمعه ملك أو نبي من الله تعالى فلا يكون حرفاً ولا صوتاً ولا لغة موضوعة حتى يعرف معناه بسبب تقدم المعرفة بالمواضعة. ولكن يعرف المراد منه، بأن يخلق الله تعالى في السامع علماً ضرورياً بثلاثة أمور: بالمتكلم، وبما سمعه من كلامه، وبمراده من كلامه. فهذه ثلاثة أمور لا بد وأن تكون معلومة؛ والقدرة الأزلية ليست قاصرة عن اضطراب الملك والنبي إلى العلم بذلك ولا متكلم إلا وهو محتاج إلى نصب علامة، لتعريف ما في ضميره، إلا الله تعالى، فإنه قادر على اختراع علم ضروري به، من غير نصب علامة وكما أن كلامه، ليس من جنس كلام البشر، فسمعه الذي يخلقه لعبده ليس من جنس سمع الأصوات، لذلك يعسر علينا تفهّم كيفية سماع موسى كلام الله تعالى الذي ليس بحرف ولا صوت، كما

(1) الأشعري، مقالات الإسلاميين، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة 2: 99.

(2) م. ن 146:2 وحول الآراء المتعددة بصدده «كلام الله»، نحيل على النيسابوري تفسير غرائب القرآن

بيروت 1: 44.

(3) صبح الأعشى 1: 36.

يعسر على الأكمة تفهّم كيفية إدراك البصير للألوان والأشكال، أما سماع النبي عن الملك فيحتمل أن يكون بحرف وصوت دال على معنى كلام الله، فيكون المسموع، الأصوات الحادثة التي هي من فعل الملك دون نفس الكلام، ولا يكون هذا سماعاً لكلام الله بغير واسطة، وإن كان يطلق اسم سماع كلام الله تعالى، كما يقال سمع شعر المتنبي وكلامه، وأن سمعه من غيره وسمع صوت غيره<sup>(1)</sup>. يثير هذا النص - الذي حرصنا أن نبينه كاملاً - إشكاليات كثيرة، منها: إنه ينفي الحرف والصوت واللغة عن الله، وذلك يستدعي وسيلة اتصال خاصة مع الملك أو النبي، ولحل هذه المعضلة، يطرح الغزالي فكرة «المعرفة الضرورية» التي هي «المكاشفة»، يفضي ذلك إلى اختلاف في مفهوم السمع، بسبب اختلاف جنس الأصوات، فسماع النبي عن الملك (= الوحي) «يحتمل» أن يؤدي بحرف وصوت دالين على معنى الكلام الإلهي. فالأصوات المسموعة هي من فعل الوحي، ولكنها ليست كلام الله، هذا من جهة، ومن جهة ثانية - وهذا ما يضمن الغزالي التصريح به - فإن التدرج في تغيير اللفظ، تبعاً للتدرج في ابتعاد مصدره، سيؤدي، لا محال، إلى أن ما يسمعه الإنسان هو لفظ الرسول، وليس لفظ الله، قياساً على المثال الذي أتى به الغزالي، من أن سماع شعر المتنبي يدل على سماعه من غيره. وكل هذا ينقض ما قال به علماء الأصول، من أن القرآن «وحي متلو مؤلف تأليفاً معجز النظام»<sup>(2)</sup> وأنه «يجب أن يكون لفظه من الله»<sup>(3)</sup>. بخلاف الحديث الذي هو «وحي مروى منقول غير مؤلف ولا معجز النظام»<sup>(4)</sup>. ليس ذلك فقط، ما يثيره الغزالي، بل إن إضفاء صفة التعالي المطلق على المعنى القرآني، وفصله عن تركيبه اللفظي، سيقوض فكرة الإعجاز، لأنها مقترنة بنظام الخطاب، وبهذا، فالغزالي امتنهن اللفظ، إزاء القوة المتنامية التي منحها للمعنى، ناهيك عن الكتابة التي أهملت هنا تماماً. يلزم أيضاً، أن نردف ذلك النص، بآخر للغزالي نفسه، لا يقف فيه عند حدود شحن المعنى بقوة كلامية ترقى به إلى ذرى الميثافيزيقيا حسب، إنما بتكريس الشفاهية التي هي من نتاج الإعلاء من شأن المعنى، وهو المحور الذي يتمركز حوله البحث هنا، يقول حجة الإسلام:

«علم إن كل من طلب المعاني من الألفاظ ضاع وهلك، وكان كمن استدير المغرب وهو يطلبه. ومن قرر المعاني أولاً في عقله، ثم اتبع المعاني الألفاظ، فقد اهتدى، فلنقرر

(1) الغزالي، المستصفى من علم الأصول، القاهرة: 1:337-339.

(2) ابن حزم، الأحكام في أصول الأحكام القاهرة: 1:87.

(3) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق لطفي عبد البديع، القاهرة: 2:17.

(4) الأحكام في أصول الأحكام 1:87.

المعاني، فنقول: الشيء في الوجود أربع مراتب: الأولى حقيقته في نفسه، الثانية ثبوت مثال حقيقته في الذهن، وهو الذي يعبر عنه بالعلم. الثالثة تأليف صوت بحروف تدل عليه، وهو العبارة الدالة على المثال الذي في النفس. الرابعة تأليف رقوم تدرك بحاسة البصر دالة على اللفظ، وهو الكتابة. فالكتابة تبع للفظ إذ تدل عليه، واللفظ تبع للعلم إذ يدل عليه، والعلم تبع للمعلوم إذ يطابقه ويوافقه. هذه الأربعة متطابقة متوازية، إلا أن الأولين وجودان حقيقيان لا يختلفان بالأعصار والأمم، والآخرين هو اللفظ والكتابة، يختلفان بالأعصار والأمم لأنهما موضوعان بالاختيار، ولكن الأوضاع وإن اختلفت فهي متفقة في أن قصد بها مطابقة الحقيقة. وبغض النظر عما تثيره رؤية الغزالي هذه من نقد لمفهوم المطابقة لديه، حول علاقة الألفاظ والحروف بالموجودات الواقعية والذهنية، كونه يطابق بينهما، فإن تأكيده على كون العلم بالشيء وجوداً حقيقياً لا يتغير، بتغير الزمان والمكان، يكتسب خطورة كبيرة، ذلك أن الألفاظ لا تحيل على الشيء، إنما على معناه.

وهو ما يفضي إلى اختلاف في درجة «العلم» بالأشياء بين الأمم، وعلى الرغم من ذلك، فالغزالي، إنما يهدف لما يريد تقريره هنا، إذ، سيقوم في الجزء الأخير من النص، بإسقاط حدي العلم والكتابة، مبقياً على الشيء واللفظ، مانحاً بذلك الشفافية، قوة معرفية في البنية الثقافية العربية ولندعه، يستأنف التعبير عن ذلك:

«معلوم إنَّ الحد مأخوذ من المنع، وإنما استعير لهذه المعاني، لمشاركته في معنى المنع، فانظر المنع، أين تجده في هذه الأربعة. فإذا ابتدأت بالحقيقة لم تشك في أنها حاصرة للشيء مخصوصة به، إذ حقيقة كل شيء خاصيته التي له وليست لغيره، فإذا الحقيقة جامعة مانعة، وإذا نظرت إلى مثال الحقيقة في الذهن، وهو العلم، وجدته أيضاً كذلك، لأنه مطابق للحقيقة المانعة، والمطابقة توجب المشاركة في المنع، وإذا نظرت إلى العبارة عن العلم، وجدتها أيضاً حاصرة، فإنها للعلم المطابق للحقيقة والمطابق للمطابق مطابق، وإذا نظرت إلى الكتابة، وجدتها مطابقة للفظ المطابق للعلم، المطابق للحقيقة، فهي إذن مطابقة، فقد وجدت المنع في الكل إلا أن العادة لم تجر بإطلاق الحد على الكتابة، التي هي الرابعة، ولا على العلم الذي هو الثاني، بل هو مشترك بين الحقيقة وبين اللفظ»<sup>(1)</sup>. إن «العادة» هي التي تدعو الغزالي صاحب «معيان العلم في فن المنطق» إلى إسقاط حدي العلم والكتابة، والإبقاء على الحقيقة الساكنة واللفظ، الذي هو «ريح لا تبقى»<sup>(2)</sup> قيدها الكتابة. وقد ظل مفهوم المطابقة هذا مهماً في الفكر العربي، ولم تجر محاولة - فيما

(1) المستصفي 1:22.

(2) ابن الصائغ، تحفة أولي الألباب في صناعة الخط والكتاب، تحقيق هلال ناجي، تونس 25.

نعلم - للنظر مجدداً فيه إلا محاولة متأخرة، جاءت من باب التصنيف وليس من باب الإنتاج الفكري، تلك هي نظرة حاجي خليفة (1067 = 1657) إلى أن صورة الحقيقة في الذهن، ليست حقيقية، إنما هي «شبح للمعلوم، وظلّ له مخالف إياه بالماهية، غايته أنه مبدأ لاكتشافه»<sup>(1)</sup>. وهو الأمر الذي قرره حديثاً علم الدلالة في كون الدال يحيل على معنى الشيء لا الشيء ذاته.

ينبغي الآن، إعادة النظر مرة أخرى في مضمون النصّين اللذين أوردناهما قبل قليل للغزالي، وسنجد أنهما يقرران مبدأ واحداً ذا وجهين، فأولهما: ينفخ المعنى بقوة متعالية، كون التراسل بين الله من جهة والوحي والنبى من جهة ثانية، يكون متماسكاً لأنه يتم بدون ألفاظ، تليها في قوة التراسل، علاقة الاتصال بين الوحي والنبى، لأنها تحصل بلفظ يتعذر تحديده، وأخيراً علاقة التراسل بين النبي والأمة التي تتم بلفظ مفهوم. فإذا علمنا أن ألفاظ الرسول، قد تألفت بناء على ألفاظ الوحي، الذي صاغ ألفاظه استناداً إلى معنى كلام الله الكامن في نفسه، تكشف لنا. حسب منظور الغزالي، المسافة الفاصلة بين لفظ القرآن ومعناه. وثانيهما: يسوّغ منطقياً، نفي الكتابة، واستبدالها بإدانة النظر في الأشياء الساكنة واستحضار وجودها لفظاً عند الحاجة. وأفضى ذلك، إلى أن «العلم» بالشيء أصبح رهينة سلسلة الألفاظ التي تتكون وتُفنى في لحظة واحدة. ذلك إنها ربح لا تنطوي على ميزة الديقومة في الزمان، بل هي نظام يُقوض ذاته إثر تكونه، بخلاف الكتابة التي تنطوي على خاصية الديقومة، والانضواء في سياقات جديدة، حسب الحاجة إلى ذلك.

لم تظَلْ فكرة تعالي المعنى، أسيرة الجدل الكلامي المجرد، كما كان الأمر في الرؤية الكتابية للكون، بل انتشرت على نحو واسع، وأصبحت عرفاً في الممارسة الثقافية في شتى حقول الفكر، وأضحى المعنى هو الأصل، واللفظ فرع ملحق به، وصارت الروح أو النفس الخالدة هي موطن المعنى، ومثلما ظهرت ثنائية المعنى/اللفظ، ظهرت ثنائية الروح/الجسد، ومنح الزوج الأول من الثنائية سمة الخلود، فيما اتصف الزوج الثاني، بالفناء والزوال. إن الفكر العربي بمظاهره الفلسفية والكلامية واللغوية تعامل مع أطراف تلك الثنائيات، طبقاً لثنائية الجواهر والأعراض، ومهما اختلفت حقول ذلك الفكر، فإن المعنى، اكتسب فيها سمة الأصل، وامتحن اللفظ، ولم تلق الكتابة في ذلك أيما عناية، ويحسن أن ندلل على ذلك، بالقول، إن الجاحظ (255 = 868) وابن رشيق القيرواني (456 = 1036) وعبد القاهر الجرجاني (471 = 1078) وابن الأثير (637 = 1239) وابن خلدون

---

(1) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بغداد 5:1.

(808 = 1405) على ما بينهم من تباعد في الزمان، واختلاف في الاختصاص، كانوا يصدرون عن رؤية واحدة ثابتة تجاه المعنى واللفظ فألحقوا الأول بالنفس والثاني بالجسم، كما تلحق الصدف بالجواهر، وما الألفاظ إلاّ خدم للمعاني وقوالب لها<sup>(1)</sup>.

كان الجدل الكلامي، حول ماهية كلام الله، مدعوماً بممارسة واقعية تمثلت أول الأمر في اقتصار دور الكتابة على تقييد كلام الله، أي تدوينه خشية التغيير والضياع، وحظر تدوين الحديث خوف الاختلاط بينهما، وهو الحظر الذي امتد إلى حقول الفكر الأخرى، بفعل العرف الذي سنه الرسول للفصل بين القرآن والحديث. فضلاً عن تجنب الرسول، اتباع النهج نفسه الذي انتهجه أهل الكتاب من الديانات الأخرى، في اعتمادهم على الكتابة، وذم ذلك النهج، قد أفضى إلى تغييب واضح لأهمية الكتابة، وإغفال دورها الكبير في عملية الإرسال والتلقي القائمة آنذاك.

ورد عن الرسول قوله «لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن، ومن كتب عني غير القرآن فليحمه»<sup>(2)</sup>، ولما استؤذن أن يدون حديثه، قال مخاطباً كتابه «أكتباً غير كتاب الله تريدون؛ ما أضلّ الأمم من قبلكم إلا ما اكتبوا من الكتب مع كتاب الله»<sup>(3)</sup>. ولم يقتصر الأمر عند حدود حظر تدوين ما ينطق به الرسول، بل تعداه، إلى النهي عن الكتابة عامة، بل ذمها. ففي حديث له، ورد قوله: «نحن أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب»<sup>(4)</sup>. وروي عنه أنه قرن قيام الساعة بانتشار الكتابة في قوله «من أشرط الساعة أن يرفع العلم، ويقبض المال، ويكثر التجار، ويظهر القلم». وفي رواية «فشو القلم، وفشو التجار من أشرط الساعة»<sup>(5)</sup>. ولا يخفى هنا، أنّ دلالة «فشو» هي الظهور والانتشار والشيوع. وقرن في حديث آخر، الضلالة بالكتابة، في قوله «إنما ضلّ من كان قبلكم بالكتابة»<sup>(6)</sup>.

- 
- (1) الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة 1:262 وابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، وتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت 1:124 والجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني تحقيق محمد عبده، بيروت 44 وأسرار البلاغة، تحقيق ه. ريتز، استانبول 128، وابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة 1:74، وابن خلدون، المقدمة بيروت 479.
  - (2) عبد العزيز البخاري، كشف الأسرار، القاهرة 3:77، وابن عبد البر النمري جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، القاهرة 1:63، وابن الصلاح، مقدمة ابن الصلاح، تحقيق عائشة عبد الرحمن، القاهرة 296.
  - (3) الخطيب البغدادي، تقييد العلم، تحقيق يوسف العث، دمشق 33.
  - (4) ابن عبد البر النمري، بهجة المجالس وأنس الجالس، تحقيق مرسى الخولي، القاهرة 355.
  - (5) م. ن. 355.
  - (6) كشف الظنون 1:33.

أطرد موقف الرسول، بعد وفاته، في صفوف الصحابة والمحدثين، إذ روي عن الخليفة عمر بن الخطاب (24 = 644) قوله «إني والله لا ألس كتاب الله بشي»<sup>(١)</sup> وكان أبو سعيد الخدري (74 = 693) ينهى عن كتابة الحديث مخاطباً المحدثين قائلاً «لن اكتبكموه، ولن اجعله قرآناً»<sup>(٢)</sup>، ويحذو حذوه إبراهيم النخعي (96 = 714) قائلاً «لا تخلدن عني كتاباً»<sup>(٣)</sup>. ويذم سفيان الثوري (161 = 777) كاتب الحديث، قائلاً «بش المستودع العلم القراطيس»<sup>(٤)</sup>. وصار النهي عن الكتابة عرفاً سائداً امتد من الحديث إلى حقول معرفية أخرى. وورد في هذا الشأن عن الخليل بن أحمد الفراهيدي (175 = 791) قوله «ليس العلم ما حواه القمطر، إنما العلم ما وعاه الصدر»<sup>(٥)</sup>، وعن هذا الموقف ذاته، كان محمد بن سلام الجمحي (231 = 845) يصدر بقوله ليس لأحد - إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه (= الشعر) - أن يقبل من صحيفة، ولا يروى من صحفي»<sup>(٦)</sup>، ذلك، أن النظرة إلى الكتابة، قد استمدت أصولها من موقف الرسول منها، وصار عدم الاعتماد عليها واجباً، وظلت هذه النظرة سائدة إلى قرون متأخرة، فالنوي (676 = 1277) يحذر قائلاً: «ولا تأخذن العلم ممن كان أخذه له من بطون الكتب»<sup>(٧)</sup>، وابن جماعة (733 = 1332) يؤكد «أن العلم لا يؤخذ من الكتب، فإنه من أضرّ المفاسد»<sup>(٨)</sup>.

وقد أورد الجبرتي (ق 13 هـ = ق 19 م) وصفاً لتقاليد الرواية الشفاهية في عصره ممثلة بشخص مرتضى الزبيدي (1205 = 1790) صاحب «تاج العروس» وكيف أنه كان يقوم بإملاء الأحاديث «على طريق السلف في ذكر الأسانيد والرواة المخرجين من حفظه على طرق مختلفة»<sup>(٩)</sup>.

إن غلبة منحنى السماع والحفظ، كان في حقيقة الأمر، يستند أيضاً إلى الرسول، فقد ورد عنه قوله «تسمعون ويسمع منكم، ويسمع ممن يسمع منكم»<sup>(١٠)</sup>، وأهمية «السمع» تأتي

- 
- (1) تقييد العلم 49.
  - (2) م. ن. 42.
  - (3) الطبقات الكبير 6:63.
  - (4) تقييد العلم 58.
  - (5) أبو طالب المكي، قوت القلوب القاهرة 17:2.
  - (6) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة 4:1.
  - (7) النووي، المجموع: شرح المهذب، القاهرة 9:1.
  - (8) ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، حيدر آباد 123.
  - (9) الجبرتي، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار بيروت 2:106.
  - (10) الخطيب البغدادي، شرف أصحاب الحديث أنقرة 38 وقوت القلوب 2:16، أبو داود، السنن القاهرة 2:189.

من أنه حسب ابن خلدون، «أبو الملكات اللسانية»<sup>(1)</sup>، وعليه، فقد صار «أول العلم الاستماع»<sup>(2)</sup> و«لا طريق للرواية إلا السمع»<sup>(3)</sup> وهو ما يفسر موقف المحذّنين في الاعتماد على الحفظ الذي يقوم على السماع، ورفض التدوين. فقد كان أبو موسى الأشعري (44 = 664) يقول «احفظوا كما حفظنا»<sup>(4)</sup>. وقد هيمن هذا الموقف، ذلك أنّ الصحابة، كما يقول عبد العزيز البخاري (730 = 1329) - «لا يكتبون الأخبار، بل يحفظونها، ويروونها عن ظهر قلب»<sup>(5)</sup>. وتحشد كتب المحذّنين أنفسهم بالتأكيد على الحفظ وذم التدوين والكتابة<sup>(6)</sup>.

لم يقتصر الأمر عند حدود ذم الكتابة بمعنى التدوين، وتفضيل السماع والحفظ عليها، بل أصل الموقف دينياً، بتسوية أمية الرسول، وهو ما شحن الشفاهية بالقوة المنطقية التي قامت عليها، وفي هذا الصدد، يقول الغزالي:

«أما سبب إنه (= الرسول) لم يعرف الكتابة والمكتوب، فلأجل أنه كان أمياً لا يقرأ الكتاب الصناعي، وإنما يروم معرفة قراءة الحظ الإلهي الذي هو أبن وأدل على الفهم منه»<sup>(7)</sup> ولأنه كذلك، فلا ضرورة لعلمه بالكتابة، فاتصاله بالخالق، يتم بالمكاشفة التي هي قدرته على إدراك ما لا تدركه الحواس، ولهذا، فأمية الرسول فضيلة، «لأن الله تعالى لم يعلمه الكتابة، لتمكين الإنسان بها من الحيلة في تأليف الكلام. واستنباط المعاني، فيتوسل الكفار إلى أن يقولوا اقتدر بها على ما جاء به»<sup>(8)</sup> ذلك أنّ عدم معرفته الكتابة «من أقوى الحجج على تكذيب معانديه، وحسم أسباب الشك فيه»<sup>(9)</sup>.

على هذا النحو، الذي وقفنا عليه، تدرجت أسباب رسوخ الشفاهية، ابتداءً من الكلام الإلهي الذي هو معنى في نفس الله، مروراً باللفظ الذي يحيل عليه، وصولاً إلى تقييد ذلك اللفظ كتابة، وتزامن ذلك، ممارسة وجدلاً مع تسوية أمية الرسول، وذمه الكتابة

(1) مقدمة ابن خلدون 454.

(2) السهروزي (أبو حفص عمرو) عوارف المعارف، مطبوع على هامش أحياء علوم الدين 51:5.

(3) الجرجاني، الوساطة بين المتبني وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، القاهرة 16.

(4) تقييد العلم 40.

(5) كشف الأسرار 3:770.

(6) نحيل في سبيل المثال على: تقييد العلم 36، مقدمة ابن الصلاح 302 جامع بيان العلم 1:63، الطبقات الكبير 6:63.

(7) الغزالي، الإملاء على إشكالات الأحياء، طبع على هامش كتاب أحياء علوم الدين 5:37.

(8) صبح الأعشى 1:43.

(9) م. ن 1:43.



وإعلاء شأن السمع والحفظ، وجميع هذه الأسباب تضافرت، لتبلور موقفاً نظرياً شاملاً، تجاه قضية الشفاهية/الكتابة، كما ستقف عليه في الفقرة الآتية.

### 3 - ركائز النظرية الشفاهية :

حاول الجاحظ في رسالته «ذم أخلاق الكتاب»، تأصيل الشفاهية في الفكر العربي، دينياً وتاريخياً واجتماعياً، وذلك حينما ألغى أهمية الكتابة، ودعا إلى تبني الشفاهية. وهو في هذا، إنما يصدر عن الرؤية التي تشكلت في صدر الإسلام، تجاه الكتابة. وينبغي، التريث قليلاً، إزاء علل الجاحظ في ذم الكتابة، فذلك، إنما يمهد السبيل للوقوف على ركائز «النظرية الشفاهية» التي استقامت على يد علي بن رضوان فيما بعد.

يقول الجاحظ «لو كانت الكتابة شريفة، والخط فضيلة، كان أحق الخلق بها رسول الله ﷺ، وكان أولى الناس ببلوغ الغاية فيها ساداتهم، وذوو القدر والشرف فيهم، ولكن الله منع نبيه ﷺ ذلك وجعل الخط فيه دنية، وصد العلم به عن النبوة»<sup>(1)</sup>. ويؤكد الجاحظ، أن الرسول قد حرم الخط. وأن أول مرتد في الإسلام كان كاتباً. ويقرن البدع زمن الرسول والخلفاء الراشدين بالكتاب، ويرى أنهم أسباب الفتنة، ويورد أن الإمام علي بن أبي طالب، لم ينه «بذكر كاتب حتى مات»، بل إن الجاحظ، يقرر، أنه «لم يُر كاتب قط جعل القرآن سميته، ولا علمه تفسيره، ولا التفقه في الدين شعاره، ولا الحفظ للسنن والآثار عماده - 194:2».

ويرى أن للكتاب «طبايع لثيمة»، وأن «أنبلهم أحسهم» و«هم والعوام سواء» لأنهم «شرار خلق الله». وبعد أن يفرغ من ذم الكتاب، يوجه عنانيته إلى ذم الكتابة، فيقول «إن سنخ (= قبح) الكتابة بُني على أنه لا يتقلدها إلا تابع، ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم...» فأحكامه أحكام الأرقاء، ومحلته من الخدمة محل الأغياب - 190:2».

لقد توافرت لدى الجاحظ، العلل والأسباب، التي جعلته يذم الكتاب والكتابة، استناداً إلى «المأثور» الديني والاجتماعي الذي كان موجهاً أساسياً لرؤيته، ورؤية غيره حول هذا الأمر، وبذا، فقد سوَّغ شرعياً إحلال المشافهة محل الكتابة وساهم في ترسيخها، ومنحها قوة لممارسة دورها في الثقافة العربية في عصر تأسيسها الأول. ولقد ظلت محاولات إقصاء الكتابة، متواترة فيما بعد، انطلاقاً من الموقف الذي وقفه الرسول والصحابه والمحدثون والفقهاء، وتوجت بصياغة نظرية في القرن الخامس الهجري.

(1) رسائل الجاحظ 2: 189-190.

ينقل ابن أبي أصيبعة (668 = 1269) عن الأمير المبشر بن فاتك، رأي سقراط في أمر الكتابة، فيقول: «إن الحكمة (= الفلسفة) ظاهرة مقدسة، غير فاسدة ولا دنسة، فلا ينبغي لنا أن نستودعها إلا الأنفس الحية، وننزهاها عن الجلود الميتة، ونصونها عن القلوب المتمردة»<sup>(1)</sup>. وهذا الأمر هو الذي دعا سقراط إلى الامتناع عن تدوين حكمته، التي كان يلقيها لتلامذته مشافهة. ولما سأل أستاذه طيماتاوس «لم لا تدعني أدون ما أسمع منك من الحكمة؟»، أجابه «ما أوثقت بجلود البهائم الميتة، وأزهدك في الخيوط الحية، هب أن إنساناً لقيك في طريق، فسألك عن شيء من العلم، هل كان يحسن أن تحيله إلى الرجوع إلى منزلك، والنظر في كتابك. فإن كان لا يحسن، فألزم الحفظ. فلزمه سقراط - 69:1». وبالتزامه بوصية أستاذه، فإن سقراط، كما يقول الأمير ابن فاتك، قد «أضرب بمن بعده من محبي الحكمة، لأنه كان من رأيه أن لا يستودع الحكمة الصحف والقراطيس، تنزيهاً لها عن ذلك - 69:1».

لا يمكن التحقق الآن، إن كان العرب قد اطلعوا على رأي سقراط في القرن الهجري الأول، ذلك أن لديهم الأسباب الدينية التي جعلتهم ينصرفون عن الكتابة، كما تجلى ذلك بموقف الرسول منها. لكن مضمون كلام سقراط، يتماثل والموقف الذي اتخذته العرب الأوائل من الكتابة، فالحكمة المقدسة، تقابل العلم الإسلامي الذي هو الحديث النبوي، وتنزيهاً وعدم إفسادها، يقابل تنزيهه وعدم إفساده، وقدسيتها التي جعلتها لا تستودع إلا الأنفس الطاهرة، تقابل قدسيته.

تقودنا هذه الإشارة إلى الوقوف على نظرية عربية تسوغ الشفاهية، بلور معالمها، وحدد ركائزها الطبيب المصري علي بن رضوان (453 = 1061) وهي تستجيب لدواعي الإرسال الشفاهي، وتقوم على ركائز محددة، ينظمها ابن رضوان على النحو الآتي:

### الركيزة الأولى:

يقول ابن رضوان «وصول المعاني من النسب إلى النسب، خلاف وصولها من غير النسب إلى النسب، والنسب الناطق. أفهم للتعليم بالناطق وهو المعلم، وغير النسب له جماد، وهو الكتاب، ويُعد الجماد من الناطق مطيل لطريق الفهم، وقرب الناطق من الناطق

---

(1) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت 1: 69 وقد أورد البيروني النص بالصورة الآتية «لست بناقل للعلم من قلوب البشر الحية إلى جلود الضأن الميتة» - في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، حيدر آباد 133.

مقرَّب للفهم، ما فهم من النسيب، وهو المعلم، أقرب وأسهل من غير النسيب هو الكتاب<sup>(1)</sup>.

واضح أنّ النسيب، في تصور ابن رضوان، هو اللفظ وحامله اللسان، وأن غير النسيب (= الغريب) هو: الحرف وحامله الكتاب، وهنا، يستعيد ابن رضوان، قضية النطق والسمع التي خصَّصها من قبل الموروث الشفاهي العربي، ويقضي أهمية الحرف والبصر، باعتبار أنّ التناسب بين البصر والسمع غير قائم، كون الأول مقترن بالجماد (= الكتاب) والثاني بالحياة (= النطق)، ويتعذر وجود تناسب معقول بينهما. ويتجلى هنا، الإغلاء من شأن الصوت الذي أصبح دليلاً على الحياة، وذم الحرف الذي صار دليلاً على الموت.

### الركيزة الثانية:

يقول ابن رضوان «هكذا النفس العلامة، علامة بالفعل، وصورة الفعل عنها يقال له تعليم، والتعليم والتعلّم من المضاف، وكلّ ما هو للشيء بالطبع أخص به مما ليس له بالطبع، والنفس المتعلمة علامة بالقوة، وقبول العلم فيها، يقال له تعلّم، والمضافان معاً بالطبع، فالتعليم من المعلم أخص بالتعلم من الكتب - 168:3».

يعمد ابن رضوان، هنا، إلى تسويغ الشفاهية، بناء على التماثل الذي يجده في الاشتقاق اللفظي للفعل «علم». ويقم ركيزة معرفية، تخضع لذلك الاشتقاق، باعتبار تناسب الألفاظ المشتقة، وارتباطها بجذر واحد.

### الركيزة الثالثة:

يقول ابن رضوان «على هذه الصورة، المتعلم إذا استعجم عليه ما يفهمه من لفظ نقله إلى لفظ آخر. والكتاب لا ينقل من لفظ إلى لفظ، فالفهم من المعلم أصلح للمتعلم من الكتاب، وكل ما هو بهذه الصفة، فهو في إيصال العلم أصلح للمتعلم - 168:3».

تبرز ثانية إلى الوجود هنا، فكرة حضور الكلام الحي الذي يقترن بالناطق، وهو ما أشار إليه في الركيزة الأولى، وإقصاء أهمية الكتابة، كونها تفتقر إلى ذلك، فضلاً عن إمكانية استبدال الألفاظ ببعضها، الأمر الذي يتعذر حصوله في الكتابة.

### الركيزة الرابعة:

يقول ابن رضوان: (العلم موضوعه اللفظ، واللفظ على ثلاثة أضرب: قريب من

(1) عيون الأنباء في طبقات الأطباء 3: 167-168 وسنجل عليه في المتن.

العقل، وهو الذي صاغه العقل مثلاً لما عنده من المعاني. ومتوسط وهو المتلفظ به بالصوت، وهو مثال لما صاغه العقل. وبعيد وهو المثبت في الكتب، وهو مثال ما أخرج باللفظ. فالكتب مثال مثال معاني التي في العقل، والمثال الأول لا يقوم مقام الممثل لعوز الممثل، فما ظنك بمثال مثال الممثل. فالمثال الأول لما عند العقل أقرب في الفهم من مثال، والمثال الأول هو اللفظ، والثاني هو الكتاب، وإذا كان الأمر على هذا، فالفهم من لفظ المعلم، أسهل وأقرب من لفظ الكتاب - 168:3.

يلزم الترتيب أمام هذه الركيزة، إذ يثير ابن رضوان قضية مهمة، توجب التفصيل، ألا وهي مراتب علاقة الدال بالمدلول وقضية العلم والمعنى، وهي قضية تباينت الآراء حولها، لتباين زوايا النظر إليها - وقد وقفنا على جانب منها في الفقرة السابقة من هذا الفصل.

معلوم أنّ من يتلقى العلم أو يرسله، سيكون محكوماً بفعاليتي التلقي والإرسال، وفيما يتوجب على الأول أن يحلّ نظاماً متشابكاً من الشفرات المرسله إليه، ليحصل على العلم، يقوم الثاني، بتنظيم مجموعة من الشفرات، تحمل في طياتها، المحمول الذي يريد إرساله. ولهذا، فالعلم، في حالتي التلقي أو الإرسال، خاضع لتفكيك الأدلة المرسله، أو تركيبها، وبدون ذلك يتعذر وجود علم بالشئ، ذلك أنّ حصول العلم، يلزم توفر أدلة منظمة تحيل إلى معاني دقيقة.

إنّ العلم، حسب أبي الحسن الأمدي (631 = 1233) - «صفة يحصل بها لنفس المتصف بها الميز بين حقائق الأمور الكلية، ميزاً لا يتطرق إليه احتمال مقابلة»<sup>(1)</sup>، ووسيلة العلم هي: الدال، الذي هو: «المعرّف بحقيقة الشئ»<sup>(2)</sup>. والذي ينتج المعاني، التي هي: «الصور الحاصلة في الأذهان عن الموجود في الأعيان»<sup>(3)</sup>. ولما كان الدال بذاته لا قيمة معرفية له، بل بما يحمل، ذلك، أنه «لا يحصل العلم بالمدلول من نفس الدال، بل من العلم به»<sup>(4)</sup>. فإنّ العلم، لا بد من أن ينشأ على مساءلة المتلقي الدائمة للدوال المرسله إليه، لكي يستطيع أن يحصل على العلم.

يؤكد ابن حزم (456 = 1063)، أنّ الدلالة، هي: «فعل الدال»<sup>(5)</sup> فإذا لم يستطع المتلقي، استنتاج الدال، بطل وجود أي دلالة، وانتهى أي معنى. إذ إنّ ترتيب الأدلة،

(1) سيف الدين الأمدي، منتهى السؤل في علم الأصول، القاهرة 5:1.

(2) الأحكام في أصول الأحكام 37:1.

(3) القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، تونس 18.

(4) كشف اصطلاحات الفنون 285:2.

(5) الأحكام في أصول الأحكام 37:1.

وإخضاعها لنظام من العلاقات في حالتها الإرسالية والتلقائية هو الذي، يجعلها تنضج بما تنطوي عليه من دلالات.

يبين الغزالي مراتب وجود الأشياء والمعاني في الأدلة، طبقاً لحالة الإرسال، بالصورة الآتية «إنّ للشيء وجوداً في الأعيان، وثمر في الأذهان، ثم في الألفاظ، ثم في الكتابة. فالكتابة دالة على اللفظ، واللفظ دال على المعنى في النفس، والذي في النفس مثال الموجود في الأعيان»<sup>(1)</sup>. أما طاش كبري زادة (968 = 1560) فيقدم مراتب وجود الأشياء والمعاني في الأدلة، طبقاً لحالة التلقي، بالصورة الآتية:

«علم أنّ للأشياء وجوداً في أربع مراتب: في الكتابة والعبارة والأذهان والأعيان، وكل سابق منها وسيلة إلى اللاحق، لأنّ الخط دال على الألفاظ، وهذه على ما في الأذهان، وهذا على ما في الأعيان»<sup>(2)</sup>.

إنّ اعتبار التلازم بين الأشياء وصورها والألفاظ الدالة عليها حقيقي، أمر، يعدّ من إشكاليات الفكر العربي، خاصة بعد أن بيّنت كشافات علم اللغة، أنّ العلاقة بينها عرفية، حصلت بفعل الموازنة بين أفراد المجتمع الواحد.

إنّ ابن رضوان، يصدر عن الرؤية ذاتها التي صدر عنها علماء الكلام، في الإعلاء من شأن المعنى الكامن في النفس، ويستظل بالمراتب التي تحكم علاقة الأدلة بالمدلولات، في تسويغه للشفاهية، فيقسّم اللفظ على ثلاثة أضرب: «قريب من العقل» وهو الكلام الحي الكامن في النفس، ويساوي المعنى القديم باصطلاح علم الكلام، وهذا الكلام محكوم بحركة اعتماد في مجاله، فهو عملياً في وضع سكون، ينتظر أن يتحرر من عقاب النفس، بواسطة اللفظ، ليتحول إلى دال مدرك حسيًا «ومتوسط» وهو الكلام اللّفظي، وقد اكتسب وجوده بفعل الصوت، فتحوّل إلى لفظ، وهو عند ابن رضوان «مثال لما صاغه العقل» و«بعيد» وهو «المثبت في الكتب» الذي هو مثال ما خرج باللفظ الذي لا يكتسب وجوداً دون عملية التلفظ.

يمنح تقسيم ابن رضوان للكلام، مكانة مهمة جداً، للمعنى النفسي، وبذا فإنه، يعلي من شأن أدلة وهمية، لم تكتسب شرعية وجودها، كونها حبيسة النفس، لأنها ما تزال قائمة فيها، ولم ينطق بها بعد، لتحويل إلى معاني محددة.

(1) الغزالي، معيار العلم في فن المنطق، بيروت 46-47.

(2) طاش كبري زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة، حيدر آباد 1: 73.

إن كون «الصوت آلة اللفظ»<sup>(1)</sup>، كما يقول الجاحظ، قضية لا خلاف بشأنها، ذلك أن التلغظ، هو الفعالية الصوتية، ابتداء من نطقها، وانتهاء بوصولها، إذن المتلقي؛ وهو فعل يستغرق زمناً قصيراً، وبانتفاء الصوت ينتفي اللفظ نفسه، لأن من خواص الصوت، أنه ذو حضور آني سريع، لا يمكن تثبيته، يمر بين آلي النطق والسمع، فكيف قيض، لابن رضوان، تقسيمه على ضرب ثلاثة؟ لحل هذه الإشكالية يعمد إلى مد زمن التلغظ قدر ما يتصور، ليشمل مرحلتي، تركيب المعنى لفظاً وهي مرحلة سابقة للنطق، وتحليل اللفظ إلى معنى وهي مرحلة انتفاء التلغظ، فضلاً عن مرحلة التلغظ التي تتوسط تينك المرحلتين، أي أن ابن رضوان يضيف إلى التلغظ، مرحلتي ما قبل التلغظ وما بعده، وبهذا، فإنه يفتح أمام اللفظ زمناً نهائياً، إذ يمكن حسب تصوره، إن تشكل ألفاظ المعاني في الذهن في وقت أسبق بكثير من زمن تلفظها الحقيقي. كما أن اللفظ يمكن أن يظل زمناً طويلاً، أسير الحروف إلى ما لا نهاية، وبهذا، فابن رضوان، يتجاهل صفة يتصف بها الكلام، وهي التكوّن والفناء المستمران، ويعبر ابن حزم عن ذلك، قائلاً «ما أنت فيه من الزمان، فلا يثبت ثباتاً تقدر على إقراره، لكنه يثبت ثم ينقضي بلا مهلة، وهكذا أبداً، وكذلك أجزاء القول، إذا تكلمت عن حروفه ونظمه ومعانيه، فإن كل ما تكلمت به من ذلك فقد فني وعدم، وما لم تتكلم به من ذلك، فمعدوم لم يحدث بعد، والذي أنت فيه من كل ذلك لا قدرة لك على إثباته ولا إمساكه ولا إقراره أيضاً أصلاً، بوجه من الوجوه، لكن ينقضي أولاً فأولاً بلا مهلة»<sup>(2)</sup>.

إن اتصاف القول، بصفة التعاقب الذي ينفي نفسه بين لحظة وأخرى، يحيل على نوع من علاقات الحضور والغياب المستمرة التي تلازم النطق مما ينفي أية ديمومة ممكنة للقول الشفاهي، الأمر الذي يقود إلى إبطال فعالية الإرسال والتلقي، فانظام الكلام، تبعاً لذلك، لا أساس له، إلا على سبيل الافتراض، ويشير القاضي عبد الجبار (415 = 1024) إلى ذلك، بقوله: «إن من حق التأليف أن يحصل بين الموجودين، وفي الكلام لا يصح ذلك، لأن ثاني الحروف إذا وجد بطل الأول، فلو أثبتنا البقاء فيهما لأدى ذلك إلى كون الموجود مؤلفاً بالمعدوم، وهذا محال»<sup>(3)</sup>.

إن النظرية الشفاهية، ممثلة بابن رضوان، تعيد هنا ترتيب نظام الأفكار، والمنطق الذي يحكمهما، من أجل أن تسوّغ دعاوها.

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي، بيروت 1: 56.

(2) ابن حزم، التقريب لحد المنطق، تحقيق إحسان عباس، بيروت 50.

(3) القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق أمين الخولي، القاهرة 227.

## الركيزة الخامسة :

يقول ابن رضوان «وصول اللفظ الدال على المعنى إلى العقل، يكون من جهة حلمة غريبة من اللفظ، وهي البصر، لأن الحاسة النسبية للفظ هي السمع، لأنه تصويت، والشيء الواصل من النسب، هو اللفظ أقرب من وصوله من الغريب، وهو الكتابة. فالفهم من المعلم باللفظ أسهل من الفهم من الكتاب بالخط - 169:3».

تحيل هذه الركيزة إلى الركيزة الأولى، وتثير مجدداً قضية تناسب الحواس، وما يلاحظ هنا، أنّ ابن رضوان، يصرّ على عدّ الكتابة من «الغريب» ولا يمكن أن تحل محل «النسب» وهو اللفظ. إنّ تنازع «الغريب» و«النسب»، أعني الكتابة والنطق، تنازع مزمن في تاريخ الثقافة العربية، ولما حقن «النطق» بقوة دينية، صار «نسياً» وظلت الكتابة غريبة.

## الركيزة السادسة :

يقول ابن رضوان: «يوجد في الكتاب أشياء تصد عن العلم قد عدت في تعليم المعلم، وهي التصحيف العارض من اشتباه الحروف مع عدم اللفظ، والغلط بزوغان البصر وقلة الخبرة بالإعراب، أو عدم وجوده مع الخبرة به، أو إنسداد الموجود منه، واصطلاح الكتاب ما لا يقرأ، وقراءة ما لا يكتب، ونحو التعليم ونمط الكلام ومذهب صاحب الكتاب، وسقم النسخ ورداءة النقل، وإدماج القارئ مواضع المقاطع، وخلط مبادئ التعليم، وذكر ألفاظ مصطلح عليها في تلك الصناعة، وألفاظ يونانية لم يخرجها الناقل من اللغة كالثوروس وهذه كلها معوقة عن العلم. وقد استراح المتعلم من تكلفها عند قراءته على المعلم، وإذا كان الأمر على هذا فالقراءة على العلماء أفضل، وأجدى من قراءة الإنسان لنفسه، وهو ما أردنا بيانه - 169:3».

لقد شخص ابن رضوان هنا، بعض أمراض الخط العربي، وبخاصة التصحيف والتحريف، وما يرتبه ذلك من صعوبة في تمييز بعض الحروف، لانعدام التقيط في مرحلة مبكرة من تاريخ الخط العربي.

إنّ موضوع «الاعجام» الذي كان سبباً أساسياً من أسباب استيهام بعض دلالات الكلمات العربية، عولج في مرحلة متقدمة، وعني به أبو الأسود الدؤلي (69 = 688) وكتب فيه الخليل كتاب «النقط والشكل» واهتم فيه ابن قتيبة (276 = 889) وحمزة الأصفهاني (360 = 970) وأبو أحمد الحسن العسكري (382 = 922) والدارقطني (385 = 995) والخطيب البغدادي (463 = 1070) وكلهم سبق ابن رضوان أو عاصره، وعلى الرغم من ذلك فالأمر لا يستدعي عدم الأخذ عن الكتاب ذلك أنّ أخطاء الكتاب، سواء أكانت من سوء

القراءة أم من أوهام النَّسَاح أم السقط والزيادة والتكرار والتقديم والتأخير والتبديل والخطأ الإملائي أو النحوي، إنما لها ما يقابلها في السماع، مثل سوء اللفظ، وقلة الدراية، وسوء العرض، وقلة الفهم، والتحفظ على «مذهب المعلم». الذي يقابله التحفظ على «مذهب صاحب الكتاب».

هذه هي الركائز التي يبني عليها ابن رضوان موقفه، ولرغبته في تأصيل هذا الموقف، يرجع إلى العلم اليوناني، فيقول «وأنا أتيتك ببيان سابع، أظنه مصداقاً عندك، وهو ما قاله المفسرون في الاعتراض عن السالبة البسيطة بالموجبة المعدولة، فإنهم مجمعون على أنَّ هذا الفصل لو لم يسمعه من أرسطوطاليس تلميذاه ثاؤفرسطيس وأوذيموس، لما فهم قط من الكتاب - 169:3».

وبغض النظر، عما تدعو إليه نظرية ابن رضوان في المشافهة من تحجيم لدور الاستقراء والإستنتاج في سبل تحصيل المعرفة، فإنها تستعيد في أركانها الأساسية، جوهر المأثور الشفاهي الذي رسخته الممارسة الفعلية من قبل، والذي عمل الجدول الكلامي على تنظيمه، وبذلك، كانت ترتبط جذرياً، على مستوى التاريخ والمعرفة، بالممارسة التي سبقتها بقرون طويلة.

#### 4 - الخبر ومعضلة الوضع :

يرجع أبو الريحان البيروني (440 = 1048) الآفات التي تتعرض لها الأخبار من جهة المخبرين. إلى «تفاوت الهمم وغلبة الهراش (= التقاتل) والنزاع بين الأمم» ويحدد خمساً من تلك الآفات، تقترن بالإخبارين، «فمن مخبر عن أمر كذب يقصد فيه نفسه، فيعظم به جنسه. . . ومن مخبر عن كذب في طبقة يحبهم لشكر أو يبغضهم لنكر. . . ومن مخبر عنه متقرباً إلى خير بدناءة الطبع أو متقياً لشراً من فشل أو فزع، ومن مخبر عنه طباعاً، كأنه محمول عليه غير متمكن من غيره. . . ومن مخبر عنه جهلاً وهو المقلد للمخبرين»<sup>(1)</sup>.

إنَّ دواعي الشهوة والغضب والمحبة أو الكره، ودناءة الطبع أو اتقاء الشر، هي الأسباب الرئيسة التي يضعها البيروني وراء شيوع الوضع في الأخبار عامة، فما الأسباب الكامنة وراء شيوع الوضع في الحديث النبوي، وكانت سبباً مباشراً لظهور نظرية الإسناد؟

يحدد الإمام علي بن أبي طالب (40 = 660) أسباب الوضع في الحديث في وقت مبكر، فيقول «إنما أتاك الحديث بأربعة رجال ليس لهم خامس»، أولهم «رجل منافق مظهر

(1) في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة 2.



للإيمان، متضع بالإسلام، لا يتأثم ولا يتحرج، يكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله متعمداً وثانيهم «رجل سمع من قول رسول الله شيئاً لم يحفظه على وجهه، فوهم فيه، ولم يتعمد كذباً» وثالثهم رجل «سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً، يأمر به ثم نهى عنه، وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شيء ثم أمر به وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ، ولم يحفظ الناسخ، فلو علم أنه منسوخ لرفضه» ورابعهم رجل «لم يكذب على الله ولا على رسوله...» حفظ ما سمع على وجهه، فجاء به على ما سمعه، لم يزد فيه، ولم ينقص منه، فحفظ الناسخ فعمل به، وحفظ المنسوخ فجنب عنه، وعرف الخاص والعام، فوضع كل شيء موضعه، وعرف المتشابه ومحكمه<sup>(1)</sup>. لا يكشف هذا النص، عن شيوع ظاهرة الوضع المبكرة حسب، بل، يقرر أنّ الأحاديث الصحيحة انحدرت عن رجل صادق واحد، من بين أربعة، كان بعضهم يزيّف الأحاديث عن عمد، وبعضهم عن جهل وعدم دراية. ويضيف النيسابوري (405 = 1014) سبباً آخر يتعلق بالدعوة إلى الدين، فقد كان المهلب بن أبي صفرة «يضع الأحاديث ليثمد بها من أمر المسلمين، ويضعف أمر الخوارج»<sup>(2)</sup>. أما ابن عساکر (572 = 1176) فيفصل في أسباب الوضع، مرجعاً إياه إلى الرواة الذين غفلوا عن الحفظ والتمييز، الذين لم يتعبوا أنفسهم في علم النقل، والرواة الثقات الذين اختلطت عقولهم في أواخر أعمارهم، والغافلين، والمتعمدين الكذب، سواء أكانوا جاهلين به ثم علموا، أم ردّوا عن كذابين وهم يعلمون، أو تعمدوا الكذب وهم الوضاعون من زنادقة وأصحاب مذاهب ومرغبين ومرهبين وأصحاب أغراض خاصة، ومنهم القصاص والشحاذون<sup>(3)</sup>.

لقد تبا الرسول بأن أحاديثه ستعرض للتغيير، فأوصى بعدم جواز تحريفها، أو وضع أي حديث على لسانه، ذلك، إنها من أدلة الأحكام، ويترتب عليها وجوب وجواز وتحليل وتحريم، وقد وردت عنه، أحاديث كثيرة تحذر من الكذب عليه، منها، قوله: «إن كذباً عليّ ليس ككذب على أحد، فمن كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار»، ويرد هذا الحديث في جميع كتب الصحاح والسنن والفقهاء وعلوم الحديث، بمعنى واحد وبألفاظ مختلفة<sup>(4)</sup>.

- 
- (1) علي بن أبي طالب، نهج البلاغة شرح محمد عبده، بيروت 2: 189-190.
  - (2) النيسابوري، معرفة علوم الحديث، تحقيق حسين معظم، حيدر آباد ص: يز.
  - (3) ابن عساکر، التاريخ الكبير، ترتيب عبد القادر أفندي، دمشق 2: 11.
  - (4) مسلم، الصحيح، القاهرة 1: 6، والبخاري، الصحيح بيروت 1: 117، وابن ماجه، السنن، القاهرة 1: 131. وسنن أبي داود 2: 872. والشافعي، الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة 396 والأمام، القاهرة 1: 54. والبيهقي، معرفة السنن والآثار، تحقيق أحمد صقر، القاهرة 1: 45. والطحاوي، مشكل الآثار، حيدر آباد 45 وتقييد العلم 30 وشرف أصحاب الحديث 14.

وكان يقول «من أفرى القرى من قَوْلني ما لم أقل»،<sup>(1)</sup> ونبه على خطورة الأخذ من الوضعين، ورد الأحاديث التي يروونها، بقوله «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»<sup>(2)</sup>، وهدد المحدث كذباً بالنار في قوله «لا تكذبوا عليّ، فإن الكذب يولج النار»<sup>(3)</sup>، وتنبأ على نحو دقيق، بظهور طائفة من الوضعين، وحذر من الافتتان بهم بقوله «يكون في آخر الزمان، دجالون كذابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، لا يضلونكم ولا يفتنونكم»<sup>(4)</sup> وتكشف أحاديث الرسول هذه، عن إحساس بأن الوضع، لا محال في طريقه للظهور، سواء أكانت أسبابه ذاتية تتعلق بالأشخاص، أم موضوعية تتعلق بشؤون الدين ونشره أم بالصراع الاجتماعي أو العرقي أو الديني، وقد صدق حدس الرسول، ذلك أنّ الأحاديث الموضوعية قد غزت المأثورات المنسوبة له، وأصبحت موضوع بحث لكثير من علماء الحديث، وصنفت تحت عنوان: «الموضوعات»<sup>(5)</sup>.

وقد شدد الخلفاء على ضرورة تدقيق الحديث النبوي، فكان الخليفة أبو بكر (13 = 634) «أول من احتاط في قبول الأخبار» وجاراه في ذلك الخليفة عمر بن الخطاب الذي «سنّ للمحدثين التثبت في النقل»، وكان الإمام علي بن أبي طالب يستحلف المحدثين على صدق حديثهم، ويقول «إذا حدثني عنه (= الرسول) محدث، استحلقت، فإن حلف صدقته»<sup>(6)</sup>.

تدل المعطيات الأنفة على أنّ الوضع قد عُرف في حياة الرسول، فالنشدائد التي أظهره، وحذا حذوه الخلفاء الراشدون، إنما يشير إلى بروز تلك الظاهرة على نحو أرحم في زمن مبكر من تاريخ الإسلام، وعليه فلا معنى للرأي الذي يقرن ظهور الوضع بالاحترايب السياسي وانقطاع عهد خلافة الراشدين<sup>(7)</sup>. ولكنّ من المؤكد، أنّ ذلك السبب وغيره، قد أهدت ظاهرة الوضع بأسباب مضافة، مما جعلها ظاهرة شائعة، استنزفت فيما بعد جهوداً طائلاً من لدن علماء الحديث، وكانت سبباً رئيساً في ظهور الإسناد، ذلك أنّ البحث في رواية

(1) الرسالة 395.

(2) سنن ابن ماجه 1: 7.

(3) م. ن. 1: 13.

(4) صحيح مسلم 1: 7، ومعرفة السنن والآثار 1: 407.

(5) صنعت فيه كتب كثيرة للأصمعي وابن الأنباري وأبي عبيد وابن قتيبة والخطابي والزمخشري والقاضي

عياض وابن الجوزي ومجد الدين بن الأثير وغيرهم.

(6) معرفة علوم الحديث ص: يو - يز.

(7) صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، بيروت 226.

الحديث ومتمنه، والتثبت من صحة نسبه إلى الرسول، أفضى إلى تقصي كل ما يتعلق برجال السند من الرواة، والنظر في متون الحديث، وقد استقام هذا البحث، بركنيه حول السند والمتن، إلى ظهور علم أصول الحديث. الذي أولى الإسناد أهمية استثنائية.

وقد قبض لتجليات الإسناد أن تظهر في التواريخ والتراجم والمرويات الإخبارية والمغوية. فألى أركان الإسناد، يتجه اهتمام البحث في الفقرة اللاحقة.

## 5 - أركان نظرية الإسناد:

يعرّف ابن عساکر، علم الحديث، بأنه «علم بقواعد يعرف بها أحوال السند والمتن»<sup>(1)</sup> وإلى ذلك يذهب النووي وابن جماعة<sup>(2)</sup>. وهو يدل على أنّ المعرفة لا بد من أن تتجه إلى «القواعد» أو «القوانين» التي بوساطتها يمكن التثبت من أحوال السند والمتن. إنّ «القواعد» التي تنظم أحوال السند، أفضت إلى ظهور علم رواية الحديث الذي يبحث في اتصال الأحاديث بالرسول، من حيث أحوال روايتها ضبطاً وعدالة، واتصلاً وانقطاعاً، أما «القواعد» التي تعنى بأحوال المتن فقد قادت إلى ظهور علم دراية الحديث، الذي يبحث عن المعاني الكامنة في أحاديث الرسول، وما تنطوي عليه من مرام، وأهداف، وأغراض. وباندغام هذين العلمين، ظهر علم أصول الحديث الذي يعنى بالراوي والمروي، وهذه الثنائية، لن تقتصر على علم الحديث، بل ستطبع النتاج الثقافي العربي بطابعها زمنياً طويلاً.

عُدَّ السند، في ظلّ المشافهة، السبيل الوحيد للتثبت من صحة انتساب الحديث إلى الرسول، لذا فقد اكتسب سمة دينية شأن الحديث، ومثلما عني بالمتن، كونه يصدر عن الرسول، عني بالسند، لأنه حامل له، وقد عبر عن ذلك، عبد الله بن المبارك (181 = 897) المحدث المشهور، الذي يتصدر قوله معظم كتب الحديث والفقه «الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء»<sup>(3)</sup>، وكان ابن سيرين (110 = 728) قد سبقه إلى تقرير الصفة الدينية للسند، بقوله، مشيراً إلى الإسناد، «إنّ هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم»<sup>(4)</sup>، وبمرور الزمن، واطراد هذين القولين في علم الحديث، ظهرت سلسلة أقوال،

(1) التاريخ الكبير 17:2-18.

(2) النووي شرح صحيح مسلم القاهرة 1:47 والمباركفوري، مقدمة تحفة الأحوزي، تحقيق عبد الرحمن عثمان، القاهرة 8:1.

(3) المجموع 1:90 ومعرفة علوم الحديث 8 ومقدمة ابن الصلاح 378 وشرف أصحاب الحديث 41 والهروي، مرآة المفاتيح باكستان 1:266، وابن خير الأثبيلي، الفهرسة، تحقيق زيدان، بيروت 12 والبستي، إفادة النصيح، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، تونس 3.

(4) صحيح مسلم 1:8.

جعلت الإسناد في نهاية المطاف، فرضاً من الفروض الدينية، وعداً أيضاً من خصائص الأمة، التي خصت به، دون غيرها من الأمم، فالسخاوي (902 = 1497) يقرر، أنه «خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة، وستة بالغة من السنن المؤكدة»<sup>(1)</sup>، بل إن الله «أكرم هذه الأمة، وشرّفها وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها، قديمها وحديثها إسناد، إنما هو صحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم»<sup>(2)</sup> واستقام الأمر عند ابن حجر العسقلاني (853 = 1449) بالقول إنه «لكون الإسناد يعلم به الموضوع من غيره، كانت معرفته من فروض الكفاية»<sup>(3)</sup>. وصار التلازم بين السند والمتن، أصلاً لا يمكن نقضه، واحتضى به المحدثون ضد خصومهم وصارت أهمية أي قول تتحدد بإسناده، فإذا خلت منه الأخبار عدت بترأ بلا خطم إذ لولا الإسناد «لدرس منار الإسلام»<sup>(4)</sup> وأصبحت الأسانيد هي الأدلة على متون الحديث، وليس العكس، وقد تبوأ البخاري (256 = 869) موقع الإمامة في الحديث، لأن محدثي بغداد، حاولوا تضليله، فسألوه عن أحاديث قبلوا أسانيداً، فأنكر معرفته بها، وقام برد الأحاديث إلى الأسانيد الصحيحة، فأقروا له، كما يقول ابن خلدون، بالإمامة<sup>(5)</sup>. وتطور الأمر فيما بعد، إلى أنّ أهمية الكتب تنقرر في ضوء أسانيدها فالحطاب (954 = 1547) يقول إنّ «الأسانيد أنساب الكتب»<sup>(6)</sup>. وشأن أي علم، فالإسناد سرعان ما صار جزءاً من تقاليد البنية الثقافية، ولم يعد يُنظر إليه بوصفه وسيلة لتحقيق المعرفة، بل صار مظهراً تفرض العادة، وتقالييد الرواية، وجوده، ويؤكد هذه الحقيقة ابن الصلاح (643 = 1245) الذي تعد مقدمته في علوم الحديث، ذروة ما بلغ هذا العلم من دقة في القواعد والقوانين، وعلى نحو خاص قواعد الإسناد، فيقول: «اعلم أنّ الرواية بالأسانيد المتصلة، ليس المقصود منها في عصرنا (= القرن السابع الهجري)، وكثير من الأعصار قبله إثبات ما يروى . . . وإنما المقصود بها إبقاء سلسلة الإسناد التي خصت بها هذه الأمة زاداها الله كرامة»<sup>(7)</sup>، ويعدّ هذا، أقوى نقد وجه لنظام الإسناد من رجل بزّ السالفين واللاحقين في تنظيم الإسناد، تنظيماً دقيقاً، وهي شهادة على تحول الإسناد عن غرضه الذي وضع من أجله إلى بقاءه بوصفه أحد مظاهر الحياة الثقافية. وصار السند يخنق المتن، بفعل مرور

(1) السخاوي، فتح المغيب، تحقيق عبد الرحمن عثمان، القاهرة 3:403.

(2) م. ن 403:3 وشرف أصحاب الحديث 40.

(3) مرقاة المفاتيح 1:226.

(4) معرفة علوم الحديث 8.

(5) مقدمة ابن خلدون 352.

(6) الخطاب، مواهب الجليل بيروت 1:6 وإفادة الصحيح 1.

(7) ابن الجوزي، ذم الهوى، تحقيق مصطفى عبد الواحد، القاهرة 21.

الزمن، ويطمس أهميته، مما جعل، ابن حيان البستي (354 = 965) أحد أعلام المحدثين في عصره، يتشكى مما آل إليه الأمر، قائلاً «إن الحفاظ الذين رأيناهم، أكثرهم يحفظون الطرق والأسانيد دون المتن»<sup>(1)</sup>.

هذه هي الصورة العامة التي بدأ بها الإسناد، وتطور، واستقر، وهي توضح إنه نفع بقوة دينية، وعدّ جزءاً من الحديث، مما منحه سمة مقدسة، جعلته فيصلاً في الحكم على أهمية المروي، وتوضح كيف استقر أخيراً بوصفه تقليداً من تقاليد طرائق تداول الأخبار. لا يمكن الاستغناء عنه، وإن لم يوظف لهدف معرفي بحث، ولم يقتصر هذا الأمر على علم الحديث، بل تعداه إلى علوم اللغة والتاريخ والأدب، التي تشكلت ملامحها، وتطورت وسط قوالب الإسناد الرواية<sup>(2)</sup> وهو ما أدى، فيما بعد، إلى أن يتميز النتاج الثقافي العربي، باستثناء الجهود الفلسفية والكلامية، بظهور ركني الإسناد والمتن، وتجلي في المأثورات الشفاهية السردية، بثنائية الراوي والمروي وهو موضوع التحليل الغني في الأبواب اللاحقة. ويلزم، والحديث يدور هنا، حول الإسناد، أن نقف على شروط الراوي كونه الركن المهم من أركان علم رواية الحديث.

اشتراط الشافعي (204 هـ = 819 م)، توافر شروط في راوي الحديث، بدونها، تنقض روايته، وهي «أن يكون من حدث ثقة في دينه، معروفاً بالصدق في حديثه، عاقلاً لما يحدث به، عالماً بما يحيل معاني الحديث من اللفظ، وأن يكون ممن يؤدي الحديث بحروفه، كما سمع، لا يحدث به على المعنى»<sup>(3)</sup>. وقد فصل، فيما بعد كل من البيهقي (458 هـ = 1066 م) والغزالي والأمدي وابن الصلاح وعبد العزيز البخاري (730 هـ = 1329 م) في تلك الشروط<sup>(4)</sup>، واستقرت شروط راوي الحديث، وأصبحت معياراً لرواة الأخبار، وستكون معياراً للقاص أيضاً، كما يذهب ابن الجوزي إلى ذلك، بل هو يرتب على القاص، ما لم يرتب على راوي الحديث، كما سنقف عليه لاحقاً في مكانه. ومثلما استأثر السند، بعناية علماء الحديث، استأثر المتن بعنايةهم أيضاً، ذلك، أن

- 
- (1) البستي، كتاب المجروحين من المحدثين، تحقيق عزيز بك القادري، حيدر آباد 178:1.
  - (2) نحل بهذا الصدد إلى محمد ضاري حمادي، الحديث النبوي الشريف وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية، وتام حسان، الأصول: دراسة إستراتيجية للفكر اللغوي عند العرب، شرف الدين علي الراجحي، مصطلح الحديث وأثره على الدرس اللغوي عند العرب، وأمين مدني، التاريخ العربي ومصادره:
  - (3) الرسالة 370.
  - (4) معرفة السنن والآثار 44:1، والمستصفي 155:1 ومتهى السؤل 78:1 ومقدمة ابن الصلاح 359، وكشف الأسرار 712:2.

متن الحديث النبوي إنما يحتل المركز الثاني في الأهمية، بعد القرآن في نظام أدلة الأحكام لكن تلك العناية لم ترق إلى مستوى العناية بالسند، ذلك، أنّ ضبط السند، وصحته، تقود لا محال إلى صحة المتن، كونه صادراً عن الرسول.

اختلفت صور أداء متن الحديث، فمن قائل بوجود نقل المتن لفظاً ومن قائل بجواز نقل المتن معنى، دون اللفظ بشروط. وحول هذه القضية، كثر جدل علماء الحديث والفقه، بيد أنّ جذر الإشكالية، يعود إلى الرسول نفسه، سواء في روايته الحديث القدسي ذي المصدر الإلهي، أم في ورود أحاديث عنه، تؤكد حيناً ضرورة رواية الحديث لفظاً، وحيناً جواز روايته على المعنى.

إنّ رواية الرسول للحديث القدسي الذي يختلف عن القرآن بكونه مروياً غير متلو وإنها تجيء بلفظ النبي، كما يقول التهانوي<sup>(1)</sup> (ق 12 هـ = ق 18 م) قد دشتت فعلياً بالممارسة النبوية، بجواز رواية المعنى، بل إنّ الرسول، نفسه، يقول، «إذا أصاب أحدكم المعنى فليحدث»<sup>(2)</sup>، و«لا بأس في حديث قدمت فيه أو أخرت إذا أثبت معناه»<sup>(3)</sup> ولكنه، من ناحية، ثانية، يشدد في حديث متواتر، على ضرورة أداء الحديث لفظاً، فيقول «نظر الله امرأ سمع مقالتي، فوعاها، فأداها كما سمعها»<sup>(4)</sup>، ويقول أيضاً في المعنى نفسه «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»<sup>(5)</sup>. وهذان الحدیثان، يحظران رواية الحديث بغير لفظه، لما سيتعرض له من تحريف وتأويل. وكان الرسول أيضاً قد دشّن هذه الممارسة بأخذ القرآن لفظاً عن الوحي. وحول هذين الموقفين المتباينين، دار جدل واسع، نقف على جانب منه هنا.

حاول الغزالي، أن يحل هذه الإشكالية، فقال «إنّ الألفاظ منقسمة إلى: ما يتميز بخاصية الإعجاز، وهو ألفاظ القرآن الكريم، ولا بدّ من نقلها، إذ الإعجاز بها يتعلق، وما لا إعجاز فيه، ينقسم إلى: ما يتعلق به تعبد ولا بدّ من قراءته كألفاظ التشهد، فلا بد من روايتها على وجهها. وما لا يكون كذلك، يجوز تغييره، بشرط أن يكون الناقل على ثبت من بقية المعنى بتمامه، إذ لا تعبد في اللفظ، والمعنى هو المبتغى»<sup>(6)</sup>، وبذلك سوّغ منطقياً رواية المعنى، لما لا تعبد فيه.

(1) كشاف اصطلاحات الفنون 2:16.

(2) منتهى السؤل 1:85.

(3) ابن عقيل، كتاب الفنون، تحقيق جورج مقدسي، بيروت 4:634.

(4) المستصفي 1:129 ومنتهى السؤل 1:35 والرسالة 402 وفهرسة ابن خير 6 وسنن أبي داود 2:289.

(5) ابن قتيبة، عيون الأخيار، القاهرة 2:119، وشرف أصحاب الحديث 28.

(6) الغزالي، المنحول من تعليقات الأصول، تحقيق محمد حسين هيتو، دمشق 280.

ولقد كان إبراهيم النخعي (91 = 714) والحسن البصري (110 = 728) وعمرو بن دينار (126 = 743) وابن سيرين وسفيان الثوري، يروون على المعنى، فيُخرون ويقدمون، ويعبرون عن المعنى الواحد بالفاظ مختلفة<sup>(1)</sup>. أما الذين تمسكوا برواية الحديث لفظاً، فقد انطلقوا من قاعدة لغوية، تقول «إن عامة الألفاظ لها نظائر في اللغة، إذا تحققتها وجدت كل لفظة منها مختصة بشيء لا تشاركها صاحبها فيه، فمن جَوَزَ العبارة ببعضها عن البعض، لم يسلم عن الزيغ عن المراد والذهاب عنه»<sup>(2)</sup>. والكلمات وإن اتفقت أصولها، وترادفت على معنى واحد، فإنها، حسب ابن خير الأشبيلي (475 = 1082) «لا توجد كلمة بمعنى كلمة، إلا وبينهما فرق . . .» وإن اتفقتا في أصل المعنى، فبينهما فرق في حال المعنى<sup>(3)</sup>، وكان مسلم (216 = 831) ومالك بن أنس (179 = 795) ممن يروون على اللفظ<sup>(4)</sup>، واشترط ابن حزم على الراوي أن «يتحرى الألفاظ كما سمعها، لا يبدل حرفاً مكان آخر، وإن كان معناها واحداً»<sup>(5)</sup>. وقد صاغ عبد العزيز البخاري هذا الموقف منطقياً، بتأكيده أن النقل لا يتحقق إلا بقدر فهم المعنى، فيدخل الخبر شبهة بسبب اختلاف الفهم، ولهذا فنقل «الحديث بلفظه أولى» لأنه يصعب ضبط دلالات الألفاظ، ولو «جوزنا تبديل لفظة عليه السلام بلفظ آخر، لجاز تبديل لفظ الراوي أيضاً بالطريق الأول، لأن التغيير في لفظ غير الشارع أيسر منه في لفظ الشارع، ولجاز ذلك في الطبقة الثالثة والرابعة، وذلك يفضي إلى سقوط كلام الأول»<sup>(6)</sup>. ولا شك في أن هذين الموقفين قد أثرا، بصورة أو بأخرى، في فعالية تداول الحديث النبوي، فرواية اللفظ، قد تحد من تداول الحديث وانتشاره، ورواية المعنى قد تبيح تغييراً جزئياً في دلالاته ومعانيه، ولا شك في أن هذا التأثير، سلباً أو إيجاباً قد امتد إلى حقول الفكر الأخرى، وإن كانت تختلف عن حقل الحديث النبوي، كونها من غير أدلة الأحكام، بيد أن تقاليد رواية المتون، وشروطها لا بد من أن تكون قد أثرت، بصورة أو بأخرى، في تكون ملامح الفكر العربي الأولى في حقوله المختلفة.

إن «نظرية الإسناد» بركنها، قد أطرّت خارطة الفكر العربي، وإن استفحل بشأن السند، ولقد أشرنا إلى آثار ذلك في مجالات معينة، وعلينا الآن، أن نؤكد، أن الإسناد،

(1) عيون الأخبار 2:136، والطبقات الكبير 5:353 و6:190 و7:115، ومرقاة المفاتيح 1:290 وقوت القلوب 2:61 والمستصفي 1:168.

(2) فهرسة ابن خير 21.

(3) م. ن 21.

(4) شرح صحيح مسلم 1:61، والكفاية في علم الرواية 250.

(5) أبو الحسين البصري، المعتمد في أصول الفقه، تحقيق محمد حميد الله، دمشق 2:205.

(6) كشف الأسمار 3:775.

كان مهيمناً في دوائر، تزعم إنها لا تولي عناية بالنقل، شأن المعتزلة الذين جعلوا العقل معياراً في الحكم على صحة الأشياء وأهميتها، ويتجلى ذلك، من خلال كتاب «المعتمد في أصول الفقه» لابي الحسين البصري المعتزلي (436 = 1044) الذي يعقد فصلاً في «الكلام في الأخبار» يبين فيه أنواعها وحدودها وأحكامها، ويفصل في أحوال الراوي والمراسيل وترجيح الأخبار، ويخلص إثر عرض مفصل وطويل لأهمية السند والمتن إلى «أنَّ العقل إنما لا يوجب العبادة بشرط أن لا ينقل شرع، فإذا روى شرع ناقل، صار كأن العقل ما اقتضى نفي تلك العبادة، لأن شرط اقتضائه لنفيها قد زال»<sup>(1)</sup>. ولما كان علماء الأصول، يعتقدون بأنَّ الدليل، كتاباً وسنة، لم يترك شيئاً، دون أن يشرع أمره مباشرة، أو غير مباشرة بوساطة الإجماع والقياس، يتبين لنا، صعوبة موقف المعتزلة، بشخص أبي الحسين البصري، فما عليهم، في هذا الموضوع، إلا الاعتماد على الإسناد في التثبت من الحديث، وهو ما أفضى إلى أن دعاة العقل بدأوا يصدرون عن رؤية تقليدية، بسبب ما رتبته نظرية الإسناد من تقديم معطيات تصلح بديلاً لمعطيات العقل وفروضه.

إنَّ انتخاب نموذج المعتزلة، إنما يكتسب أهميته، من كونهم يعتمدون على العقل في دعواهم، أما مظاهر هيمنة نظرية الإسناد، على معطيات الثقافة العربية الأخرى، فيصعب حصره هنا، ذلك أنها، بصورة عامة، محكومة بهذه النظرية، ولم يفلح التدوين، الذي لم يهدف إلا إلى تثبيت مشاهد من مشاهد عمل نظرية الإسناد في مرحلة معينة، بوقف مدَّ الشفاهية التي كانت قد ترسخت تصوراً وممارسة، في بنية الثقافة العربية.

---

(1) المعتمد في أصول الفقه 2: 681.



#### 1 - القصص: فضاء الدلالة الدينية :

حدد القرآن الكريم فضاءً دلاليًا خاصاً للفعل «قصّ»، وضمن هذا الفضاء الذي تحول إلى معيار قيمة، نظمت شؤون القص بوصفه فعالية إخبارية عند العرب.

يحيل الفعل «قصّ» في القرآن، على معنى الخبر ووصول النبأ، والإبلاغ عن واقعة إخبارية، قال تعالى ﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها﴾ (الأعراف 101). وقوله ﴿وكلأ نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ (هود 120). وقوله ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾ (الكهف 13). وهذه الدلالة المركزية للفعل «قصّ»، كانت تقيد دائماً بدلالات مجاورة، يفرضها سياق الحال في الخطاب القرآني، فقد ألحق القرآن الدقة والصواب والتقصي بالفعالية الإخبارية للقصص، كقوله تعالى ﴿وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾ (القصص 11). فالقص هنا، إنما هو تقصي الأثر بدقة. والحق بها، الحق الذي هو ضد الباطل، وما يرتبط به من صدق ويقين، في قوله ﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾ (آل عمران 62) وقوله ﴿إن الحكم لله يقص الحق وهو خير الفاصلين﴾ (الأنعام 57). وقبدها أيضاً بالاعتبار والتدبر والموعظة في قوله ﴿فأقصص القصص لمعلم يتفكرون﴾ (الأعراف 176) وقوله ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ (يوسف 111). وأخيراً قيد تلك الفعالية بدلالة الحسن وكل ما هو مضاد للقيح والإساءة، في قوله ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ (يوسف 3).

الخبر المقيّد بالدقة والصواب والحق واليقين والاعتبار والتدبر والحسن، هو القص الذي أسس القرآن وجوده في الأدب العربي وأصبح هذا الفضاء الدلالي هو الذي يحدد القيمة الاعتبارية للقصص، ذلك أن من دلالات «الآية» إنها تحيل على معنى القصة، وما الآيات، كما يؤكد الطبري (310 = 922) إلا قصص متتالية<sup>(1)</sup>. وصار القاصص، في اللغة

(1) الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن بيروت 1:36.

العربية، هو الذي يتبع الأخبار، ويتقصاها بدقة<sup>(1)</sup>، فإذا أضفنا إلى صفة التبع الدقيق، الدلالات التي أضفاها القرآن على القصص، من صواب وثبت وتيسير واعتبار، أصبح القصة أقرب إلى علم الأخبار والتواريخ منه إلى الفن. إذ إن الشروط الواجب توافرها في القاص، ليقص الخبر على النحو الذي وقع أو كما سمعه توجب عليه الدقة في قصه، وإسناد روايته له. ولا بد من أن يكون متن الخبر صحيحاً، حسناً، بلياً، وأن لا يورد القاص متناً يفترق إلى أي من تلك الشروط وإلا عدّ مخلطاً، وخارجاً على الفضاء الدلالي للقص الذي أرسى دعائمه القرآن، وحظر عليه أن يتعد ما لا وجود له، وحدد وظيفته بالوعظ والتذكير، وأصبح القاص هو الإخباري الواعظ المذكر، وما القاص إلا ممارسة وعظيمة تذكيرية، تهدف إلى غاية دينية اعتبارية، ولم يعرف - القص والقاص - إلا كذلك<sup>(2)</sup>.

كان القصص القرآني، يهدف إلى الاعتبار، لا التسلية، ذلك، أن ثمة وجوهاً خمسة، كما يقول الثعلبي (427 = 1035) للحكمة من ورود القصص فيه، وجميعها، تهدف إلى غاية اعتبارية يتقوى بها الرسول على أعدائه، ويثبت رسالته الدينية، منها: أن إيراد أخبار الأمم الماضية، إنما هو «إظهار لنبوته، ودلالة على رسالته، وذلك أن النبي لم يختلف إلى مؤدب، ولا إلى معلم، ولم يفارق وطنه بمدة يمكنه فيها الانقطاع إلى عالم يأخذ عنه علم الأخبار» ومنها، أن الله قص عليه القصص «ليكون أسوة وقدوة بمكارم أخلاق الرسل والأنبياء المتقدمين والأولياء الصالحين فيما أخبر الله تعالى عنهم» ومنها: أن الله إنما قص عليه القصص «تثبيتاً له وإعلاماً بشرفه، وشرف أمته» ومنها، أن الله قص عليه القصص «تأديباً وتهذيباً لأمته» وأخيراً، فإنه قص عليه أخبار الماضيين من الأنبياء والأولياء «إحياء لذكورهم وآثارهم»<sup>(3)</sup>. ولو تأملنا، وجوه إيراد القصص في القرآن، كما عرضها الثعلبي، لتبين أنها تتعلق بالنبوة والنبي الذي توحى إليه أخبار الماضيين، وهو ما يمنح النبي نبواً، أي ظهوراً على غيره، وهي إحدى معجزاته، وإنها تتعلق بالتمهيد لنشر الرسالة الدينية، وتمجيد الأنبياء والرسل السابقين، والعبرة المستخلصة من مواقف الأمم السابقة تجاه أولئك الرسل والأنبياء، ويتضح من ذلك أن قصص القرآن إنما هدفت إلى تقديم الموعظة، وأن الرسول

(1) الجوهري، الصحاح في اللغة، العلوم، بيروت، والزمخشري، أساس البلاغة بيروت، ولسان العرب، مادة «قصص».

(2) ابن الجوزي، كتاب القصاص والمذكرين، تحقيق مارلين سوارتز، بيروت 11، وتبليس إبليس تحقيق محمد منير الدمشقي، القاهرة 23. وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت 9:2، الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلوة، القاهرة 170، التوحي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبد الشالحي 3:1 وقوت القلوب 47:2 وإحياء علوم الدين 2:337.

(3) الثعلبي، عرائس المجالس، القاهرة 5-2.

قد أخبر عن تلك الموعظة بدقة، وبذلك، فالنموذج الأمثل، للقصص والقصص، إنما تجلى، بما قصه الرسول إلى قومه من أخبار الماضين التي أوحي له وحياً.

عُدَّت القصص أحد وجوه إعجاز القرآن<sup>(1)</sup>. وذلك إنها إخبار عن غيوب سألقة، وردت ممن لم يعرف الكتب، ولم يجالس أصحاب التواريخ<sup>(2)</sup>، وإذا كان السكاكي (626 = 1228) يجعل من اشتمال القرآن على الغيوب، أحد أركان إعجازه إلى جانب «صرف المتحذنين عن معارضته، ونظمه العجيب، وسلامته من التناقض»<sup>(3)</sup>، فإن النظام (230 = 845) كان قد قرر من قبل أن «الإعجاز في القرآن من جهة ما فيه من الأخبار عن الغيوب، ولا إعجاز في نظمه»<sup>(4)</sup> لأنَّ مما يتصف به النبي، هي قدرته أن «يكون مخبراً عن المغيبات الكائنة والماضية والتي ستكون»<sup>(5)</sup>، ويفضّل الباقلائي (403 = 1012)، أمر إعجاز القصص في القرآن، فيقول إنَّ الرسول «كان أمياً لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ، وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبأهم وسيرهم، ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور، ومهمات السير، من حيث خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه، ولما كان الأمر مستحيلاً إلا عن تعلم، وهو لم يكن كذلك، كما يقول الباقلائي، وجب أن لا يكون ذلك «إلا بتأييد من جهة الوحي»<sup>(6)</sup>.

لَمْ ينظر للقصص في القرآن، إلا باعتبارها تنطوي على موعظة، وتهدف إلى ضرب المثل، وتقديم النصح، من خلال وقائع الماضي المفارقة في القدم، وإذا ظنَّ أحد كما يذهب ابن الأثير (630 = 1233) إلى أن الله عدَّ تلك القصص من «الحكايات والأسما» فقد «تمسك من أقوال أهل الزيف بمحكم سببها، حيث قالوا: هذه أساطير الأولين أكتبها»<sup>(7)</sup>، وأهل الزيف هؤلاء، الذين ينظرون إلى قصص القرآن بوصفها حكايات سمر، يضعهم السخاوي (902 = 1497) على «شفا جرف هار»<sup>(8)</sup>.

(1) الرماني، الخطابي، الجرجاني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام القاهرة 23، 25، السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، القاهرة 118:2 الباقلائي، التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، تحقيق محمود الخضيرى وعبد الهادي أبو ريبة، القاهرة 29.

(2) التميمي، أصول الدين، استانبول 183.

(3) السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق أكرم عثمان يوسف، بغداد 766.

(4) أصول الدين 184.

(5) الرازي، المباحث المشرقية في علم الإلهيات والطبيعات، طهران 523:2.

(6) الباقلائي، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة 34.

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت 9:1.

(8) السخاوي، الإعلان بالتبويخ لمن ذم التاريخ، تحقيق فرائز روزنتال، بغداد 49.

## 2 - الرسول وأحكام القيمة :

صدر الرسول في موقفه تجاه القصص والقصاص والرؤية التي حدد أطرها القرآن، سواء في وظيفة القصص أم في دور القاص، ومثلما حدد القرآن فضاءً دلاليًا للقصص، عمل الرسول على التمسك بما يجعل القصص هادفًا، ينهض بمهمة اعتبارية، والقاص صادقًا وأمينًا لما يقص، وكانت الخدمة التي يقدمها القاص للدين هي الفصل في موقف الرسول منه، وورد عنه، بهذا الصدد قوله «لا يقص على الناس إلا أميراً أو مأموراً أو مختالاً»<sup>(1)</sup> وفي رواية، أو «مراية»، فالقاص إذن، أحد ثلاثة، إما يكون أميراً من أمراء المسلمين، يعظم ويذكرهم بشؤون دينهم، أو مأموراً، يؤمر بالقص بطلب من الأول، وكلاهما هنا، إنما يوظف قصصه في خدمة الدين، أو أن يتتدب مختال أو مرأءٍ نفسه للقصص، دون أن يؤمر، لأنه يريد الرئاسة لنفسه، والتشبه بالأمير، ولا ينطق إلا عن هوى يستميل به قلوب الناس لمزيد من الرفعة، إن هذا القاص مذموم لأنه، يصدر عن هدف شخصي، لا هدف ديني عام، وستنطبق صفة المرأئي أو المختال، فيما بعد، على من يتكسب بالقص.

تجلى موقف الرسول تجاه، القصص، تبعاً لموقفهم منه ومن رسالته في مثالين واضحين، أولهما مع النضر بن الحارث والثاني مع تميم الداري، وعرض هذين الموقفين، يكشف جلياً معيار الرسول لأهمية القاص في الإسلام.

النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، القاص القرشي الذي يتصل بالرسول نسباً، كان «أشد قریش في تكذيب النبي»<sup>(2)</sup>، عاشر الأجر والكهنة، وحصل من العلوم القديمة على قدر جليل، واطلع على الحكمة، ورحل إلى فارس، وتعلم ضرب العود والغناء، وقدم مكة، فكان يحدث أهلها بأخبار الفرس واليهود والنصارى، إبان المدة التي كان الرسول ينشر الرسالة الإسلامية في مكة. وكان يحضر بعض مجالس الرسول، وهو يعظ قومه، ويحذرهم مما أصاب الأمم الخالية، وحالما يفرغ من وعظه وينصرف، يقوم النضر، ويحدثهم عن أخبار رستم وأسفنديار الفارسيين، ويقول: «ما محمد بأحسن مني حديثاً، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتسبها كما اكتسبها»<sup>(3)</sup>.

(1) سنن أبي داود 290:2 وقوت القلب 1:195 والقصاص والمذكرين 28.

(2) عيون الأبياء 29:2، والكامل في التاريخ 49:2.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، بيروت 7:2 والذهبي، سير أعلام النبلاء، بيروت 229 والمسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت 4:134 والكامل في التاريخ 49:2 وعيون الأنباء 2:19 ونهاية الأرب 16:220.

ولما كان الرسول قد واجه من قبل تهمة كونه شاعراً أو ساحراً أو كاهناً<sup>(1)</sup> ونجح بأن يرد التهمة عنه، لأنه يختلف عن أولئك بأساليب القول التي يتبعها، وهو القرآن الذي يختلف عن الشعر وسجع الكهان وتمتعات السحرة، فإن الأمر مع النضر بن الحارث، كان، أكثر صعوبة، ذلك أن الاختلاف بين أخباره وأخبار النضر، لم يكن مفهوماً آنذاك، وكان يحدث خلطاً عند التلقي بينهما، ومن هنا، كانت مواجهته تتطلب تقديم براهين، تبطل ما يقول به النضر. ورداً عن تهمة أن الرسول يكتب أخبار الأولين، نزلت آيات في حق النضر ترد تهمة عن الرسول، منها قوله تعالى ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ (الفرقان: 5) وقوله ﴿إذ تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ (القلم: 15) والمطففين: 13). وكما يقول ابن عباس، فإن ثمانى آيات نزلت بحقه<sup>(2)</sup>، منها، واحدة أنذرت بالويل، وسوء العاقبة والعذاب الأليم، وهو ما آل إليه مصيره، قال تعالى ﴿ويل لكل أفاك أثيم، يسمع آيات الله إذ تتلى عليه ثم يصير مستكبراً كأن لم يسمعها، فبشره بعذاب أليم﴾ (الجاثية: 7-8).

ما حصل للنضر فيما بعد، يتطابق ونبوءة سورة «الجاثية» في معركة بدر، كان على رأس لواء من قريش<sup>(3)</sup> فوقع أسيراً بيد المسلمين، فأمر الرسول، أن يقتل صبراً، أي أسيراً، ونفذ أمر القتل فيه علي بن أبي طالب<sup>(4)</sup>.

وإذا قيست الأمور بنتائجها في القضايا المتناظرة، شأن التهم التي وجهها المشركون للرسول، مثل الكهانة والسحر وقول الشعر، فإننا نجد أن موقف الرسول، كان أشد قسوة على القاص من غيره، فثمة ثلاث درجات متتالية في موقفه، تجاه من شك بنيوته، ممن يندرج في علمه تحت مصدر «الإلهام» في القول، وهي: العفو عمن سحره<sup>(5)</sup>، وقتل من هجاه شعراً<sup>(6)</sup>، وقتل القاص وهو أسير، ولا شك في أن قتل النضر، وهو أسير حرب، ويمت

(1) حول موقف الرسول من الشعراء نحيل إلى، العملة 23:1، 61 وأبو الفرج الأصفهاني، الأغاني بيروت 92:17 وابن قتيبة، الشعر والشعراء بيروت 84 وتاريخ الرسل والملوك 2:161 والكلاعي، أحكام صنعة الكلام بيروت 36، وحول موقفه من السحرة، نحيل إلى: الطبقات الكبير 2 ق 4:2 ونهاية الأرب 16:393 وكشاف اصطلاحات الفنون 3:156 ومرقاة المفاتيح 1:123، وكشف الظنون 2:980 وحول موقفه من الكهان والكهانة، نحيل إلى الطبقات الكبير: 1 ق 130:1.

(2) نهاية الأرب 16:220.

(3) الطبقات الكبير 2: ق 2:8 وتاريخ الرسل والملوك 2:437.

(4) السيرة النبوية 2:208 والطبقات الكبير 2:2:11 وتاريخ الرسل والملوك 2:459 والأغاني 4:204 والكمال في التاريخ 2:91 والبدء والتاريخ 4:192.

(5) نهاية الأرب 16:193.

(6) العملة 23:1 وإن تورّد المصادر أنه قتل الشاعر أبا عزة صبراً لأنه كذب على الرسول مرتين وحرّض على =

بنسب قرابة إلى الرسول، بيد الإمام علي، له دلالة كبيرة في موقف الرسول، وهو يكشف، أن القاص كان يمارس ضغظاً كبيراً على الرسول، ويعمل على تقويض نبوته، وهذا ما يكشفه في الأقل، موقف الرسول الأخير منه. لأنه، كان «شديداً الأذى للإسلام والمسلمين»<sup>(1)</sup>.

أما الموقف الآخر، فيمثل اهتمام الرسول بالقاص تميم بن أوس بن خارجة الداري، الذي وفد من الشام وأسلم، وصحب الرسول في غزواته وروى عنه ثمانية عشر حديثاً<sup>(2)</sup>. ولم يتوجس الرسول من هذا القاص، بل إنه قربه إليه، وقام برواية قصة رواها، وهي «قصة الجساسة»<sup>(3)</sup>. وفي هذا يقوم الرسول برواية عن تابع، ذلك، أن ما رواه الداري، يوافي، ما كان يحدث به الرسول، عن الدجال، فما رواه القاص هنا، إنه وظف قصته لخدمة الإسلام، وذلك، بأن حذر من ظهور الدجال الذي التقاه في إحدى جزر البحر، والذي أخبره أنه سيظهر في يوم ما، وهو ما يتطابق وما كان يحدث الرسول حول ظهور الدجال في زمن آت.

لم يدخر الرسول وسعاً في تعزيز هذين الموقفين، حيثما رأى ذلك ضرورياً مستنداً إلى موقف القاص من الدين، فقد ربط القصص غير الهادف بالهلاك والضلال وورد قوله، بهذا الشأن «أن بني إسرائيل لما قصوا هلكوا»<sup>(4)</sup>، وبرواية «أن بني إسرائيل لما هلكوا قصوا»<sup>(5)</sup>، ومهما كان وجه التقديم والتأخير في الحديث، فإن كلاً من القص والهلاك يفضي أحدهما إلى الآخر، وورد عنه قوله «القاص ينتظر المقت، والمستمع ينتظر الرحمة»<sup>(6)</sup>، وقد أطر هذا الموقف فيما بعد، وفرض حضوراً قوياً في توجيه رأي علماء الأصول ضد القصص. وفي الوقت نفسه فقد دعم موقف القاص الذي يوظف قصصه لخدمة الدين، فكان يحث على حضور مجالس القص والذكر والوعظ، وورد عنه قوله، بعد سماعه وعظاً

---

= قتاله، العمدة 1:61.

(1) ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم البناء، محمد أحمد عاشور، القاهرة 318:5. والنووي تهذيب الأسماء واللغات 2:126.

(2) الطبقات الكبير 7: ق 129:2 وتهذيب الأسماء واللغات 1:138.

(3) ابن كثير، نهاية البداية في الفن والملاحم، تحقيق محمد فهم أبو عيبة، الرياض 1:94-96. وصحيح مسلم 18:80-81 والتاريخ الكبير 3:345 والبدء والتاريخ 2:192 وأخبار الزمان 122.

(4) الأبيشي، المستطرف من كل فن مستظرف 1:99.

(5) القصص 127.

(6) م. ن. 37.

لعبد الله بن رواحة في مجلس القص ولئن أقعد في مثل هذا المجلس أحب إليّ من أن أعتق أربع رقاب»<sup>(1)</sup>. وورد قوله أيضاً «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها، قيل ما رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر»<sup>(2)</sup>، وكما كان القرآن قد حدد وظيفة القص، كذلك حدد الرسول تلك الوظيفة، وهي التذكير والوعظ والاعتبار وكانت هذه هي الموجّهات المهمّة في نشوء أخبار وعظية اعتبارية، وظفت في خدمة الدين.

### 3 - القص : إشكالية الريادة الزمّية :

اختلف في أول من جعل القص مهنة له في الإسلام، وقد سبق القول أنّ الرسول روى عن تميم الداري، فيكون بذلك قد قصّ في زمن النبي، بيد أنّ هذه الأوليّة التاريخيّة، لا تحل الإشكالية التي نحن بصدد الوقوف عليها هنا، ونعني بها، اتخاذ القص وظيفة دينيّة في المسجد، تتم بإشراف الدولة، وحسب أوقات محددة، وتهدف إلى الوعظ والإرشاد، ويحضرها أحياناً الخلفاء أنفسهم. تتعدد الآراء حول الريادة الزمّية بهذا المعنى، فرأي يذهب إلى أنه لم يقص أحد في زمن الرسول والخلفاء الراشدين إنما ابتدأ القص بعد الفتنّة<sup>(3)</sup>، كما يذهب إلى ذلك ابن عمر (73 = 692). ورأي آخر يؤكّد أنّ القص ابتداء مع خلافة الراشدين، وفي عهد عمر<sup>(4)</sup> (13 = 24 هـ). ورأي آخر يؤكّد أنّ القص ابتداء في زمن الرسول، كما قدمنا في موقفه من الداري والنضر بن الحارث، ولا شك في أن الرأي الأخير يلغي الرأيتين الأوليين، كون القص قد عرف في عهد الرسل، لكن المؤكّد أنّ عصر الراشدين قد عرف القاص المحترف الذي يتخذ القص مهنة، أما ربط القص بالفتنة، فيعود فيما نرى إلى موقف سياسي وأخلاقي لاحق مضاد للقص يصدر عن ذمّه ولا يستبعد أنه في هذا العصر، بدأت أولى بوادر الخروج عن المعايير التي أرسى الرسول دعائمها في الحكم على أهمية القص والقصاص.

تورد المصادر عدداً من القصاص الذين، كانوا يقصون في المساجد، ويمكن ترتيب ريادتهم الزمنية للقص، حسب أرجحية المصادر التي عنيت بهذا الجانب، وهنا، يتصدرهم

(1) م. ن. 16.

(2) قوت القلوب 2: 262.

(3) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بيروت 3: 199 والمستطرف 1: 99 وقوت القلوب 21: 2 ومحاضرة الأوائل

106.

(4) المسكري، الأوائل، تحقيق محمد الوكيل، المدينة المنورة 295 والقصاص 22 والتاريخ الكبير 3: 357

وكشف الظنون 2: 1909.

تميم الداري<sup>(1)</sup>، يليه عبيد بن عمير<sup>(2)</sup>، فالأسود بن سريع<sup>(3)</sup>. كان المسجد، هو مكان القاص، فتميم الداري، كان يقص في مسجد الرسول، بعد أن استأذن عمر الذي كان يحضر مجلسه<sup>(4)</sup>، وكان يحضر مجلس عبيد بن عمير أيضاً ووعيناه تهرقان دموعاً<sup>(5)</sup>، وكان بعض القصاص، يقصون في المسجد الحرام، وكان أبو حازم القاص، يقص فجراً وعصراً في مسجد المدينة، والأسود بن سريع في المسجد الجامع، وسعيد بن جبير في مسجد الكوفة، ويقول ابن عون (151 = 768)، أدركت مسجد البصرة وما فيه حلقة تنسب إلى الفقه إلا حلقة واحدة تنسب إلى مسلم بن يسار، وسائر المسجد قصاص<sup>(6)</sup>. وعين سليمان التجيبي عام 38 هـ قاصاً، وقاضياً في مصر، ثم عزل عن القضاء، وأُفرد بالقصاص وظل يقص سبعاً وثلاثين سنة، تلاه الخولاني وأبو الخير البزني والحضرمي طوال القرن الهجري الأول، وكان مكان القاص هو المسجد العتيق الذي بناه عمرو بن العاص<sup>(7)</sup>. وظل الأمر على هذا النحو إلى القرن الرابع. وخلال القرنين الأول والثاني، كان القص يحظى بعناية كبيرة، كونه ينهض بمهمة الإرشاد والوعظ، وكان الخلفاء يحضرون مجلس القصاص أحياناً، مثل عمر بن الخطاب، وكان علي بن أبي طالب يراقب القصاص، ويتحقق من كفاءتهم الوعظية، ومزّ يوماً بقاص في الكوفة، فقال له «أبها القاص، اتقص ونحن قريبو عهد برسول الله؟ لأسألك فإن أجبتني، وإلا خففتك بهذه الدرّة، ما ثبات الدين وزواله؟ قال: أما ثباته فالورع، وأما زواله فالطمع، قال: أحسنت! قصّ، فمثلك فليقص<sup>(8)</sup>» وكان معاوية (60-41 = 661-679) يستمع إلى الأخبار والسير، ويستقدم القصاص والأخباريين إلى قصره<sup>(9)</sup>، أما عمر بن عبد العزيز (99-101 = 717-719) فكان يحضر مجلس القاص، مع العامة بعد الصلاة<sup>(10)</sup>. وكان القصاص، إلى جانب عملهم، يقومون بوظائف أخرى أحياناً مثل القضاء والحديث والقراءة في المسجد، وكان بعضهم من صحابة الرسول أو من التابعين أو

- 
- (1) الأوائل 295، المواعظ والاعتبار 3:199، تهذيب الأسماء 1:138.
  - (2) القصاص 2، ومحاضرة الأوائل 105 والأوائل 295.
  - (3) ابن قتيبة، المعارف تحقيق ثروت عكاشة القاهرة 557 والأوائل 295 ومحاضرة الأوائل 106.
  - (4) المواعظ والاعتبار 3:199، تهذيب الأسماء 1:138 والقصاص 32، والأوائل 295.
  - (5) القصاص 34.
  - (6) القصاص م. ن 34.
  - (7) السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 144:2، المواعظ والاعتبار 3:199.
  - (8) القصاص 25.
  - (9) مروج الذهب 3:31.
  - (10) القصاص 36.



اتباع التابعين، وتلحق بهم صفات الإجلال والثقة والثبت دائماً. وقد صنعنا مسرداً بأحوال القصاص خلال القرنين الأول والثاني، تبدأ بقصاص عاصروا الرسول، وتنتهي بالقصاص صالح المري (176 = 792). تكشف أنهم كانوا جميعاً من علماء الدين، مما يؤكد أنّ غاية القصة، خلال هذا العصر: الإرشاد والوعظ، وقد مارسه أشخاص معنيون بعلوم الدين من حديث وفقه وتفسير وقراءة.

مسرد بأحوال القصاص وصفاتهم في القرنين الأول والثاني<sup>(1)</sup>

الصفة والحال	اسم القاص
ثقة، حافظ ثبت في الحديث	إبراهيم التيمي، أبو عمر الجوني، وهب بن منبه، الحسن البصري، كعب الأحبار، محمد بن كعب، مطرف بن عبد الله، مسلم بن جندب، محمد بن إسحاق، تميم الداري.
روى عن الرسول أو عن الصحابة	تميم الداري، إبراهيم التيمي، أبو حازم، أبو عمر الجوني، وهب بن منبه، الحسن البصري، معاوية الكندي، مطرف بن عبد الله، سعيد بن جبيرة، عبد الله بن رواحة، الأسود بن سريع، كعب الأحبار.
فقيه، عالم، قاض، مفسر	أبو الخير المزني، أبو إسماعيل الحضرمي، كعب الأحبار، مطرف بن عبد الله، سعيد بن جبيرة، عبيد بن عمير.
ورع، زاهد صحيح الحديث	صالح المري، تميم الداري، سعيد بن جبيرة، يزيد الرقاشي، إبراهيم التيمي.

وابتداءً من القرن الثالث، ظهر التوتر بين القصاص والدولة، إذ حدثت مواجهة بينهم وبين المعتضد<sup>(279-288 = 892-904)</sup> ومنعوا من دخول الجوامع، وأحلّ الضرب من يجضر

(1) اعتمدنا في إعداد هذا المسرد على المصادر الآتية:

الطبقات الكبير 6: 199 و 7: 115، شذرات الذهب 1: 100، 110، 136، 150، 415، ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب لخاتمة الحفاظ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، بيروت 1: 41، 518 و 2: 203، 244، 258. السيوطي، طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمد عبد الرحمن، بيروت 15، 29، 75. المواعظ والاعتبار 3: 200، المعارف 557، تهذيب الأسماء واللغات 2: 149، 161، 216، 265 و 5: 481. تذكرة السامع 10، إحياء علوم الدين 1: 34، البيان والتبيين 1: 163، 192، 194، الذهبي، المعرف في خبر من غير، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت 1: 35، 216، 262، ابن خلكان وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت 2: 372، 4: 276، 495. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، بيروت 1: 215، القصاص 53، 58، 78، الفنون 1: 46، الأوائل 295.

مجالسهم، وفي القرن الرابع، حدث شغب كبير في بغداد، كان للقصاص ضلع فيه، ومنعوا أيضاً من عقد مجالسهم<sup>(1)</sup>. وخلال هذه المدة، أصبح القصاص يوصف بأنه مخطأ أو مضحك. ويقدم السعودي (346 = 957) صوراً ساخرة عنهم<sup>(2)</sup>. لكن صورة القصاص الذين راحوا يتخلون عن مهماتهم التي حددها القرآن والرسول، بدأت تتغير منذ زمن مبكر، وبخاصة لدى المحدثين، الذين كان لهم دور كبير في إقصاء مكانة القصاص، وإخراجهم فيما بعد من المساجد وقد انطلقوا في ذلك، من كون القصاص من أصحاب البدع، والبدعة، إحداهن ما لم يكن له أصل<sup>(3)</sup> وقد نهى الرسول عنها، بقوله «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»<sup>(4)</sup>، ولما كانت القصص، لا تنهض على أصل، إنما هي إبداع ونسج من لا شيء، فهي بذلك، تخرج عن الفضاء الدلالي الذي حدده القرآن والرسول، وتتكون على غير مثال. وقد قاد اتجاه ذم القصاص بوصفهم أصحاب بدع، عبد الله بن عمر، الذي قرن القصص بالفتنة، ورؤي مرة خارجاً من المسجد، فلما سئل عن سبب خروجه قال «ما أخرجني إلا القصاص ولولاه ما خرجت»<sup>(5)</sup>. ويقول عبد الله بن المبارك، سألت سفيان الثوري «من الناس؟ قال: العلماء. قلت فمن الملوك؟ قال: الزهاد. قلت: فمن الغوغاء؟ قال: القصاص»<sup>(6)</sup>. وكان أحمد بن حنبل (241 = 855) يقول: «أكذب الناس القصاص والسؤال»<sup>(7)</sup>. وكان محمد بن كثير الصنعاني، يرى أن الجلوس إليهم من علامات استخفاف العقل وذهاب المروءة، فلما قيل له شددت، قال: «والله لو إني ملكت شيئاً من أمور المسلمين لنكلت بهم» لأنهم عنده «أكذب الخلق على الله وعلى أنبيائه، ومن يجلس إليهم شر منهم»<sup>(8)</sup>.

يقول البيروني إن «قلوب العامة إلى الخرافات أميل»<sup>(9)</sup>، ذلك أن «بواطنهم مشحونة بحب الهوى»<sup>(10)</sup>، ولم تحتل العامة في البنية الثقافية إلا موقعاً هامشياً، لهذا، فالفقهاء

(1) ابن الجوزي، المتظم في تاريخ الملوك والأمم حيدر آباد 86:6 والكمال في التاريخ 87:6 والعبر 72:2 وشذرات الذهب 185:2 و 150:3.

(2) مروج الذهب 163:4.

(3) كشف اصطلاحات الفنون 191:1 وجامع البيان 404:1 والأحكام في أصول الأحكام 43:1.

(4) سنن أبي داود 506:2 وسنن ابن ماجه 16:1.

(5) قوت القلوب 25:2، وإحياء علوم الدين 34:1.

(6) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء في محاورات الشعراء والبلغاء، بيروت 133:1.

(7) المستطرف 99 وقوت القلوب 25:2.

(8) القصاص 101.

(9) في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة 220.

(10) تلييس إبليس 124.

يُحَدِّثُونَ هذه القصة، وينظرون إليها بوصفها مجموعة من الرعايا، ولا يمكن الاطمئنان إليهم<sup>(1)</sup>، وأفضى هذا إلى ظهور ثنائية الخاصة/العامية، إذ انتدبت الأولى نفسها، لقيادة الثانية والإشراف عليها، وتبع ذلك أن ظهرت ثنائية قصص العامة/قصص الخاصة، ويقول الليث بن سعد (185 = 791) إِنَّ الْأَوَّلَ مَكْرُوهٌ لِمَنْ فَعَلَهُ وَلِمَنْ اسْتَمَعَهُ<sup>(2)</sup> لأنه يستهوي العامة، ولا هدف من ورائه، إِلَّا الْكَسْبَ وَالتَّسْلِيَةَ، ويتميز هذا القصص، بأنه لا يحتمل الصدق، الذي اشترطه الإسلام، ولا يعنى بالإسناد الصحيح، وكان بعض قصاص العامة، يروون أخبار أقوام مشوا على الماء، أو خرجوا إلى الصحارى دون ماء أو زاد، فضلاً عن الأخبار المستحيلة التي لا تختلف إلا مخيلة قاص<sup>(3)</sup>. ومن ضمن هذه الأخبار، المرويات الإسرائيلية التي وجدت لها بين العامة وسطاً مناسباً للازدهار. وقد سوغ وجودها في الثقافة العربية، حديث للرسول، قال فيه «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»<sup>(4)</sup> وهو الحديث الذي اختلف الفقهاء والمحدثون حول قصد الرسول فيه<sup>(5)</sup>.

اندرجت المرويات الإسرائيلية في قصص العامة، وكانت تعنى بأخبار الخلق والجنة والطوفان والأنبياء والرسل، ووجدت لها أيضاً صدى كبيراً في تواريخ الطبري والقدسي والمسعودي، واستفحل أمرها عند الثعلبي والكسائي اللذين خصاها بكتب قائمة بذاتها. سميت بقصص الأنبياء، وتطورت من أخبار قصيرة، منسوبة معظمها إلى كعب الأحبار ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام، إلى مرويات مستفيضة حول بدء الخليقة، والنزول من الفردوس، وما جرى للأنبياء من مأس في أقوامهم.

وكلما كانت قصص العامة تتطور من أجل تأسيس وجودها بخروجها عن الإسناد الحقيقي والصدق، كان موقف الخاصة يزداد عنفاً تجاهها، ويعمل على تغييبها، لأنها تهدف إلى إلهاء المؤمن عن دينه، كونه يشغل بها ولا يعتبر بها<sup>(6)</sup>، واستقام على يد ابن الجوزي،

(1) الغزالي، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة تحقيق سليمان دنيا، القاهرة 69 والمستصفي 1:182 أساس التأويل 32، الفنون 2:602 وعن صورتهم في الأدب والتاريخ نحيل إلى الأغاني 13:28 ومرجع الذهب 34:3 والبلد والتاريخ 4:1 والمقري، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1:221.

(2) المواعظ والاعتبار 3:199.

(3) ابن الجوزي، صيد الخاطر القاهرة 16 والثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب القاهرة 228.

(4) سنن أبي داود 2:289 والرسالة 397 ومشكل الآثار 2:289 وجامع بيان العلم 2:40 وتقييد العلم 31 ومرقاة المفاتيح 1:264.

(5) الرسالة 398، مشكل الآثار 1:41، والفنون 2:635، مرقاة المفاتيح 1:265 تقييد العلم 34، الجبري،

الجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، تحقيق محمد مرسي الخولي، بيروت 1:178.

(6) عرائس المجالس 3 والاعلان بالتبويغ لمن ذم التاريخ 37.

موقف شامل تجاه القصص والقصص، استمدته من سلطة السلف، التي هيمنت في القرون السابقة عليه. فإلى الصياغة المتكاملة لموقف السلف من القص تتجه عناينة الفقرة الآتية.

#### 4- الصياغة النظرية لموقف الإسلام من القص:

يعقد ابن الجوزي، الباب الحادي عشر من كتابه عن القصص والمذكرين، لموضوع دالٍ هو «فيما ورد عن السلف من ذم القصص وبيان وجوه ذلك». وسلطة «السلف» في الفكر العربي، تستمد قوتها، مما يصطلح عليه بـ «الأصول»، الأمر الذي جعل «السلف» يصوغون باستمرار رؤية «الخلف» في أمور كثيرة، لأن «علمهم العلم»<sup>(1)</sup>، كما يقول عبد القاهر الجرجاني.

يرى ابن الجوزي، وهو يورد أخباراً في ذم القصص والقصص، أن القصص بدعة، وفيها تشبيه وإلهاء عن الحق، وتشغل عن السنن والأثار المنقولة، ولا تفيد ولا تعلم، ويقدم في كتابه هذا عن القصص وفي أبواب من كتابه «تلبس إبليس» ما يمكن أن يوصف بأنه صياغة متكاملة لموقف الإسلام من القصص والقصص إلى عصره، ويستمد آراءه من «المأثور» الذي ورد في ذم القصص والقصص.

يقيم ابن الجوزي موقف الإسلام من القصص والقصص على ركائز محددة، تشمل: بيان موقف الإسلام من القصص، وأفات القصص، وأسباب ذمهم، والشروط الواجب توافرها في القصص، وكيف يقصون، وماذا يقصون.

تعود أسباب كره السلف القصص، كما يؤكد ابن الجوزي، لأحد ستة أسباب:

1 - «إن القوم كانوا على الاقتداء والاتباع، فكانوا إذا رأوا ما لم يكن على عهد رسول الله ﷺ أنكروه، حتى أن أبا بكر وعمر لما أرادا جمع القرآن، قال زيد (= بن ثابت): أنفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ»<sup>(2)</sup>.

2 - «إن القصص لأخبار المتقدمين تندر صحته، خصوصاً ما ينقل عن بني إسرائيل وفي شرعنا غنية. وقد جاء عمر بن الخطاب بكلمات من التوراة إلى رسول الله، فقال له: إمطها عنك يا عمراً خصوصاً إذ قد علم ما في الإسرائيليات من المحال، كما يذكرون أن داود - عليه السلام - بعث أوربيا حتى قُتل وتزوج امرأته، وأن يوسف حلَّ سراويله عند زليخا.

(1) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن 118.

(2) القصص 10-11 وسنجيل إليه في المتن.

ومثل هذا محال تنتزه الأنبياء عنه، فإذا سمعه الجاهل هانت عنده المعاصي، وقال: ليست معصيتي بعجب - 10.

3 - «إنَّ الشَّاعِلَ بِذَلِكَ، يَشْغَلُ عَنِ الْمَهْمِ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَرَوَايَةِ الْحَدِيثِ وَالتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ - 10».

4 - «إنَّ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْقِصَصِ وَفِي السَّنَةِ مِنَ الْعِظَةِ، مَا يَكْفِي عَنْ غَيْرِهِ، مِمَّا لَا يَتَيَقَنُ صِحَّتَهُ - 10».

5 - «إنَّ أَقْوَامًا مِمَّنْ كَانَ يُدْخَلُ فِي الدِّينِ مَا لَيْسَ مِنْهُ قِصَا، فَادْخَلُوا فِي قِصَصِهِمْ مَا يَفْسِدُ قُلُوبَ الْعَوَامِ - 10».

6 - «إنَّ عُمُومَ الْقِصَاصِ لَا يَتَحَرُونَ الصَّوَابَ، وَلَا يَحْتَرِزُونَ مِنَ الْخَطَا، لِقَلَّةِ عِلْمِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ، فَلِهَذَا كَرِهَ الْقِصَصَ مِنْ كَرِهِهِ - 11».

إذا نظرنا إلى أسباب ذم القصاص، نجدها تنتظم في محاور ثلاثة، فهي:

أولاً: تخرق ثبات الأصول وصحتها، وهي في هذا بدعة، وثانياً: تخرج على محتوى الأصول إذ تشاغل عنها، وثالثاً: تكرر سلوكاً يهدف إلى الإفساد، لأنها لا تحتز من الخطأ. وسببى هذا النسق الثلاثي من محاور الأسباب: الابتداء والأشغال عن القرآن والحديث وإفساد العوام، موجهاً لموقف الإسلام من القصاص.

أما «آفات القصاص» التي يوردها ابن الجوزي، فهي:

1 - إنهم يضعون أحداث الترغيب والترهيب<sup>(1)</sup>. وتورد المصادر أخباراً كثيرة عن ذلك<sup>(2)</sup>

2 - إنهم «تلمحوا ما يزعج النفوس، ويضطرب القلوب، فنوعوا فيه الكلام، فتراهم يشدون الأشعار الرائقة الغزلية في العشق - 124» ويفصل الغزالي القول في هذه الآفة، فيقول «أكثر ما اعتاده الرعاظ (= القصاص) من الأشعار: ما يتعلق بالتواصف في العشق، وجمال المعشوق، وروح الوصال وألم الفراق، والمجلس لا يحوي إلا أجلاف العوام، وبواطنهم مشحونة، وقلوبهم غير منفكة إلى الصور المليحة، فلا تحرك الأشعار في قلوبهم، إلا ما هو مستكن فيها، فتشتعل فيها نيران الشهوات، فيزعقون ويتواجدون<sup>(3)</sup>، وتورد

(1) تلبس إبليس 24 وسنجل إليه في المتن.

(2) محاضرات الأدباء، 1: 134 والنارخ الكبير 2: 13 والقصاص 93 وتلبس إبليس 123 وصيد المخاطر 245.

(3) إحياء علوم الدين 1: 35-36.

المصادر مشاهد كثيرة، لأفعال التواجد والاستغائة التي تحدث في مجالس القصاص<sup>(1)</sup>.

3- منهم من «يظهر من التواجد والتخاشع زيادة على ما في قلبه، وكثرة الجمع، توجب زيادة تعمل، فتسمح النفس بفضل بكاء وخشوع. فمن كان منهم كاذباً، فقد خسر الآخرة، ومن كان صادقاً، لم يسلم صدقه من رياء يخالطه - 124» وغالباً ما يتحول مجلس القاص، في هذه الحال، إلى مجلس بكاء ونواح. وقد كان يبرو قاص يبكي بمواعظه، فإذا طال مجلسه بالبكاء، أخرج من كمّه طنبوراً صغيراً فيحركه، ويقول مع هذا الغم الطويل يحتاج إلى فرح ساعة<sup>(2)</sup>.

4- منهم من «يتحرك الحركات السريعة التي يوقع بها على قراءة الألحان، والألحان التي أخرجوها اليوم متشابهة للغناء، فهي إلى التحريم أقرب منها إلى الكراهية، والقارىء يطرب، والقاص ينشد الغزل، مع تصفيق يديه، وإيقاع برجليه، فتشبه السكر، ويوجب ذلك تحريك الطباع، وتهيج النفوس، وصياح الرجال والنساء، وتمزيق الثياب لما في النفوس من دفائن الهوى، ثم يخرجون، فيقولون كان المجلس طيباً، ويشيرون بالطيبة إلى ما لا يجوز - 124». وعلى الرغم من الاختلاف، فيما روي عن الرسول، حول الغناء، كما يقول ابن القيسراني (507 = 1113)، إلا أنه سمح بغناء التذكير، لإغناء إشارة الهوى في النفس، بيد أن الفقهاء المتأخرين كانوا، يتشددون في ذلك<sup>(3)</sup>.

5- منهم من «يتكلم في دقائق الزهد ومجبة الحق سبحانه، فلبس عليه إبليس - 124».

6- منهم من «يتكلم بالطامات والشطح الخارج عن الشرع، ويستشهد بأشعار العشق، وغرضه أن يكثر في مجلسه الصياح، ولو على كلام فاسد - 124 - 125».

7- منهم من «يزوق عبارة لا معنى تحتها، وأكثر كلامهم اليوم في موسى والجبل وزليخا ويوسف. ولا يكادون يذكرون الفرائض، ولا يهنون عن ذنب - 125». وهؤلاء قصاصو الإسرائيليات.

8- منهم من «يحث على الزهد، وقيام الليل، ولا يبيّن للعامة المقصود، فربما تاب الرجل منهم، وانقطع إلى زاوية، أو خرج إلى جبل، فبقيت عائلته لا شيء لهم - 125»

(1) مفتاح السعادة 7:3 وصيد الخاطر 76 والقصاص 95.

(2) المستطرف 1:100.

(3) ابن القيسراني، كتاب السماع، تحقيق أبو الوفا المرادي، القاهرة 89.

وكثير من هؤلاء، يهيمنون على وجوههم دون جدوى، مما يسبب هلاكهم<sup>(1)</sup>.

9 - منهم من «يتكلم في الرجاء والطمع، من غير أن يمزج ذلك بما يوجب الخوف والحذر، فيزيد الناس جرأة على المعاصي. ثم يقوي ما ذكر بميله إلى الدنيا من المراكب الفارعة والملابس الفاخرة، فيفسد القلوب بقوله وفعله - 125» وكان القاص أحمد الغزالي، لا يقص إلا بعد أن يجتمع له ألف دينار<sup>(2)</sup>.

10 - منهم من «شرب الرئاسة في قلبه مع الزمان، فيحب أن يُعظَّم، وعلامته أنه إذا ظهر واعظ ينوب عنه، أو يعينه على الخلق كره ذلك، ولو صح قصده، لم يكره أن يعينه على خلائق الخلق - 125». وحول هذا الأمر، يقول ابن عساكر «قلما تمر بدرس واعظ (= قاص) إلا وتسمع فيه الكذب على النبي ﷺ وعلى الأئمة والصالحين، ابتغاء الصيت والشهرة فقط<sup>(3)</sup>». وقد حذر الرسول من القاص المراني والمختال الذي يطلب المجد والرئاسة لنفسه، أما المنازعة والتحاسد والتنافس بين القصاص، فقد عبر عنه المثل المأثور «القاص لا يحب القاص»<sup>(4)</sup>.

11 - منهم من «يخلط في مجلسه الرجال والنساء، وترى النساء، يكثرون الصباح وجرأاً على زعمهن، فلا ينكر ذلك عليهن جمعاً للقلوب عليه - 125». وتحشد كثير من المصادر، بوصف مجالس القصاص التي يختلط فيها الرجال والنساء<sup>(5)</sup>.

12 - منهم من «جعلوا القصص معاشاً يستمنحون به الأمراء والظلمة، والأخذ من أصحاب المكوس والتكسب به في البلدان - 125» وهنا، يشخص ابن الجوزي ظاهرة التكسب بالقصص على غرار التكسب بالشعر.

13 - منهم من «يحضر المقابر، فيذكر البلى، وفراق الأحبة، فيبكي النسوة، ولا بحث على الصبر - 125».

تكشف «آفات القصاص»، إنها من السعة بحيث تشمل، الأركان الأساسية لفعالية القص وهي: القاص وما يقص ولمن يقص، وهي الأركان التي انحدرت عنها، مكونات البنية السردية: الراوي والمروي والمروي له. كما تكشف تلك «الآفات»، أن ذم القصص

(1) صيد الخاطر 16.

(2) القصاص 125.

(3) التاريخ الكبير 2:14.

(4) التمثيل والمحاضرة 170.

(5) كتاب الفنون 1:105 وإحياء علوم الدين 1:35 و 337:2 ومفتاح السعادة 3:7.

والقصاص، لا يشمل القصص ذاته فقط، بل الأفعال التي ترافقه، ثمة من جهة أولى، أفعال تصدر عن القاص، مثل: الارتعاد والتباكي، ودق المنبر، ورمي الأتواب، والحركات المثيرة، وارتداء الملابس الفاخرة، زيادة في الهيئة، ومصافحة النساء مما لا يليق بقاص همّه الوظ، وتقابلها أفعال تصدر عن المتلقيين مثل: التواجد والتخيط، وتخريق الثياب، واللمظ على الوجه، والاستغاثة والصياح، وثمة من جهة ثانية، أقوال تصدر عن القاص، لا أساس لها من الصحة، مثل وضع الحديث، وتقويل المحدثين، وخلط الأسانيد، وتحريف أقوال القدماء، ورواية ما يتصف بالكذب، والخوض جهلاً في أدلة الأحكام من قرآن وسنة، وإلقاء أشعار الغزل والعشق والمحبة، وتقابلها، استغاثات الوجد، وصياح النساء، الأمر الذي قد يفضي بالنساء إلى رمي الملابس، ويرافق ذلك أحياناً غناء وطرب، يهيج الطباع، ويضطرب النفوس، وما مقصد القاص من ذلك، إلا أخذ العطاء، وطلب المال، والفحش في كثر الثروة، شأن بعض القصاص في مصر وشيراز وغيرها<sup>(1)</sup>.

بعد أن يفرغ، ابن الجوزي، من إيراد «آفات القصاص»، يتجه اهتمامه إلى الشروط الواجب اتباعها عند القصص. ويعقد لهذا الأمر باباً في كتابه عن القصاص بعنوان «في ذكر من ينبغي أن يقص ويذكر»، يقول فيه:

«لا ينبغي أن يقص على الناس إلا العالم المتقن فنون العلم، لأنه يُسأل عن كل فن . . . ولا بد أن يكون حافظاً لحديث رسول الله، عارفاً بصحيحه وسقيمه، ومسنده ومقطوعه ومعضله، عالماً بالتواريخ، وسير السلف، حافظاً لأخبار الزهاد، فقيهاً في دين الله، عالماً بالعربية واللغة، فصيح اللسان . . .» وينبغي أن يقصد وجه الله تعالى بوعظه . . . وأن يترك فضول العيش، ويلبس متوسط الثياب ليقتدى به . . . وأن يعتزل العوام، ليكون لكلامه وقع وهيبة - 24 - 27.

إنّ الشروط التي يشترط ابن الجوزي، توافرها فيمن يقص، تستعيد في ذاتها، الشروط التي اشترطها الشافعي والبيهقي وابن الصلاح والغزالي والبخاري والأمدي فيمن يحدث، والتي وقتنا عليها من قبل<sup>(2)</sup>، وتضيف إليها شروطاً جديدة، لم يكن الفقهاء والمحدثون قد اشترطوا توافرها في المحدث، كالعلم بالتواريخ وسير السلف واللغة، وواضح هنا، أنّ موقف الإسلام الذي عبر عنه ابن الجوزي، يهدف إلى إيجاد مطابقة بين القاص والمحدث، الأمر الذي يفضي إلى وجود مطابقة بين القصص والحديث، ليس في

(1) القصاص 126-93.

(2) الفقرة الخامسة، الفصل الأول.



القدسيّة، إنما في الوظيفة الاعتبارية والتذكيرية لهما، ويسوغ ابن الجوزي، أمر التشدد في شروط القاص، قائلاً، إنّ «الفقيه إذا تصدّر لم يكذب يُسأل عن الحديث، والمحدث لا يكاد يُسأل عن الفقه، والواعظ (= القاص) يسأل عن كل علم، فينبغي أن يكون كاملاً - 24».

يختم ابن الجوزي كتابه عن القصاص، بباب «في ذكر تعليم القاص كيف يقص» يستحسن الوقوف عليه، فذلك إنما يكشف الدائرة المغلقة التي يتكون في داخلها القص، بوصفه فعالية دينية في نظر الإسلام. فإذا كان القاص عالماً يريد وجه الله بقصصه، غير طامع في أموال الناس، سوى وعظهم إلى طريق الصواب، فلا بد من شروط، يهتدي بها، ليكون قصّه مطابقاً للهدف الذي انتدب نفسه له، وإلا عدّ من الضالين والمرائين الذين يتغنون الوجاهة والرياسة. ويرتب ابن الجوزي شروط القص، كما يفترضها الدين، بحيث تحيط، إحاطة كاملة، بشؤون القص من جميع المناحي، أفعالاً وأقوالاً، سواء كانت صادرة عن القاص أو متلقي القصاص، وإليك الشروط:

- 1 - أن يقتدي القاص بأصحاب النبي، الذين «كانوا إذا أرادوا الموعظة أمروا رجلاً أن يقرأ عليهم سورة، ثم صار المتكلم منهم يضم إلى القراءة أحاديث رسول الله - 136».
- 2 - أن يتخير طريقاً لا بأس بها للوعظ، ولا بأس بارتقاء المنبر «فقد ارتقاه رسول الله ﷺ وأما الفراش عليه فلا بأس عليه، فإنه يوجب نوع احترام في النفوس، ألا ترى إلى أهبة الخطيب، ودقّه المنبر بالسيف، فإنه يزجج النفوس، فتأهب لتلقف الأنداز - 137».
- 3 - فإذا ارتقى القاص المنبر، ينبغي عليه السلام على الحاضرين «ولا بأس أن يقرأ القراءات على وجه التحزين، لا على طريق الألحان - 137».
- 4 - عليه أن يثني على الله ورسوله، وعلى الإمام والرعية، فإذا «كانت له صناعة في إنشاء الخطبة أو كان يحفظ خطبة فيذكرها. ولا بأس، فإنّ الكلام المستحسن له وقع في النفوس - 138».
- 5 - «وليجنب السجع في الدعاء . . .» ووجه هذا أنّ الدعاء ينبغي أن تبعثه حرقة الطلب، فإذا صدقت شغلت عن التصنع، ومتى وقع عن تصنع فلا بأس - 138».
- 6 - «فإذا أنهى الخطبة والدعاء، ذكر تفسير الآيات التي قرئت، ودرج في تفسيرها مما يليق به من ذكر الوجوه والنظائر والأخبار المسندة والحكايات اللائقة بذلك - 138».
- 7 - «لا بأس أن يرفع صوته، ويظهر الجدي في تحذيره ووعظه . . .» فإنّ رسول الله، كان إذا خطب احمرّت عيناه، ورفع صوته، واشتد غضبه، كأنه جيش منذر - 139».

8 - «إذا أنهى الكلام في التفسير، أجب عن مسائل إن سُئل، ثم أمر القارئ فقرأ، وتكلم على الآيات بما يليق بها، ويصلح من المواعظ المرفقة، والزواجر المخوفة، فليدرج في كلامه أخبار الوعد والوعيد، والتشويق إلى الجنة، والتحذير من النار، وليأمر بالمحافظة على الصلاة، وينهي عن التواني عنها، وليحث على الزكاة، ويذكر الوعيد لمن فرط فيها، وكذلك الحج والصوم، وليبالغ في ذكر برِّ الوالدين وصلة الرحم، وفعل المعروف، وينهى عن المنكر وأكل الربا، ويعلمهم عقود المعاملات، وليأمر بامسك اللسان عن فضول الكلام، وغضُّ البصر عن الحرام، وليخوف من الزناء، ويذكر الأحاديث الواردة في جميع ما ذكرنا - 139 - 140».

9 - «وليكن ميله إلى المخوفات أكثر - فإن الطبيب يقاوم المرض بضده - وقد غلب الطمع على القلوب، وقوي الرجاء وضعف الخوف، ولا بأس أن ينشد الأبيات الزهديات، فإن من الشعر حكمة - 140».

10 - «فإن رأى مدعيًا للوجد يصيح، حدّره «...» وإن رأى متواجداً قد مزق ثوبه، أعلمه أنّ هذا من الشيطان، فإن الحق لا يفسد - 141».

11 - «وإذا حضر مجلسه نسوة، ضرب بينهن وبين الرجال حجاباً، وأشار إلى وعظهنّ، وتخوفهن من تضييع حق الزوج، والتفريط في الصلاة، ونهاهن عن التبرج والخروج - 142».

12 - «ولا ينبغي للواعظ (= القاص) أن يتكلم في الأصول، إلا أن يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق، وأخبار الصفات، تمر كما جاءت، ومهما خطر على البال من صفات الحق - عز وجل - أنه كذلك فهو بخلافه، لأنه، «ليس كمثل شيء» - 142».

13 - «ينبغي أن يترحم على الصحابة، ويأمر بالكف عما شجر بينهم، ويورد الأحاديث في فضائلهم، ويلفت السائل إلى ما يلزمه من الفروض والواجبات - 142 - 143».

14 - «فإن وعظ سلطاناً، تطف عليه غاية ما يمكن، ولم يواجه بالخطاب، فإن الملوك، إنما اعتزلوا الناس ليقبى آجاهم. فإذا ووجهوا بالخطاب رأوا ذلك نقصاً - 143».

15 - «لا ينبغي للواعظ (= القاص) أن يطيل المجلس - 143».

16 - «وليقصر على مجلس واحد في الأسبوع، فإن رأى الهمم متشوقة إلى الزيادة، جعلها مجلسين، ولا يزيد على هذا - 144».

ما الذي يمكن استنتاجه، مما أورده ابن الجوزي، سواء ما يتعلق بالموقف العام من

القصص، وآفات القصاص، وأسباب ذمهم، أم بالشروط الواجب اتباعها من قبل القصاص، وكيف يقصون، وماذا يقصون؟

إنّ نظرة إجمالية إلى ذلك، تكشف أنّ ما عبر عنه ابن الجوزي، إن هو إلاّ منهاج كامل، يضبط فعالية القص ويوجهها توجيهاً محدداً، لتحقيق أغراض وعظية وأخلاقية ثابتة، ذلك، أنّ موقف الإسلام، لا يقتصر على وضع شروط ينبغي اتباعها وحسب، بل هو يقترح موضوعات القصص، ويوجب تنفيذها، غرض تهذيب السلوك الاجتماعي، والتعبير عن فروض الدين، فيكون مجلس القصص، بحسب موقف الإسلام، مجلساً دينياً، هدفه التوجيه والوعظ، يقف فيه القصاص، موقف الواعظ الديني، على أدلة الأحكام من قرآن وسنة، وسير الفاضلين والأولياء، ثم ينحو منحى تعليمياً في بيان أصول العبادات، وشؤون المعاملات، إلى غير ذلك مما يندرج في علوم الحديث والفقه.



## الباب الثاني

---

الحكاية الخرافية: تشكل النوع والبنية السردية



## 1 - الخرافة فضاء الدلالة :

يحيل الجذر اللغوي للخرافة على «فساد العقل من الكبير»<sup>(1)</sup> ومن فسد عقله، بسبب ذلك، فهو «خرف»<sup>(2)</sup>. وكانت الدلالة اللغوية هذه، موجهاً للدلالة الاصطلاحية، فالخرافة اصطلاحاً، هي «الحديث المستملح من الكذب»<sup>(3)</sup>. فالكذب، الذي هو نوع من فساد العقول، يعد شرطاً واجباً لوجود الخرافة.

يورد ابن منظور، أنّ الخرافة حديث الليل، وبالتحديد ما «يكذبونه من الأحاديث، وعلى كل ما يستملح، ويتعجب منه»<sup>(4)</sup>. فإذا كان الأمر، كذلك، يصح ما ذهب إليه عبد الفتاح كيليطو، بقوله إن «موطن الخرافة هو الليل»<sup>(5)</sup>. فإذا وضعنا في الاعتبار، أنّ التخييرتين الأساسيتين للحكايات الخرافية، وهما: «ألف ليلة وليلة» و «مائة ليلة وليلة»، كانت خرافاتهما تروى ليلاً، وتحظر نهاراً أمكن كشف آلية رواية الخرافة، التي هي ابنة الليل.

يقول البستاني في دائرة المعارف إن الخرافة «تدل على اعتقاد أمور، منافية للدين الصحيح» ويقرر، أنّ «كل خرافة تستلزم فساد التصورات في الأمور الدينية» ولا يتردد في القول، إن الخرافة تنشأ من «أوهام وتصورات باطلة»<sup>(6)</sup>.

لقد ظلت دلالات الفساد والكذب والوهم، لصيقة بالخرافة، توجه دلالتها، وتحدد أفقها، فقد بين استطلاع ميداني حديث، حول التفكير الخرافي في بنية الثقافة العربية، إلى

(1) اللسان والصحاح، مادة «خرف».

(2) المعجم الوسيط، مادة «خرف».

(3) اللسان والمعجم الوسيط، مادة «خرف».

(4) اللسان، مادة «خرف».

(5) عبد الفتاح كيليطو، الغائب، الدار البيضاء 11.

(6) بطرس البستاني، دائرة المعارف، طهران 355:7.

أنها وتشير إلى الكذب أو الخيال والبعد عن الواقع أو الهذيان». ويحيل التخريف، على كل ما هو «بعيد عن المعقول، ومن نسج الخيال»<sup>(1)</sup>.

يصعب وضع تحديد تاريخي، يبين العصر الذي ظهرت فيه الحكاية الخرافية، لغياب المعطيات والأدلة التي يمكن الإستناد إليها في ذلك، ولكن في حكم المؤكد، أن الحكاية الخرافية، تمت في أصولها إلى مرحلة متقدمة من تاريخ علاقة الإنسان الغامضة بالكون، فهي تنطوي على تصورات ورؤى ووقائع، أسطورية ودينية وتاريخية قديمة، اندغمت في بعضها في عصور زمنية متعددة، واستقامت نوعاً قصصياً، مهماً بين مجموعة الأخبار والحكايات التي كانت صدى للعقائد الدينية القديمة، وهي تكشف عن ترسبات كثيرة، تتعلق بأمر الإنسان في علاقته الغيبية بالظواهر الطبيعية، من جهة، ووعيه البدائي بما يحيط به من أحداث وتطورات من جهة ثانية، وهي في كل ذلك، تحيل على رؤية الإنسان الساكنة لنفسه وعالمه، الأمر الذي جعل أحداث الخرافة، لا تعنى بأثر الزمن في شخصياتها، فهي، بصورة عامة، كائنات خرافية، تتكون وتفتى بمعزل عن آثار الزمن، ولا توليه عناية، إلا في كونه ينظم آلية بنيتها السردية.

إن ميزة القلم التاريخي للمرويات الخرافية، أكسبتها في هذا البحث حق الأسقية في الدرس. وفيما يمكن التأكيد، أن السيرة والمقامة، نوعان قصصيان تكونا في ظل الثقافة العربية الإسلامية، وبأسباب لها علاقة بتلك الثقافة، فإن الخرافة، كانت قد عرفت في زمن أبكر من ذلك بكثير، ولكن الموجهات الخارجية للقص العربي، قد تركت أثرها الكبير في الخرافة، سواء في هيمنة قالب الإسناد على متونها، أم في إكسائها، بغطاء اعتباري، الأمر الذي، جعل الخرافة، حقلاً خصباً، يغذي موقفين متناقضين، أولهما: انتماؤها إلى نسيج الخيال والهذيان والوهم، وثانيهما: خضوعها للإسناد الذي يفترض صحة انتساب القول لقائله، ولتجاوز معضلة التناقض هذه، وجعلها ميزة من ميزات هذا النوع القصصي، أصبحت الخرافة، مثلاً لكل ما هو خيالي ووهمي، ممن ينتسب إلى رواة لا وجود لهم وبذا يصح التأكيد أن نسج الخرافة، ما هو إلا إسناد ما لا حقيقة له إلى ما لا وجود له. وترتب أن أصبح أمر اختلاق سند ومتن متخيلين، خصيصة مميزة للخرافة، الأمر الذي جعلها، في تاريخ الثقافة العربية، تندرج ضمن مرويات الأسمار، فامتزجت، فيها المأثورات الإسرائيلية وأخبار الملوك، فضلاً عما ترسب في الذاكرة الجماعية من أوهام ووقائع قديمة.

كانت الخرافة، تشكل في أوساط العامة فلم يمن بها أحد من الخاصة، إلا بوصفها

(1) نجيب اسكندر إبراهيم ورشدي غانم منصور. التفكير الخرافي، القاهرة 18.



نوعاً من الأسمار اللطيفة، ذلك أنها، كما يقول بلاشير «لم تصنع . . . .» قط للعقول الرصينة<sup>(1)</sup>. وعلى الرغم من ذلك، فإن البوابة التي دخلت منها الخرافة شرعياً، إلى الثقافة العربية، كان قد فتحها الرسول نفسه، لا اقتداء بالأفعال الخرافية، فيما يبدو، إنما بغية التسلية والسمر اللطيف، الذي لا يخلو من هدف اعتباري، لا يتعارض وتعاليم الدين الإسلامي. فإلى ما ينسب إلى الرسول بشأن الخرافة، يتجه اهتمام الفقرة اللاحقة.

## 2 - حديث خرافة :

يورد المفضل بن سلمة بن عاصم (291 = 903) في كتابه «الفاخر» المتن الأدبي، لما يصطلح عليه في المصادر العربية بـ «حديث خرافة». المنسوب إلى الرسول. وتأتى أهمية «حديث خرافة» لا من حيث كونه دشناً لشرعية ظهور الخرافة في الثقافة العربية فحسب، بل من حيث أن بنته، تمثل صورة وافية لبنية الحكاية الخرافية التي سنقف عليها في الفصل الآتي. وهذه الميزة في البناء جعلته يندرج لاحقاً، وبروايات متقاربة في كتاب «ألف ليلة وليلة» متصديراً لنسخة المعروفة، وبأسماء مختلفة مثل «حكاية التاجر مع العفريت» أو «قصة التاجر والجني». وقبل تحقيق نسبة الحديث إلى الرسول، والوقوف على صيغ وروده في المصادر، يلزم أن نورد نصه كاملاً، على الرغم من طوله، هادفين من ذلك إلى تحقيق الأغراض الآتية: إن التثبت من نسبة الحديث إلى الرسول يعني عناية العرب المبكرة بهذا النوع القصصي، وإن توالت الحكايات ضمن إطار الحديث نفسه، إنما يكشف عن البنية الإطارية للحكاية الخرافية، وأخيراً فإن إيرادها كاملاً كما ورد في مصدر مبكر، يجعلنا نظفر بحكاية خرافية فريدة، في عصر أغفل العناية الحقيقية بالخرافة، إلا على اعتبارها من الأسمار، وهو ما أفضى إلى عدم العناية بها، مما خلف صورة معتمة لكيفية تشكّل النوع الخرافي، وهو ما جعلنا - كما سيتضح في الفقرة اللاحقة - نرسم صورة لتشكّل الخرافة، ليس اعتماداً على الخرافات نفسها، إنما على الأخبار المتناثرة حولها في المصادر المختلفة، لهذا، وللحاجة إلى دخول عالم الحكاية الخرافية كما هو، ارتأينا أن نضمن هذه الفقرة، النص الكامل لحديث خرافة:

«ذكر إسماعيل بن أبان الوراق قال: حدثنا زياد بن عبد الله البكائي عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه القاسم بن عبد الرحمن قال: سألت أبي عن حديث خرافة وعن كثرة ذكر الناس له، فقال: إن له حديثاً عجيباً. ثم قال: بلغني أن عائشة قالت

(1) بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، دمشق 3: 409.

للنبي ﷺ : يا نبي الله حدثني بحديث خرافة، فقال النبي ﷺ : رحم الله خرافة. إنه كان رجلاً صالحاً وإنه أخبرني أنه خرج ذات ليلة في بعض حاجاته، فبينما هو يسير إذ لقيه ثلاثة نفر من الجن فأساروه. أو قال: فسبوه. فقال واحد منهم: نغفوا عنه. وقال آخر: نقتله. وقال آخر نستعبده. فبينما هم يتشاورون في أمره إذ ورد عليهم رجل، فقال السلام عليكم. فقالوا: وعليك السلام. قال: ما أنتم؟ قالوا: نفر من الجن أسرنا هذا، فنحن نتشاور في أمره. فقال: إن حدثتكم بحديث عجب أنشركوني فيه؟ قالوا: نعم. قال: إني كنت رجلاً من الله بخير، وكانت لله عليّ نعمة فزالت وركبني دين، فخرجت هارباً. فبينما أنا أسير إذ أصابني عطش شديد، فصرت إلى بئر، فنزلت لأشرب فصاح بي صائح من البئر: مَهْ. فخرجت ولم أشرب. فغلبني العطش فعدتُ. فصاح مَهْ. فخرجت ولم أشرب. ثم عدتُ الثالثة فشربت ولم ألتفت إلى الصوت، فقال قائل من البئر: اللهم إن كان رجلاً فحولهُ امرأة، وإن كانت امرأة فحولها رجلاً. فإذا أنا امرأة. فأتيت مدينة قد سماها، نسي زياد اسمها، فتزوجني رجل فولدت منه ولدين. ثم إن نفسي تآقت إلى الرجوع إلى منزلي وبليدي فمررت بالبئر التي شربت منها فنزلت لأشرب، فصاح بي كما صاح في المرة الأولى، فلم ألتفت إلى الصوت وشربت. فقال: اللهم إن كان رجلاً فحولهُ امرأة، وإن كانت امرأة فحولها رجلاً، فعدت رجلاً كما كنت. فأتيت المدينة التي أنا منها فتزوجت امرأة فولدت لي ولدين، فلي ابنان من ظهري وابنان من بطني. فقالوا سبحان الله إن هذا لعجب! أنت شريكنا فيه. فبينما هم يتشاورون فيه إذ ورد عليهم ثور يطير، فلما جاوزهم، إذا رجل بيده خشبة يُحضير في إثره. فلما رأهم وقف عليهم فقال: ما شأنكم؟ فردوا عليه مثل مردّمهم على الأول، فقال: إن حدثتكم أعجب من هذا أنشركوني فيه؟ قالوا: نعم. قال: كان لي عمٌ وكان موسراً، وكانت له ابنة جميلة. وكنا سبعة أخوة. فخطبها رجل، وكان له عمل يربّيه، فأقلت العجل ونحن عنده، فقال: أيكم رده فابنتي له. فأخذت خشبتي هذه وانزرت ثم أحضرت في إثره وأنا غلام، وقد شبت، فلا أنا الحقه ولا هو ينكل. فقالوا: سبحان الله إن هذا لعجب! أنت شريكنا فيه فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم رجل على فرس له أنثى، وغلام له على فرس رائع فسلم كما سلم صاحبه وسأل كسؤلهما. فردوا عليه كمرّدّمهم على صاحبه، فقال: إن حدثتكم بحديث أعجب من هذا أنشركوني فيه؟ قالوا: نعم. فهات حديثك. قال: كانت لي أُمٌ خبيثة، ثم قال للفرس الأثني التي تحته أكذلك هو؟ فقالت برأسها: نعم. وكنا نتمهما بهذا العبد، وأشار إلى الفرس، الذي تحت غلامه، ثم قال للفرس: أكذلك؟ فقال: برأسه نعم. فوجهت غلامي هذا الراكب على الفرس ذات يوم في بعض حاجاتي فحبسته عندها. فأغفى فرأى في منامه كأنها صاحت صيحة، فإذا هي بجرذ قد خرج، فقالت: امخرُ فمخر، ثم قالت: اكرُرْ فكرر، ثم قالت: ازرعُ فزرع، ثم قالت:

احصّد فحصد. ثم قالت: دسّ فداس. ثم دعت برحى فطحنت بها قرح سويق. فانتبه الغلام فزعاً مروعاً. فقالت له: إئت بهذا مولاك فاسقه إياه. فأتى غلامي فحدثنى بما كان منها، وقصّ عليّ القصة. فاحتلت لهما جميعاً حتى سقيتهما القرح، فإذا هي فرس أنثى، وإذا هو فرس ذكر. أذكلك؟ فقالا برأسيهما: نعم. فقالوا: يا سبحان الله إن هذا أعجب شيء سمعناه! أنت شريكنا فيه. فأجمعوا رأيهما فاعتقوا خرافة. فأتى النبي ﷺ فأخبره بهذا الخبر<sup>(1)</sup>.

أورد الشريشي (619 = 1222) نص الحديث نقلاً عن المفضل بن سلمة، مع تغيير طفيف حصل بسبب عدم دقة النسخ، وقدم له، بعبارة دالة تصفه، قائلاً: «وحديث خرافة مثل سائر على السنة الناس في القديم والحديث، يضرب لكل حديث لا حقيقة له». وختمه بعبارة أكثر دلالة قائلاً: «فما جاء من الأحاديث المحاللة نسب إلى خرافة صاحب الحديث»<sup>(2)</sup>، أما لماذا وصفنا العبارتين المذكورتين، بأنهما «دالة» و «أكثر دلالة»، فلأن الأولى تقرر أنّ هذا الحديث، الذي رواه الرسول، يحيل على كل حديث لا حقيقة له، وهذا يعني أنّ الخرافات لا تحيل على حقائق، إنما هي من بنات المخيلة، فكيف ينسب حديث إذا لم يقع؟؟ ولأن الثانية تصف الخرافات بأنها «أحاديث محاللة»<sup>(3)</sup>، وسواء دلت «محاللة» تبعاً لجذرها الدلالي على أواني الحلب، أم منابع المياه، أم اجتماع القوم، فإنها تحيل على قطب دلالي واحد، وهو أنّ الخرافات تنطوي على خاصية فريدة هي قدرتها على احتواء حكايات متعددة فيها، شأن أواني اللبن، أو منابع المياه أو تجمع القوم من رجال كثيرين، وذلك ما يعبر عن خاصية جوهرية من خواص الحكاية الخرافية، وهي التوالد المستمر للحكايات فيها.

ترفع المصادر، الحديث المذكور إلى الرسول، وتتفق على أنه عن رجل من بني عذرة، باستثناء ما يورده ابن منظور عن ابن الكلبي (204 = 819) من أنه من بني عذرة أو من جهينة<sup>(4)</sup>. اختلفته الجن، فعاد يحدث بأحاديث مما رأى. بيد أنّ المصادر تختلف في المغزى الذي ينطوي الحديث عليه، وليبيان ذلك ينبغي أن نحقق الحديث حسب قدم المصادر التي أوردته، مؤكدين، أنها جميعاً ترفعه إلى الرسول، وإن كان ذلك بسلاسل مختلفة من الرواة.

1 - يقول أحمد بن حنبل (214 = 829) في مسنده:

- (1) ابن عاصم، الفاجر، تحقيق عبد العليم الطحاوي، القاهرة 171.
- (2) الشريشي، شرح مقامات الحريري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1: 188.
- (3) هذا إذا لم يكن ثمة تصحيف في «محاللة».
- (4) اللسان مادة «خرف».

«... عن عائشة، قالت: حدث رسول الله ﷺ نساء ذات ليلة حديثاً، فقالت امرأة منهن يا رسول الله: كان الحديث حديث خرافة، فقال أتدرون ما خرافة؟ إن خرافة كان رجلاً من عذرة، أسرته الجن في الجاهلية، فمكث فيهن دهرًا طويلاً، ثم رده إلى الأنس. فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب، فقال الناس: حديث خرافة»<sup>(1)</sup>.

2 - ويقول ابن قتيبة (276 = 889)

«... عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ، قال لعائشة: إن أصدق الأحاديث حديث «خرافة». وكان رجلاً من «بني عذرة» سبته الجن، فكان يكون معهم، فإذا استرقوا السمع أخبروه، فيخبر به أهل الأرض فيجدونه كما قال»<sup>(2)</sup>.

3 - ويقول المفضل بن سلمة (291 = 903)

«كان رسول الله ﷺ يحدث نساء فقال في حديثه... :  
إن خرافة كان رجلاً من عذرة سبته الجن فكان فيهم زماناً يسمع ويرى، ثم رجع إلى الناس، فكان يحدثهم بما رأى في الجن من المعائب، فكان الناس إذا سمعوا حديثاً عجياً قالوا: كان هذا حديث خرافة»<sup>(3)</sup>.

4 - ويقول الثعالبي (429 = 1037)

«ويروى أن رجلاً تحدث بين يدي رسول الله ﷺ، بحديث فقالت امرأة من نسائه: هذا حديث خرافة، فقال عليه السلام: لا، وخرافة حق، ويروى أن الجن لما استهوته كانت تخبره بما يقع إليهم من أخبار السماء، عند استراقهم السمع، فيخبر به أهل الأرض، فيجدونه كما يقال»<sup>(4)</sup>.

5 - ويقول الميداني (518 = 1124)

«هو رجل من عذرة استهوته الجن - كما تزعم العرب - ثم لما رجع أخبر بما رأى منهم، فكذبوه حتى قالوا لما لا يمكن: حديث خرافة، وعن النبي ﷺ أنه قال: خرافة حق، يعني ما تحدث به عن الجن حق»<sup>(5)</sup>.

6 - ويقول الزمخشري (538 = 1143)

«هو رجل من بني عذرة استهوته الجن، ثم رجع إلى قومه فكان يحدثهم بالباطيل،

(1) ابن حنبل، مسند أحمد 6: 157.

(2) المعارف 610-611.

(3) الفاخر ص 169.

(4) ثمار القلوب 102.

(5) الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة 1: 195.

وكانت العرب إذا سمعت ما لا أصل له . قالت : حديث خرافة<sup>(1)</sup> .

7 - ويقول ابن منظور (711 = 1311)

«ذكر ابن الكلبي في قولهم حديث خرافة . أنّ خرافة من بني عذرة أو من جهينة ، اختطفته الجن ، ثم رجع إلى قومه ، يحدث بأحاديث مما رأى يعجب منها الناس ، فكذبوه ، فجرى على ألسن الناس ، وروي عن النبي ﷺ ، أنه قال : وخرافة حق ، وفي حديث عائشة رضي الله عنها ، قال لها حديثي ، قالت : ما أحدثك حديث خرافة<sup>(2)</sup> .

إنّ الروايات السبع التي أوردناها ، تبين لنا مقدار التغير الذي أحدثته الرواية الشفاهية في حديث خرافة بين القرنين الثاني والسابع ، أو بعبارة أخرى بين أول إشارة إلى الحديث أوردها ابن حنبل - لم نعر على رواية أقدم منها - وبين إشارة ابن منظور . ويتمثل ذلك التغير في حقيقة ما حصل لـ «خرافة» ، فبعض الروايات تؤكد أسر الجن له (ابن حنبل) وبعضها تؤكد سببها له (ابن قتيبة ، والمفضل) والأخرى تذهب إلى أنها استهوت (الثعالبي ، الميداني ، الزمخشري) وغيرها تقرر اختطافه (ابن منظور) ، كما أنّ الروايات تختلف في أمر علاقة «خرافة» بالجن ، إذ تورّد بعض الروايات أنه كان يحدث بحديثها عندما رده إلى قومه (ابن حنبل ، المفضل ، الميداني ، الزمخشري ، ابن منظور) فيما يؤكد غيرها أنه ظلّ مع الجن ، يحدث بأحاديثهم التي يسترقونها من السماء أو غيرها ويخبر بها أهل الأرض (ابن قتيبة ، الثعالبي) ، كما أنّ بعض الروايات تصف ما كان يحدث به ، بأنه نوع من الأعاجيب (ابن حنبل ، المفضل ، ابن منظور) وبعضها تصف حديثه ، بأنه ضرب من الأباطيل (الزمخشري) وفيما تنفرد رواية ابن حنبل بالقول إنّ خرافة مكث مع الجن «دهراً طويلاً» فإنّ رواية المفضل ، التي أوردناها ، لا تشير إلا لأسره لزمن قصير ، هو الزمن الذي استغرقه الرجال الثلاثة في رواية حكاياتهم . ويمكن المضي في كشف التناقضات التي ألحقتها الرواية الشفاهية بالحديث ، بيد أن أهمها على الإطلاق : ذلك الجانب المتعلق بصدق الخبر ومناسبة قوله والهدف منه . ففيما تورّد بعض الروايات أن الرسول يؤكد أن خرافة حق (الثعالبي ، الميداني ، ابن منظور) وأنّ «أصدق الأحاديث حديث خرافة» - (ابن قتيبة) ، تؤكد غيرها أنّ حديثه نوع من الأباطيل والأعاجيب (ابن حنبل ، المفضل ، الزمخشري) ، بل إن عائشة ترفض أن تحدث الرسول بحديث يكون على غرار حديث خرافة قائله ، «ما أحدثك حديث خرافة» - (ابن منظور) ، وتشكك إحدى نسائه بالحديث (الثعالبي) . وإذ يروي الرسول حكاية ذات طابع خرافي ، يوردها المفضل قبل أن يورد «حديث خرافة» ،

(1) الزمخشري المستقصى في أمثال العرب ، تحقيق محمد عبد المعيد خان ، حيدر آباد 1:361.

(2) اللسان ، مادة «خرف» .

تقول له نساؤه، مشككة في صحة الحكاية: «يا رسول الله كأن هذا حديث خرافة»<sup>(١)</sup>. وفي رواية ابن حنبل، يحتمل الأمر وجهين في قول إحدى نساته واصفةً حديث الرسول «كان الحديث حديث خرافة» أولهما: أن حديثك ما هو إلا حديث خرافة، يفتقد الصدق، وثانيهما: أن الحديث الذي كان يجب أن تحدثه هو ما يكون على غرار حديث خرافة. فإذا ضاهينا بين هذه الاختلافات التي تغذي صحة انتساب الرواية بالشكوك في أهم ما تنطوي عليه، وبين رواية المفضل التي تؤكد أن الرسول استمع إلى الحكاية من خرافة نفسه، وقام بروايتها من بعد ذلك إلى عائشة، بتبين لنا مقدار العبث والتزييف الذي تحدثته الرواية الشفاهية الذي يطال كل شيء، بما فيه الأحاديث المنسوبة للرسول. ولكن الأمر الذي تجمع عليه روايات الحديث، أنها تصفه بالعجيب، وأن هذا الحكم يلحق بكل حديث لا أصل له، أي لم يحدث، وإلى ذلك يذهب الثعالبي، مقرأً اطراد ذلك في كلام العرب «حتى قيل للأباطيل والترهات خرافات»<sup>(٢)</sup> نعتاً للحكايات الغريبة التي يتدخل الجن في أحداثها، والتي لا أصل لها.

لقد تضمن المتن الذي أوردناه لحديث خرافة، البذور الأساسية للحكاية الخرافية، ممثلة في علاقات الشخصيات بالجن، وإغفال تأثير الزمن على الشخصيات، والمسح والسحر وتحول المخلوقات إلى غير أجناسها، فضلاً عما صار بعد ذلك، ميزة أساسية من ميزات «الف ليلة وليلة» و«مائة ليلة وليلة» وهي منح الحياة مقابل الاستمتاع بالحكاية، وبعبارة أخرى مقايضة الحياة بالحكاية.

### 3- التآليف الخرافية عند العرب:

لم يورد القرآن أي ذكر للخرافة، ولا لأي من مشتقات الفعل «خرف»، ووردت على لسان الرسول، مرة واحدة في الحديث الذي وقفنا عليه في الفقرة السابقة، وقد يكشف ذلك موقفاً من هذا النمط من الحكايات الذي كان معروفاً في الجاهلية، سواء في خرافة «أساف ونائلة» اللذين مسخا حجرتين لاقترافهما إثمًا في الكعبة<sup>(٣)</sup>، أم في الخرافات الأخرى التي تحشد بها كتب الطبري والأصفهاني والمسعودي وابن كثير وغيرهم، ولكن حديث الرسول المذكور أعطى شرعية دينية لهذا النمط من الحكايات، ابتدأت بالرسول نفسه، كما سنرى هنا، وتطورت فيما بعد.

(1) الفخر 169.

(2) ثمار القلوب 102.

(3) السهلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية. تحقيق عبد الرحمن الوكيل، القاهرة: 1:364 ومروج

الذهب 2:23.

يعقد مسلم في صحيحه، كتاباً كاملاً يدعوه «كتاب الفتن وأشراط الساعة» يورد فيه «قصة الجساسة» التي رواها الرسول عن تميم الداري، كما أشرنا إلى ذلك من قبل<sup>(1)</sup>، فضلاً عن قصص الدجال وابن صياد، وقصة الجساسة، لا تختلف كثيراً عن «حديث خرافة»، فالرسول يرويه عن تميم الداري، الذي حدثه أنه ركب سفينة من ثلاثين رجلاً، فلعب بهم الموج شهراً، فأرغوا في إحدى جزر البحر، فلقيتهم دابة مغطاة بالشعر، تدعى الجساسة، أخبرتهم أن رجلاً في الدبر الكائن في الجزيرة ينتظرهم، ويلتقونه، فإذا هو أعظم إنسان رأيناه قط خلقاً وأشد وثاقاً مجموعةً يده إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد، فيخبرونه خبرهم، فيسألهم عن نخل بيسان وبحيرة طبرية وعين زغر (= بلدة في الشام) وعن الرسول هل خرج من مكة ونزل يثرب، فلما يجيبونه عما سأل، يخبرهم أنه المسيح الذي أوشك أن يؤذّن له في الخروج، وأنه سيطوف الأرض ومدنها، إلا مكة وطيبة (= المدينة)، فهما «محرمتان عليّ كلتاهما كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحداً منهما، استقبلني ملك بيده السيف صلتاً يصدني عنها، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها»<sup>(2)</sup>.

يدلل المثلان اللذان وقفنا عليهما: حديث خرافة وقصة الجساسة، أن الرسول قد منج الحكاية الخرافية، شرعيةً الدخول إلى ميدان الأخبار المعروفة آنذاك، سواء في أمر الجن في حديث خرافة، والذي يوافق ما روي عن إسلام الجن على يده عندما انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة بعد أن يش من ثقيف<sup>(3)</sup>. أم في حكاية تميم الداري التي توافق ما كان يحدث به الرسول عن مسيح الدجال<sup>(4)</sup>. وربما كان هذان الخبران، هما اللذان فتحا بوابة القصص العربي على الجن والنبوءة، وهو ما تحتشد به الحكايات الخرافية والسير الشعبية.

اقتربت الخرافة بالأسمار، والمسامرة، حسب ابن ظفر الصقلي (565 = 1169) «اخبار لمنصت، وانصات لمخير، ومفاوضة فيما يعجب ويليق» ويضيف إن المسامرة صنفان لا ثالث لهما: «أحدهما إخبار بما يوافق خبراً مسموعاً، والثاني: إخبار بما يوافق غرضاً مقترحاً»<sup>(5)</sup>، غير الأحاديث التي لا أصل لها، الأحاديث الخرافية؟! أولئك الأحاديث التي

(1) الفقرة 2 الفصل 2 الباب الأول.

(2) شرح صحيح مسلم 18: 78-83.

(3) السيرة النبوية 2: 49.

(4) صحيح مسلم 18: 81.

(5) ابن ظفر الصقلي، السلوات في مسامرة الخلفاء والسادات، تحرير أحمد بن عبد المجيد، القاهرة

25-24.

يقصها القصاص، والتي يصطلح عليها الجبري (390 = 999) بـ «هذيان أهل الحكاية والمخيلين»<sup>(1)</sup>. فإذا كان الأمر كذلك، فلنر موقع الأسمار في الثقافة العربية، وعلاقتها بالحكاية الخرافية. قال الحسن بن سهل:

«الأداب عشرة: ثلاثة شهر جانية، وثلاثة أنوشروانية، وثلاثة عربية، وواحدة أربت عليهن، فاما الشهرجانية فضرب العود، ولعب الشطرنج، ولعب الصوالج. وأما الأنوشروانية فالطب، والهندسة، والفروسية. وأما العربية فالشعر، والنسب، وأيام العرب. وأما الواحدة التي أربت عليهن، فمقطعات الحديث، والسمر، وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس»<sup>(2)</sup>، ويسمي مقطعات الحديث، أو الأسمار بـ «قراضات الذهب» وكانت مقطعات الحديث هذه تشمل أحياناً أمور الناس، ولا تقتصر على أحداث التسلية، وبخاصة في القرن الأول فقد كان أبو بكر «يسمر عنده (= الرسول) في أمور المسلمين»<sup>(3)</sup>، وكانت أفضل لذات معاوية في آخر عمره «المسامرة وأحاديث من مضى»<sup>(4)</sup>، وفي القرن الثاني استأثرت الخرافة باهتمام الأخباريين والشعراء والكتاب، فقد ترجم عبد الله بن المقفع (140 = 757) «كلىة ودمنة» إلى العربية، وهي أبرز ذخائر الخرافات الهندية، ولم يكن الرشيد (170-193 = 786-808) بمنأى عن حب الاستماع إلى الأحاديث الخرافية، فقد قرب إليه أبا السري، الشاعر الذي ادعى رضاع الجن، ووضع كتاباً في أمرهم، تضمن حكمتهم وأنسابهم وأشعارهم، وزعم أنه بايعهم للأمين ولي المهدي، فصار من خاصة الخليفة وأهله وقال له: «إن كنت رأيت ما ذكرت، لقد رأيت عجباً، وإن كنت ما رأيت، لقد وضعت أدباً» ويضيف ابن خلكان (681 = 1281) قائلاً «وأخباره كلها غريبة عجيبة، والله أعلم بالصواب»<sup>(5)</sup>، وازداد الاهتمام بالأمر في القرنين الثالث والرابع فطبقاً للمؤرخ حمزة الأصفهاني (350 = 961) كان في عصره «من كتب السمر التي تتداولها الأيدي ما يقرب من سبعين كتاباً»<sup>(6)</sup> وفي هذا الوقت أيضاً، يورد شاهد عيان هو الصولي (335 = 946) أن كتباً في عجائب البحار، وأحاديث

- 
- (1) المجلس الصالح 1:167.
  - (2) الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، ضبط زكي مبارك، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة:164.
  - (3) ابن تيمية، رفع الملام عن الأئمة الاعلام، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبوع على هامش الأنصاف للمرداوي، القاهرة:301.
  - (4) الجهمي، أخبار عبيد بن شربة الجهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها، ملحق بكتاب التيجان لوهب بن منبه، حيدر آباد 312.
  - (5) وفيات الأعيان 5:221.
  - (6) متر، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريذة، بيروت:469.



السندباد والسنور والفأر كانت معروفة في عهد القاهر (320-322 = 932-934) الراضي (322-329 = 934-940)<sup>(1)</sup> وهو العصر نفسه الذي أثير حوله نقاش واسع حول دخول حكايات ألف ليلة وليلة في الموروث العربي.

يختم ابن التديم الفن الأول المخصص لـ «أخبار المسامير والمخرفين وأسماء الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات» من المقالة الثامنة، من كتاب الفهرست بالإشارة المقتضبة إلى التأليف الخرافية العربية، قائلاً:

«كانت الأسمار والخرافات مرغوباً فيها مشتهة في أيام خلفاء بني العباس، وسيما في أيام المقتدر. فصنف الوراقون، وكذبوا. فكان ممن يفعل ذلك رجل يعرف بابن دلان واسمه أحمد بن محمد بن دلان، وآخر يعرف بابن العطار، وجماعة. وقد ذكرنا فيما تقدم من كان يعمل الخرافات والأسمار على السنة الحيوان وغيره، وهم سهل بن هارون وعلي بن داوود والعنابي وأحمد بن أبي طاهر»<sup>(2)</sup>.

يثير هذا النص أسئلة كثيرة، تكاد تلم بإشكالية التأليف الخرافي عند العرب، الذي ما زال الغموض يحيط به من كل جانب. فهو يقرر أن الأسمار والخرافات كان مرغوباً فيها في العصر العباسي، وقد ثبت لنا أن ابن المقفع قام بترجمة «كليلة ودمنة» في مطلع هذا العصر، وكان الرشيد، لا يمانع من وجود مخرف كأي السري في قصره، وأن المأمون يعهد لسهل بن هارون دار الحكمة وهو يعرف أن له كتاباً في الخرافات بعنوان «ثملة وعفرة»<sup>(3)</sup> على غرار كتاب «كليلة ودمنة»، وأن زبيدة تتخذ علي بن داود كاتباً لها، وهي تعلم أن له كتباً في الخرافات، وأن تصانيف الخرافات كانت متداولة في عهد الراضي بالله، كما يؤكد الصولي، فضلاً عن ابن دلان وابن العطار المذكورين في النص. ومن سبقهم طوال القرن الثاني والثالث كالعنابي وأحمد بن طاهر، وبهذا، فإنه يحل إشكالية تاريخية. ومن جهة أخرى، فإن النص يعزو تصنيف الخرافات والأسمار إلى الوراقين، وهذا يدل على درجة قبولها، وانتشار تلقياها، بدليل عناية الوراقين بها، وهم من غير المؤلفين المعروفين، ويلحق بهؤلاء الوراقين صفة الكذب والافتعال، باعتبار أن تلك الخرافات والأسمار لا تنطوي على شيء من الحقيقة، وهذا موقف سبق أن قال به ابن التديم في وصفه لألف ليلة وليلة، بأنه كتاب غث بارد. وأخيراً، فإن النص يقرن الخرافات والأسمار بالحيوان، مما يدل على أن

(1) الصولي، كتاب الأوراق: أخبار الراضي بالله والمتقي لله، تحقيق هيبورث دن، بيروت 6.

(2) الفهرست 367.

(3) ربما يكون الكتاب نفسه الذي حققه عبد القادر المهيري لسهل بن هارون ونشره في مجلة IBLA عام 1974 بعنوان «النمر والثعلب».

خرافة الحيوان كانت معروفة على نطاق واسع .

لكن ابن النديم، في صدر الفقرة التي اقتطعنا منها النص المذكور، يورد كتباً كثيرة في الخرافات الخاصة بـ «أسماء عشاق الإنس للجن وعشاق الجن للإنس» وبذلك، فهو يرسم لنا صورة دقيقة لجانب من الحكاية الخرافية ممثلة بوجود عناصر شبه ثابتة في الخرافة وهي الحيوان والجن. فإذا ربطنا ذلك، بالمتن الخرافي الذي أوردناه كاملاً لـ «حديث خرافة»، وروايته تنتمي إلى القرن الثالث الهجري وأخذنا في الاعتبار الأثر الذي أحدثته ترجمة «كليلة ودمنة» إلى العربية قبل حوالي قرنين من زمن ابن النديم، تكشفت لنا حقيقة وهي أنّ التآليف الخرافي العربي كان موجوداً منذ فترة مبكرة، فإذا دعمنا كل ذلك، بما قام بها الجهشيارى الذي، ابتداءً «بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم، كل جزء قائم بذاته لا يعلو بغيره، وأحضر المسامرين، فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون، واختار من الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات ما حلا بنفسه، وكان فاضلاً فاجتمع له من ذلك أربعمئة ليلة وثمانون ليلة، كل ليلة سمر تام، يحتوي على خمسين ورقة وأقل وأكثر، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تميم ألف سمر»<sup>(1)</sup>، تبين لنا أنّ تداول الخرافة، وبخاصة في القرنين الثالث والرابع كان شائعاً، لكنها، كانت تشكل في منأى عن الثقافة المتعالية - الثقافة الدينية - التي غيبتها، وسكنت عنها، فلم تبق سوى أخبار متناثرة تشير إلى وجودها. أما الحكايات الخرافية نفسها، فقد طمست ولا يعرف أمرها، إلا تلك التي اندرجت في ذخائر الخرافات فيما بعد، مثل ألف ليلة ومائة ليلة وغيرها. ومنها، بغير شك خرافات الجهشيارى وسهل بن هارون وعلي بن داود والعتابي وأحمد بن أبي طاهر وابن دلان وابن العطار، فضلاً عن السبعين كتاباً في الأسمار التي كانت تتداولها الأيدي قبل منتصف القرن الرابع. يضاف إليها كتب الخرافات الكثيرة التي أوردتها ابن النديم في الفن الثالث من المقالة الثامنة تحت عنوان «أسماء خرافات تعرّف باللقب، لا تعرف من أمرها غير هذا»<sup>(2)</sup>.

#### 4 - ألف ليلة وليلة : معضلة الانتماء والتأليف :

لم ينف أبو الريحان البيروني (440 = 1048)، وهو الضليح بالمرورث الهندي، بدلالة كتابه «في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة» أمر ترجمة عبد الله بن المقفع لكتاب «كليلة ودمنة» لكنه شكك بدقة الترجمة، قال: إن الكتاب:

(1) الفهرست 363-364.

(2) م. ن. 375.

«تردد بين الفارسية والهندية ثم العربية والفارسية على السنة قوم لا يؤمن تغييرهم إياه . كعبد الله بن المقفع في زيادته باب «بروزيه» فيه قاصداً تشكيكاً ضعيفي العقائد في الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب «المنائية» وإذا كان متهماً فيما زاد لم يخل عن مثله فيما نقل»<sup>(1)</sup> وسواء كان التشكيك في العقائد هو هدف ابن المقفع، أم أنّ البيروني انطلق في رؤيته للأمر من أنّ الخرافة تستلزم فساد التصورات في الأمور الدينية، فإن ترجمة «كليلة ودمنة» قد خصّبت الحكاية الخرافية العربية آنذاك، وفتحت لها الأفق على الكنز الهندي الطافح بالخرافات .

لقد ثبت الآن، أنّ ابن المقفع، قد ترجم الأصل الهندي، وعبر الفارسية، لمجموعة الخرافات المسماة «بنجاتنرا» (= الأسفار الخمسة) التي وضعت بين 100-500 م، وإن لم يلتزم تماماً بالدفقة في الترجمة، سواء في تغيير العنوان أم بعض الأعلام أو الحكايات، فضلاً عن تأثيرات البنية الثقافية في القرن الثاني التي استدعت بعض الحذر في الترجمة، ناهيك عن محاذير الترجمة عبر لغة وسيطة<sup>(2)</sup> وما يدلل على الأثر الذي أحدثه الكتاب، شيوعه، حتى أصبح كتاباً شعبياً واسع الانتشار منذ عهد مبكر<sup>(3)</sup> كما نظمه شعراً: أبان بن عبد الحميد اللاحقي، وابن الهبارية، والصاغاني، والنقاش. وعارضه سهل بن هارون في كتاب على غراره، ولا يستبعد أن خرافات الحيوان العربية قد حاكت بعض خرافات هذا الكتاب، وحاكى مؤلفوها، ما أراد يبدأ إيصاله إلى ديشليم الملك، وهو يلجأ للتلميح على لسان الحيوان، ما لا يمكن التصريح به على لسان الإنسان، في شؤون معاملة الرعية وحكمها. كما يلمس ذلك لدى أخوان الصفا وابن عرب شاه فيما بعد<sup>(4)</sup>.

لقد أشاع كتاب «كليلة ودمنة» مناخاً خرافياً، شجع على الاشتغال بهذا النوع من القصص، وذلك قبل القرن الثالث، الذي فيه حسب آدم متر بدأت قصص السم الأجنبيّة تحتلّ مكاناً كبيراً في الأدب العربي<sup>(5)</sup>.

يفضي كل هذا إلى الوقوف على معضلة تأليف أبرز ذخائر الخرافات العربية وهي

- 
- (1) في تحقيق ما للهند من مقولة 123.
  - (2) تراجع دراسة عبد الحميد بونس و«بنجاتنرا وكليلة ودمنة»: دراسة مقارنة، وهي ملحقة بكتاب «بنجاتنرا».
  - (3) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي ترجمة عبد الحليم النجار، القاهرة 3:94 أولري، الفكر العربي ومركزه في التاريخ ترجمة إسماعيل البيطار بيروت 96.
  - (4) اتبع أخوان الصفا في «تداعي الحيوان على الإنسان» وابن عرب شاه في «فاكهة الخلفاء ومفاهمة الظرفاء» أسلوب التورية في التعبير عن مواقفهم.
  - (5) الحضارة الإسلامية 1:466-467.

«الف ليلة وليلة»، وذلك لما أثير حول أصولها ومصادرها وتأليفها من خلاف كبير بين القدماء والمحدثين.

إن أول إشارة موثقة حول هذا الكتاب، وردت عن المسعودي في النصف الأول من القرن الرابع، فقد أورد تحت عنوان «كتاب ألف ليلة وليلة» ما نصه:

«إن هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة، نظمها من تقرب للملوك بروايتها، وصال على أهل عصره بحفظها والمذاكرة بها، وإن سبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية، وسبيل تأليفها مما ذكرنا مثل كتاب هزار أفسانه، وتفسير ذلك من الفارسية إلى العربية ألف خرافة، والخرافة بالفارسية يقال لها أفسانه. والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة. وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتهما، وهما شيرزاد ودينزاد ومثل كتاب فرزة وسيماس وما فيه من أخبار ملوك الهند والوزراء، ومثل كتاب السندباد، وغيرها من الكتب في هذا المعنى»<sup>(1)</sup> نشير هنا إلى أن المسعودي، يقر أن حكايات الكتاب «أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة»، ويشي كلامه، بأن تأليف هذه الحكايات، قد تمّ على غرار الكتب المنقولة، وعلى نحو أدقّ فإن سبيل تأليفها هو سبيل تأليف كتاب هزار أفسانه، إن المضاهاة التي يوردها المسعودي بين ألف ليلة وليلة و هزار أفسانه، تلمح إلى وجود كتابين أحدهما الفارسي والآخر المؤلف على غراره، ويردف ذلك بتأكيد أنّ الأول يتألف من ألف خرافة وأنّ الثاني يروى في ألف ليلة، دون أن يكون متضمناً لألف خرافة كما هو الأمر في هزار أفسانه، ويبلغ الغموض في نص المسعودي أقصاه في عبارته «والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة» فهل المقصود هنا كتاب هزار أفسانه أم الكتاب المؤلف على غراره؟ ثم يورد شرحاً موجزاً لقصة الإطار المعروفة في كتاب ألف ليلة وليلة. فإذا كان المقصود هو الأول، يكون الكتاب الثاني ترجمة له، وإذا كان المقصود الثاني، يصبح لدينا كتابان متشابهان في كون متنهاً حكايات موضوعة من خرافات مصنوعة، يعزز ذلك الاختلاف الكبير بين «الخرافة» التي هي متن خرافي قد يروى بلبال عدة، و«الليلة» التي هي وقت لرواية سمر خرافي أو أكثر أو أقل، فإذا وضعنا أمامنا أباً من نسخ المتون المعروفة الآن لألف ليلة وليلة، لا نجد فيه ألفاً من الخرافات، بل لا نجد فيه إلا عدداً ضئيلاً يصل إلى، سواء في الخرافات الرئيسة أم فيما تتضمنه من خرافات ثانوية إلى ربع العدد الذي يفترض أنّ هزار أفسانه قد تضمنه من خرافات وثمة إلى جانب هذا، قرينة أخرى تلمح إلى اختلاف الكتابين، فإذا حذفنا الشرح الذي يورده المسعودي لمحتوى هزار

---

(1) مروج الذهب 2: 251.

أفسانة وفيما يورده لمحتوى فرزة وسيماس، وأبقينا على النص دون تلك الشروح، يستقيم لنا النص الآتي:

«وإن هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة، نظمها من تقرب للملوك بروايتها، وصال على أهل عصره بحفظها والمذاكرة بها، وأن سبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية، وسبيل تأليفها مما ذكرنا مثل كتاب هزار أفسانة، ومثل كتاب فرزة وسيماس، ومثل كتاب السندياد، وغيرها من الكتب في هذا المعنى» إن قراءة النص وتحليله في ضوء هذا الترتيب، تبين لنا أن ثمة كتاباً في الخرافات، عمل على غرار تلك الكتب، فإذا عرفنا أن ابن النديم، يورد أنها كتب فارسية ورومية وهندية على التوالي ويثبتها في قوائمها المخصصة لكتب الفرس والهند والروم في الخرافات، فإن منطق التحليل يفضي إلى القول إن المسعودي كان يضاهاى كتاباً خرافياً، من أجل توضيح محتواه، بكتب خرافية لأقوام أخرى، نقلت إلى العربية، فلا يعقل أن ينتخب كتاباً أجنبياً، بغية توضيح محتواه، ليضاهاه بكتب غير عربية. إن نص المسعودي يرجح أنه كان يضاهاى كتاباً عربياً في الخرافات، هادفاً إلى التعريف به، بكتب نقلت إلى العربية، وأصبحت معروفة في القرنين الثالث والرابع. نتوقف عن استنطاق نص المسعودي، ونستأنف النظر هنا بالوقوف على نص ابن النديم، الوراق المفهرس. الذي يقول:

«أول من صنف الخرافات، وجعل لها كتباً وأودعها الخزائن، وجعل بعض ذلك على السنة الحيوان، الفرس الأول. ثم أغرق في ذلك ملوك الإشغانية، وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس، ثم زاد ذلك واتسع في أيام ملوك الساسانية ونقلته العرب إلى اللغة العربية، وتناوله الفضلاء والبلغاء، فهذبوه ونمقوه، وصفوا في معناه ما يشبهه فأول كتاب عمل في هذا المعنى، كتاب هزار أفسان، ومعناه ألف خرافة» ثم يورد محتوى الكتاب، وهو يطابق المتن المعروف الآن لألف ليلة وليلة في إظهاره العام، ثم يختم نصه بالقول «وإن أول من سمر بالليل الاسكندر، وكان له قوم يضحكونه ويخرفونه. لا يريد بذلك اللذة، وإنما كان يريد الحفظ والحرس، واستعمل لذلك بعده الملوك كتاب هزار أفسان، يحتوي على ألف ليلة وعلى دون المائتي سمر، لأن السمر ربما حُدث به في عدة ليال، ولقد رأيت بتمامه دفعات، وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث»<sup>(1)</sup>.

يثير هذا النص، شأن النص السابق لابن النديم حول التأليف الخرافي ونص المسعودي حول «ألف ليلة وليلة» إشكالات كثيرة، يتعلق بعضها بالريادة الزمنية للتأليف

(1) الفهرست 363.

الخرافي، وبعضها بزيادة رواية الأسمار، وأخرى في طرائق تلقي العرب لهذه الخرافات. إن الفقرة الأولى من النص، حول أسبقية الفرس في تصنيف الخرافات، وجعلها كتباً تودع في الخزائن، تحيل، في واقع الأمر، على الهنود أكثر مما تحيل عليهم وربما كان الغموض الذي يلف أصول «كليلة ودمنة» بالصورة التي عرضها ابن النديم، قد أدى به إلى ذلك الاستنتاج، فهو يؤكد بعد سطور قليلة تلي ما أثبتناه عن «كليلة ودمنة»، قائلاً: «قد اختلف في أمره، فقيل عملته الهند، وخبر ذلك في صدر الكتاب وقيل، عملته ملوك الإشكانية ونحلته الهند، وقيل عملته الفرس ونحلته الهند، وقال قوم إن الذي عمله بزرجمهر أجزاء، والله أعلم بذلك»<sup>(1)</sup>. إن الحيرة التي كانت تتنازع ابن النديم في القرن الرابع، أمكن الآن استبدالها باليقين بسبب الكشف عن الأصل الهندي لـ «كليلة ودمنة» وهو كتاب «بنجاتترا»، أما ما ورد عن أن تلك الخرافات كانت على السنة الحيوان، وأنها كانت تودع في الخزائن، كونها جزءاً من كتب الحكمة، فإن متن «كليلة ودمنة» يؤكد فضلاً عن ذلك رغبة بيدبا الوحيدة أمام ديشليم الملك، بأن «يأمر الملك أن يدون كتابي هذا كما دون آباؤه وأجداده كتبهم، ويأمر بالمحافظة عليه: فإني أخاف أن يخرج من بلاد الهند فيتناوله أهل فارس إذا علموا به، فالملك يأمر ألا يخرج من بيت الحكمة»<sup>(2)</sup>، ويتحقق فعلاً ما كان بيدبا يخشاه، إذ ما إن علا كسرى أنوشروان عرش فارس، ووقع له خبر الكتاب ولم يقر قراره حتى بعث برزويه الطبيب وتلفظ حتى أخرجه من بلاد الهند، فأقره في خزائن فارس<sup>(3)</sup>، ويصور باب «بعثة برزويه إلى بلاد الهند» رحلة الكتاب بين خزائن الهند وفارس. أما كون زيادة الأسمار ليلاً، مقترنة بالاسكندر، فلا يستبعد، بالنسبة لقائد توغل في المشرق بعيداً، وأن المسامرين كتبها يسمرون له، لا قصد اللذة، إنما قصد «الحفظ والحرس»، فإذا فرغنا من ذلك، نصل إلى الجزء المهم بالنسبة لموضوعنا من النص، وهو كيفية تلقي العرب تصانيف الخرافات التي كانت معروفة في الهند وفارس. يؤكد ابن النديم، أن العرب نقلت ذلك إلى العربية «وتناوله الفصحاء والبلغاء، فهذبوه ونمقوه، وصنفوا في معناه ما يشبهه» ألا يحيل ذلك أيضاً إلى كتاب «كليلة ودمنة» الذي نقل، وهذب على يد ابن المقفع، وتناوله الشعراء نظماً، وصنف سهل بن هارون كتابه «ثعلة وعفرة» في معناه؟

لم يورد ابن النديم، أية إشارة إلى كتاب «ألف ليلة وليلة»، لكنه تحدث عن كتاب «هزار أفسان» وعرض محتواه، وهو المحتوى نفسه المعروف في متن الكتاب الآن وسماه

(1) الفهرست 364.

(2) ابن المقفع، كليلة ودمنة، تونس 38.

(3) م. ن. 38.

«ألف خرافة»، ويعزز كل ذلك بالجزء الأخير من النص، الذي يذهب فيه أن الكتاب في ألف ليلة ودون المائتي سمر، وأنه رآه على أجزاء، وقد تثير قضية الاختلاف بين «ألف خرافة» و«دون المائتي سمر» تناقضاً في كلام ابن النديم لكن، سياق النص، يكشف، أن ابن النديم، كان يتحدث عن «هزار أفسان» بالمحتوى العام الذي نعرفه الآن لكتاب «ألف ليلة وليلة» أي في قصة الإطار المخصصة لتخريف شهرزاد لشهريار كل ليلة، تخلصاً من الموت، ولكن يعوزنا الكثير للثبوت من أمر، ما كانت تخرف به شهرزاد في القرن الرابع الهجري.

لقد وقفنا على رأيين مختلفين في أمر أصول «ألف ليلة وليلة» ويحسب أن نردفهما، بإشارتين أخريين، فقد أورد أبو حيان التوحيدي (400 = 1009) إشارة خاطفة عن كتاب «هزار أفسان» في كتابه «الامتناع والمؤانسة» على أنه جنس من «ضروب الخرافات»<sup>(1)</sup>، ولا يخفى أن كتاب التوحيدي المذكور قد بني على فكر الليالي التي يسامر فيها أبو حيان الوزير أبا عبد الله العارض في أربعين ليلة وتدوين ما يدور فيها، فقد كان الوزير يقترح موضوعاً ما، فينتدب أبو حيان نفسه للحديث عنه، وهنا نجد أن فكرة الليالي تتجلى في كتاب «الامتناع والمؤانسة». وإن تباین المحتوى. فإذا كان التوحيدي قد استفاد من بناء كتاب «هزار أفسان»، فإنه يكون كتاب «ألف ليلة وليلة» بدلالة كتاب «الامتناع والمؤانسة». أما الإشارة الثانية، فجاءت على لسان المقرئ (1041 = 1633)، إذ يورد حكاية مشهورة، ويقارن شهرتها بشهرة ألف ليلة، قائلاً «وقد أكثر الناس من حديث البدوية وابن مياح من بني عمها، وما يتعلق بذلك من ذكر الأمر، حتى صارت رواياتهم في هذا الشأن كحديث البطلان (سيرة الأميرة ذات الهمة) وألف ليلة وليلة وما أشبه ذلك»<sup>(2)</sup> والإشارة تحيل على الشهرة التي اكتسبها كتاب «ألف ليلة وليلة».

ليس من شأننا التوفيق بين رأيين مختلفين في أصل واحدة من أهم ذخائر الخرافات، إنما من شأننا أن نفق على طرائق تداول الأفكار والحكايات في القرن الرابع. إن الحديث عن ثقافة تنتمي إلى عرق محدد آنذاك يعد أمراً لا معنى له، فقد مرت أربعة قرون أو قرابة ذلك، عمل التفاعل الثقافي بين الحضارات القديمة على تذويب ملامحها القومية، وإعادة بنائها في ضوء الرؤية العربية الإسلامية، ولم تكن نزعات التعصب والتفرد المعاصرة، لها ما يماثلها آنذاك. ما كان موجوداً هو العمل الثقافي والعلمي ضمن إطار الرؤية الدينية التي

(1) التوحيدي، الامتناع والمؤانسة، ضبط وشرح أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت 1: 23.

(2) نفع الطيب 2: 290.

صاغت وعي المجتمع، وحددت نسق البنية الثقافية فيه، مما استدعى أن تكسبى النتائج الثقافية طابع عصرها، وكان النتاج الفكري بجميع مستوياته وأنواعه يجري تداوله وإنتاجه بتوجيه من البنية الثقافية التي أرسدت دعائمها قبل ذلك بنحو أربعة قرون. فإذا وضعنا في الاعتبار التداول الشفاهي للمأثورات ذات الأصول القومية المختلفة، ومقدار ما يلحق بها من تغيير، طبقاً لشروط إنتاج البنية الثقافية القائمة آنذاك، نتوصل إلى أن ما تتعرض له تلك المأثورات من طمس لخصائصها، سواء أكانت عربية أم أعجمية، يعد أمراً مفروغاً منه.

لقد أعاد الإسلام إنتاج المأثورات الجاهلية بما يوافق رؤيته، ولا شك أن تلك الرؤية قد عملت على تغيير المأثورات الأعجمية أيضاً خلال القرون اللاحقة، بما يضيف عليها سمات البنية الثقافية الجديدة.

إن تداول ما هو أعجمي وسط بنية ثقافية عربية إسلامية، خلال مدة طويلة مثل هذه، يجرده من خصائصه، ويكسبه خصائص جديدة. ولنا مثال آخر، نقيس عليه، فإذا كان كتاباً مترجماً إلى العربية مثل «كليلة ودمنة» قد لحق به ما لحق، رغم محافظته على متنه مدوناً، فكيف بالمأثورات الشفاهية التي عاصرت، وظلت بعده رهينة المشافهة. بل إن التأليف، بما فيه الخرافي، لم يكن يُعنى بالأصول القومية للأدب، بعد أن ذابت في بوتقة جديدة واحدة. فالجهشيارى عمل على اختيار «ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم» كان يأخذها عن المسامرين والكتب المصنفة في الخرافات، دون أن ترد إشارة إلى إنه تعصب لسمر دون آخر، ولو كان الجهشيارى قد أنجز مشروعه كاملاً، أو في الأقل وصل إلينا ما يدلل بقرائن أكيدة تثبت الأسمار التي اختارها، وهي أربعمائة وثمانون سماً، لكان لدينا الآن ذخيرة موثقة من الخرافات التي كانت متداولة في القرن الرابع شاهداً، على الأصول المذبذبة في ثقافة ذلك العصر.

في ضوء هذه الصورة، ينبغي علينا معاينة أمر كتاب «ألف ليلة وليلة» فالراجح أن بعض الخرافات التي يتضمنها، كانت من المرويات الشفاهية في الحواضر العربية الإسلامية قبل القرن الرابع، وسواء كانت في بذورها الأولى عربية (= جاهلية) أم أعجمية (= هندية، فارسية، رومية)، فإن التداول الشفاهي لها أضفى عليها خصائص تفوق في أهميتها، تلك التي يفترض وجودها إذا كانت قد انحدرت إلينا من أزمئة قديمة أو مواطن أخرى.

وترجح النسخ المتداولة الآن من «ألف ليلة وليلة»، التي لم يفلح أحد في إلحاقها بنسخة أم، أن الكتاب، قد نجح في اجتذاب الخرافات والحكايات الشعبية المتداولة في القرون الأولى، فضلاً عما ورد في كتب الأخبار العربية وربما تقدم خرافات الحيوان التي



وردت متعاقبة في الكتاب، والأخبار العربية التي وردت هي الأخرى معاً في مكان آخر، وحكايات الوعظ، والخرافات ذات الجذور الإسرائيلية، التي يضمها مكان آخر، دليلاً على اندغام خرافات ذلك العصر، يضاف إلى ذلك دخول حكاية خرافية هندية معروفة هي «سندباد الحكيم»، اتخذت لها عنواناً جديداً هو «حكاية الملك وولده والجارية والوزراء السبعة»، والحققت به سيرة شعبية من غير نوع الخرافات هي «حكاية الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان» وشغلت جزءاً كبيراً منه، وبعض قصص البحار التي لا تعرفها إلا النسخ المتأخرة مثل «حكايات السندباد». كل هذا يقدم دليلاً على أن التضخم الذي أصاب الكتاب إنما يعود إلى عمل الرواة والنساخ في إدراج المأثورات الحكائية ضمن إطار عام هو مناسبة التخریف الذي تقوم به شهرزاد لشهریار. ويرجح، فضلاً عن كل هذا، أن تكون أسرار الجھشیاری وسهل بن ھارون وعلي بن داود والعنابی وأحمد بن أبي طاهر وابن العطار وابن دلان، قد وجدت لها مكاناً في هذا المتن، الذي يحتمل الإضافة، ويتقبل مزيداً من الخرافات. ودليل ما قدمنا «حديث خرافة» الذي وجد مكاناً أساسياً في صدر الكتاب، وتعددت رواياته، وجرى تغيير في بعض أحداثه، وإن ظل ينتمي إلى أصله.

يقول محسن مهدي الذي بذل جهداً مضمياً في البحث والمقارنة والمضاهاة، بين نسخ الكتاب المعروفة، ليحقق من أيها الأصوب، والأقرب إلى النسخة الأم المفقودة: «إن قصص العرب من مفاخر ما نضح به طبعها وأبدعه خيالها وسقاها ذوقها، شاعت بينها في جاهليتها وبعد إسلامها وتناقلها أهل الوبر والحضر منها، وسارت إلى غيرها من الأمم حتى طبق ذكرها الآفاق، ونقلتها الأعاجم فأذابت قلوبها وسحرت عقولها، ولم يجمع كتاب من قصصها وحكاياتها وأمثالها ما جمعه هذا الكتاب، ولا حظي غيره بما حظي به عندها وعند غيرها، نقلته الرواة في المدن المعمورة وأنس به أهل الحضر في منازلهم أوقات سمرهم وأرتاحت له نفوس الصناع والتجار بعد فراغهم من صناعتهم وتجارهم. سعدت بسماع ما احتواه العامة واعتبرت برموزه وإشاراته الخاصة»<sup>(1)</sup>.

ويقود البحث محسن مهدي إلى القول إن الكتاب «لا يُعرف مؤلفه أو من روى أو جمع النسخة الأم»، ويعزى ذلك إلى الرواة والنساخ الذين «منهم من نقله بشيء من الدقة ومنهم من نقله دون أن يتقيد بلغة أصله، ومنهم من أعاد صياغة أصله وتركيبه بصورة يفهمها القراء ويرغب فيها القصاص المعاصرون له. ثم إن النساخ لم يتحرجوا من تغيير لغته ووضع ألفاظ معروفة عندهم مكان ألفاظ لم تعد دراجة في أزمانهم. ولما لم يكن غرض الكتاب تعليم

(1) محسن مهدي: كتاب ألف ليلة وليلة من أصوله العربية الأولى، ليدن 12.

العلوم والآداب واللغة الفصيحة، وإنما غرضه الحكاية والسمر، لم يتورع النساخ ورواة القصص والسير من أن يقحموا فيه، ويضيفوا إليه قصصاً أخرى ارتضاها ذوقهم أو فنيهم<sup>(1)</sup> فعلاً إن الكتاب خلافاً لكثير من الكتب، يحتمل الإضافة، ويحتمل الحذف، وقد أفضى البحث المعمق الذي أجراه محسن مهدي للنسخ التي عثر عليها للكتاب، خلال القرون الأربعة الأخيرة، إلى تحقيق متن الكتاب من جديد، فلم يثبت فيه سوى إحدى عشرة حكاية. وعد غيرها مما هو موجود في النسخ الأخرى دخيلة على الكتاب. ولكنه مهد لذلك، بمدخل موسع نقد فيه النسخ المطبوعة وأرجعها إلى أصول عرضت للتزييف، أكثر مما احتفظت بالأصول، إن أقدم ما استطاع محسن مهدي العثور عليه، طوال بحث استمر عقدين، هو الرجوع بالنسخة التي حققها إلى القرن الثامن الهجري (= الرابع عشر الميلادي). فإذا كان الأمر كذلك، فإن بين ما بحثنا وما بحث محسن مهدي ثمة أربعة قرون أخرى حالكة، لا يعرف فيها ما حلّ بالكتاب.

لقد أنارت معضلة أصول ألف ليلة وليلة ومصادره ومؤلفيه، كثيراً من الباحثين المحدثين، سواء من العرب أم من المستشرقين، وأجروا بحثاً طويلاً ومعقدة حول هذه المعضلة، لم تصل إلى نتائج محددة. ولتشعب الآراء واستحالة عرضها، عرضاً وافياً، بسبب كثرتها، وتوسعها، صنعنا مسرداً بها يبين أبرز المواضيع التي أثرت حول الكتاب، يقابلها الرأي، ثم صاحب الرأي وختمناه بالمصادر التي أوردت الآراء.

تكشف لائحة التأليف، عن الآراء المثارة بصدد أصول الكتاب، وهي تتراوح بين عدّه هندياً أو فارسياً أو عربياً أو خليطاً من الجميع. أو بعضها، وتكشف أيضاً أن الآراء الخاصة بمصدر الكتاب، تفرقه بـ «هزار أفسانه» وحكايات عربية ألفت ودمجت فيه. كما تكشف عن خلاف في الرأي حول مؤلفه. وتاريخ تأليفه وجمعه.

إن الآراء التي عرضتها لائحة التأليف، لم تال جهداً في البحث عن الإشكالات المحيطة بالكتاب، لكنها، فيما نرى، حاولت إسقاط وعي حديث لتشكل الحكاية الخرافية وظهورها على زمن، كانت فيه الآداب، وبخاصة الحكايات الشفاهية، ترتحل دونما موانع، ويعاد تشكيلها طبقاً للبنية الثقافية السائدة آنذاك.

يقود البحث في تاريخ «ألف ليلة وليلة» بوصفه واحداً من أهم ذخائر الحكاية الخرافية، إلى الوقوف أيضاً على ذخيرة ثانية، لم تثل الشهرة التي استأثرت بها المجموعة

(1) كتاب ألف ليلة وليلة من أصوله العربية الأولى 23، وقد بحث في هذا الموضوع أيضاً سهر القلماوي، ألف ليلة وليلة، القاهرة 93، وحسين فوزي، حديث السندباد القديم، القاهرة 185.

## مرد تالیف کتاب ألف لیلة ولیة وأصوله

الموضوع	الرأي	صاحب الرأي
أصول الكتاب	<ul style="list-style-type: none"> <li>← هندي</li> <li>← فارسي</li> <li>← عربي</li> <li>← هندي + فارسي</li> <li>← عربي</li> <li>← هندي + فارسي</li> <li>← فارسي + عربي</li> </ul>	<p>شليلج، كوسكين، بريزلسكي، البديروف، فترنيتز، غالان. برتن، مكدونالد، علي أصغر حكمت، آدم متز. مرتاض، محسن مهدي، خلوصي، الصالحاني، الشيرواني، لين، دوساسي.</p> <p>أويستروب، فون هامر، ليديف، طرشونة، ميخائيل عواد، موسى سليمان، ديرلاين حسين فوزي.</p> <p>هيروز، سكوت.</p> <p>الزيات، ليمان، بوسون، فاروق سعد.</p>
مصدر الكتاب	<ul style="list-style-type: none"> <li>← هزار أفسانه</li> <li>← هزار أفسانه +</li> <li>← حكايات عربية</li> </ul>	<p>برتن، ديرلاين، علي أصغر حكمت. مكدونالد، فون هامر.</p>
مؤلف الكتاب	<ul style="list-style-type: none"> <li>← جماعي التاليف</li> <li>← مؤلف عربي</li> <li>← مؤلف شعبي مجهول</li> </ul>	<p>الزيات، أويستروب، فؤاد حسين، دوساسي، ليمان، طرشونة، سليمان، حسين فوزي.</p> <p>الشيرواني، الصالحاني، شوفان، خلوصي.</p> <p>القلماعي، لين.</p>
تأليف الكتاب	<ul style="list-style-type: none"> <li>← ازمة غير محددة</li> <li>← العصر العباسي</li> <li>← العصر الفاطمي</li> <li>← القرن 6 هـ = 12 م</li> <li>← القرن 9 هـ = 15 م</li> <li>← القرن 10 هـ = 16 م</li> </ul>	<p>الزيات، الصالحاني، القلماعي، فؤاد حسين، منير بعلبكي، فاروق سعد.</p> <p>تبيهة عبود، خلوصي، هلال ناجي، دوساسي، المنجد.</p> <p>مكدونالد.</p> <p>برتن، ليمان.</p> <p>لين، شوفان.</p> <p>جورجي زيدان.</p>
تاريخ الجمع	<ul style="list-style-type: none"> <li>← القرنان 13 - 16 م</li> <li>← 1525 - 1475 م</li> <li>← 1517 - 1526 م</li> <li>← 930 هـ (= 1523 م)</li> <li>← القرن الثامن عشر الميلادي</li> </ul>	<p>برتن، بعلبكي.</p> <p>لين</p> <p>الزيات.</p> <p>ميخائيل عواد.</p> <p>مكدونالد.</p>

دائرة المعارف الإسلامية، سهر القلماعي، ألف ليلة وليلة، صفاء خلوصي: دراسات في الأدب المقارن والمذاهب الأدبية. فاروق سعد: من وحي ألف ليلة وليلة، حسين فوزي: حديث السندباد القديم. صلاح الدين المنجد: عروس العرايس. ديرلاين: الحكاية الخرافية. الزيات: تاريخ الأدب العربي. فؤاد حسين: قصصنا الشعبي. محسن مهدي: كتاب ألف ليلة وليلة من أصوله العربية الأولى. محمود طرشونة: مدخل إلى الأدب المقارن وتطبيقه على ألف ليلة وليلة. ليديف: أثر الموروث الشعبي للجنوب العربي في ألف ليلة وليلة. ميخائيل عواد: ألف ليلة وليلة امرأة الحضارة والمجتمع في القرن الرابع. عبد الملك =

الأولى، ونعني بها «مائة ليلة وليلة» التي تتفق والأولى، ليس في حكاية الإطار، إنما في تضمينها حكايات تردد بعضها في الليالي. إذ يرى محمود طرشونة، محقق الكتاب، أنه «سابق لآلف ليلة وليلة» مدللًا على ذلك بالمقارنة بين الكتابين ومعتمدًا على آراء جودفري ديمومبيز وكوسكان وكراشكوفسكي وسهير القلماوي وبرزيلوسكي<sup>(1)</sup>. وإلى جانب هاتين الذخيرتين، توفرت لدينا مجموعة حكايات أخرى بعنوان «الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة»<sup>(2)</sup>، وتتضمن هي الأخرى حكايات متفرقة، في المجموعتين المذكورتين، ويذهب المنجد إلى أن «هذه الحكايات أقدم من الألف ليلة فهي الصورة التي بدأ بها العرب ينقلون الحكايات بها عن الفرس والهند والروم أو يضعونها على أساسها»<sup>(3)</sup>، ويرجع أن هذه الحكايات، هي ذاتها التي أشار إليها ابن النديم، ونسبها إلى الجهشباري. وهذه الذخائر الثلاث، ستكون المتن الذي نعلم عليه في التحليل الفني لسردية الخرافة في الفصل اللاحق.

---

= مرتاض: ألف ليلة وليلة: دراسة سيمائية تفكيكية لحكاية جمال بغداد، موسى سليمان: الأدب القصصي عند العرب. Gerhardt: The art of Story - Telling. F.J. Gha Zoul: The arabian nights.

(1) مائة ليلة وليلة، دراسة وتحقيق محمود طرشونة، ليبيا - تونس ونحيل بهذا الصدد إلى المقدمة الموسعة للكتاب 18-55.

(2) الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة، تحقيق هنس وير، بيروت، 1956.

(3) المنجد، عروس العرايس، بيروت 13.

## الفصل الثاني

### البنية السردية للحكاية الخرافية

#### 1 - خرافة شهرزاد والحكاية الاطارية :

إن دواعي البحث في البنية السردية للحكاية الخرافية، توجب الوقوف على الخرافة الأكثر شهرة في تاريخ الثقافة العربية - وربما الإنسانية عامة - ألا وهي خرافة شهرزاد التي توظف الخرافات التي وردت في ذخيرتين أساسيتين من ذخائر الخرافة، وهما «الف ليلة وليلة» و«مائة ليلة وليلة»، ذلك أن ما ورد فيهما من خرافات، قد خضع مباشرة لـ «شهرزاد» بوصفها رواية لتلك المتون الخرافية.

عُدَّت خرافة شهرزاد أنموذجاً عالمياً للحكاية الإطارية، التي تعرفها «مياجير هاردي»، بأنها «ذلك السرد المركب من قسمين بارزين، ولكنها مترابطان، أولهما: حكاية أو مجموع الحكايات التي تروىها شخصية واحدة، أو أكثر، وثانيهما: تلك المتون وقد رويت ضمن حكاية، أقل طولاً وإثارة، بما يجعلها توظف تلك المتون، كما يحيط الإطار بالصورة»<sup>(1)</sup>، ولقد اتصفت خرافة شهرزاد بذلك كونها انطوت على إمكانية غير محدودة لتأطير خرافات كثيرة، الأمر الذي جعل تودروف يصفها بأنها، من «الأدب الإسنادي» لأن «التأكيد فيها يكون دائماً على الإسناد، وليس على موضوعه»<sup>(2)</sup>.

تورد النسخ المختلفة من «الف ليلة وليلة» خرافة شهرزاد، في الصفحات الأولى والأخيرة من الكتاب، وما متته، كما هو معروف، إلا ما «تحرف» به شهرزاد لشهريار. وثمة اختلاف في رواية الخرافة، بما لا يؤثر في بنيتها السردية، بين نسخة وأخرى، أما رواية «مائة ليلة وليلة» لها، فإنها تختلف عما أوردته روايات «الف ليلة وليلة».

تدور خرافة شهرزاد، في «الف ليلة وليلة» حول ملكين شقيقين، هما «شهريار» و«شاه زمان»، إذ يرسل الأول، وهو ملك الصين، في طلب أخيه ملك فارس، فيستجيب لطلبه،

Gerhardt, The art of story-telling, P.395.

The Poetics of Prose, P.67.

(1)

(2)

ويغادر مملكته، ولكنه يعود إلى بيته، لشيء افتقده، فيجد زوجته وعبداً له معاً في فراشه، فيقتلها حالاً، ويستأنف رحلته إلى مملكة أخيه، وقد باغته الهم والحزن والحيرة لما جرى له، ويعتزل الحياة في قصر ملحق بقصر أخيه، وتفشل محاولات الأخ في الاطلاع على حقيقة أمره، وفي يوم ما، يدعو «شهريار» لمصاحبه في رحلة صيد، لكنه يمتنع، ويظل حبيس القصر يتفكر في أحواله، وقد شحّب لونه، وتغيرت طباعه، وفيما يغادر أخوه القصر إلى الصيد، يتبذ هو مكاناً جوار نافذة القصر، تطل على بستان ملحق به، إذ يفاجأ بزوجة أخيه وجواربها وعبيدها، يمارسون الحب بين الأشجار دون خوف، ويتيقن أن ذلك يتكرر كلما غاب شهريار عن قصره، فيهون على نفسه، ما جرى له، مقارنة بما يجري لأخيه، فيسترد عافيته ولونه، ويكتشف أنه ليس وحيداً فيما أصابه. وحالما يعود شهريار من رحلته، يلاحظ علامات التغيير على وجه أخيه شاه زمان، ويرجوه أن يخبره بأمره، لكن شاه زمان يتردد في كشف الحقيقة، وبسبب من الحاج أخيه ورجائه، يخبره عن السبب الذي جعله يعتزل الحياة ويتغير حينما وصل زائراً، وذلك لأنه اكتشف خيانة زوجته له، لكن كشف جانب من حقيقة الأمر، جعل «شهريار» يشدد في إلحاحه، عن السبب الذي جعله يعود إلى ما كان عليه، فيخبره، بعد تردد، بما رأى في بستان قصره، لكن «شهريار» لا يصدق قوله، فيدعو أخوه لتدبير حيلة، تقوده إلى كشف حقيقة زوجته، وذلك بأن يعلن عن خروجه في رحلة صيد، ثم يعود خفية، لمراقبة ما يجري في حديقة القصر وبذلك يطلع على أمر خيانة زوجته له، فيقرر الأخوان، في ضوء ما جرى لهما، هجرة مملكتيهما، والبحث عن يواسيهما في الأماسة التي وقعا فيها، فتقودهما قدماهما إلى ساحل بحر هائج، سرعان ما تقذف أمواجه الصاخبة جنياً ضحماً إلى الشاطئ، فيلجآن خوفاً منه إلى شجرة قريبة، يتسلقان جذعها، ويختبآن بين أغصانها، فيما يتجه الجني إلى الشجرة نفسها، وهو يحمل صندوقاً على رأسه، ويتكئ عليها، ويفك أقفال الصندوق، فتخرج منه جارية جميلة، خطفها ليلة عرسها، فيواقعها، وتأخذ بعد ذلك إغفاءة نوم، وحالما ترفع الجارية نظرها إلى أغصان الشجرة، تكتشف أمر شهريار وشاه زمان، فتطلب إليهما، إيماءً، أن ينزلا ويواقعانها، وإلاً أيقتل الجني إن هما امتنعا عن تحقيق رغبتها، فيستجيبان خوفاً، وحالما يفرغان منها، تأخذ خاتميها، وتضيفهما إلى خواتم كثيرة في كيس تحمله معها يتراوح عدد الخواتم بين مائة وخمسمائة حسب اختلاف نسخ كتاب «ألف ليلة وليلة» وتخبرهما، بأن عدد الخواتم في الكيس يساوي عدد الرجال الذين واقعوها في غفلة عن الجني، على الرغم من شدته وجبروته، واحتجازها في صندوق مقلق في قاع البحر، لا يعرف مكانه أحد. فيتعجب الملكان من أمرها، غاية العجب، ويستعجبان ما جرى لهما، مقارنة بما يجري لهذا الجني المخيف، فيقرران العودة إلى مملكتيهما، والاندماج في الحياة ثانية، مقرين بعجزهما إزاء حيل النساء، إن أردن شيئاً

ما. وحالما يصل الأخوان مملكتيهما، حتى يقتل شهريار زوجته وخدم القصر رجالاً ونساء، ويفرر أن لا يتزوج سوى امرأة عذراء، يقتلها بعد أن يمضي ليلة معها، إلى أن يتعذر على الوزير الحصول على فتاة بكر، تصالح زوجة للملك، سوى ابنته الكبرى «شهرزاد» التي «قرأت كتب التواريخ وسير الملوك المتقدمين، وأخبار الأمم الماضين»<sup>(1)</sup>، وما أن يبلغها الوزير بالأمر حتى توافق قائلة «بإله يا أبت زوجني هذا الملك، فإما أعيش، وإما أكون فداء لبنات المسلمين، وسبباً لخلاصهن من بين يديه»<sup>(2)</sup>. ويتزوج شهريار من شهرزاد، فتبدأ في ليلة الزواج، تحدته بأحداث عجيبة وطريفة، تستغرق ألف ليلة، فلا يمل من خرافاتها، ولا يستطيع قتلها شأن غيرها، لأن قتلها، سيفقده من يخزف له كل مساء، إلى أن تمضي ألف ليلة، تحقق خلالها شهرزاد أمرين، أولهما: إنجابها ثلاث ذكور من الملك، وثانيهما: نجاحها في تغيير وجهة نظره تجاه النساء، بإيرادها خرافات ذات أهداف اعتبارية، وكلا الأمرين يتضافران معاً، ليصرفا شهريار عن المضي في قراره القاضي بقتل المرأة العذراء، إثر افتراعه لها، خشية الخيانة.

أما رواية «مائة ليلة» للخرافة، فتختلف في تفاصيلها، وإن تطابقت مع رواية «ألف ليلة» في الغرض، إذ يظهر مؤلف خرافات يدعى «فهراس الفيلسوفي» وقد استدعاه أحد الملوك إلى قصره، لأنه علم أنّ له كتاباً خرافياً في مائة ليلة وليلة، ويتدى رواية خرافات البايالي المائة وليلة للملك، بحكاية حول ملك من ملوك الهند، يدعى «دارم» وهو ملك جميل الطلعة، يتباهى بحسنه، كل عام، وذلك بأن يقيم مهرجاناً عظيماً، ويضع أمامه امرأة كبيرة، تعكس صورته، ويسأل خلال ذلك أرباب دولته، قائلاً «هل تعلمون أحداً في الدنيا، أحسن مني صورة؟»<sup>(3)</sup>، فيكون الجواب دائماً بـ (لا)، إلى أن كان في بعض السنين، إذ نهض إليه شيخ من كبار أهل دولته، فأخبره، أن ثمة شاباً بمدينة (خراسان) يفوقه حسناً وجمالاً. فما كان من الملك دارم، إلا أن أمر الشيخ، بالرحيل إلى خراسان واصطحب الفتى معه، فيستجيب الشيخ لأمر الملك، ويتجه إلى (خراسان)، ويعود بصحبه إلى الهند، لكن الفتى، ويدعى (زهر البساتين) يتذكر حاجة نسبهما، تضطره إلى الرجوع إلى البيت فجأة، فيجد زوجته - وهي ابنة عمه - وعنده معاً في الفراش، فيذبحهما ويعود إلى مصاحبة الشيخ إلى الهند، ويدخل بلاط الملك دارم، إذ يقابجا الأخير، أن الفتى غير جميل، بخلاف وصف الشيخ له، الذي يخبر الملك أن مرضاً شديداً ألمّ به في الطريق، غير لونه، وأثر في

(1) ألف ليلة وليلة، بيروت 10:1، وكتاب ألف ليلة وليلة من أصوله العربية الأولى 66.

(2) م. ن. 11-10:1 م. ن. 66.

(3) مائة ليلة وليلة 68.

صحته، فيأمر الملك، بأن يعتنى بالشاب في قصر يجاور قصره، إلى أن يسترد عافيته، وفيما يتفكر (زهر البساتين) بما جرى له مع زوجته، يعثر على باب في القصر، يفضي به إلى قبة مظلة على بستان وسط قصر الملك، وسرعان ما تظهر ثلة من جوار حسان وسيط البستان، يبهن جارية أكثرهن جمالاً وحسناً، تأمرهن بالاختفاء وتتحنى ظل شجرة، إذ يجيء عبد أسود، يواقعها هناك، وينصرف بعد ذلك، وما أن يعرف (زهر البساتين) أن تلك الجارية هي زوجة الملك دارم، حتى يهون ما جرى له، مقارنة بما يجري لملك الهند، فيقبل على الطعام والشراب، ويسترد عافيته وجماله، الأمر الذي يثير استغراب الملك دارم، فيهدده بالقتل إن لم يفش حقيقة أمره، فيخبره بالسبب الذي جعله يمرض ويفقد جماله، وبالسبب الذي جعله، يستعيد صحته وجماله ثانية، ويتأكد الملك دارم من دعواه بالأسلوب الذي اتبعه (شهریار) في (ألف ليلة) فيأمر بإعادة الفتى إلى ذويه، ويقتل زوجته وجواربها وخدمها، ويمتنع عن الزواج إلا من عذراء، يأمر بقتلها بعد أن يمضي ليلته معها، وتجري الأحداث على نحو مماثل أحداث (ألف ليلة وليلة) باستثناء أن شهرزاد في (مائة ليلة) لا تمضي برفقة الملك عدد الليالي التي أمضتها في (ألف ليلة وليلة).

إن الاختلاف بين روايتي الخرافة، لا يتعلق بأحداثها ومغزاها وإنما بـ (زمن السرد) لكل منهما، فزمن رواية (ألف ليلة) مكن (شهرزاد) من كسب الوقت الكافي لتستبدل الموت بالحياة، فيما لم يمنحها زمن (مائة ليلة) ذلك الأمر الذي جعلنا نجعل مصير «شهرزاد» فيها، فالخرافة مبتورة، و«مائة ليلة» لا تكفي الراوية، لأن تذرع بطلب عفو ملك فتاك مثل شهریار. شأن رواية «ألف ليلة» التي أنجبت فيها الراوية أطفالاً، وأفلحت في تغيير موقف الملك تجاه النساء، فضلاً عن أن زمن «ألف ليلة» مكن الراوية من تنظيم سلسلة طويلة ومتنوعة من الحكايات الخرافية التي يندر وجودها، في سفر مماثل آخر، بيد أن الاختلاف الأكثر أهمية، بالنسبة لبحتنا في «سردية الخرافة» يتعلق بمستويات السرد في روايتي الخرافة المذكورتين، ففيما تباشر شهرزاد روايتها في «ألف ليلة» بوصفها الراوي الذي يؤطر الخرافات التي تنتظم في مستويات متتابعة، تبدو حكاية «الملك دارم وشهرزاد» أكثر تعقيداً، إذ يضاف فيها مستوى آخر، هو مستوى رواية «فهراس الفيلسوف» لملك الهند الذي بعث إليه، ليحدثه بمائة ليلة وليلة، لكن من المفيد التأكيد هنا، أن مستويات السرد الداخلية التي تقع دون مستوى رواية شهرزاد، تزداد خصباً وغنى في خرافات «ألف ليلة» عنها في خرافات «مائة ليلة»، ذلك أن طبيعة «المناقلة السردية» بين الرواة في كثير من خرافات «ألف ليلة» تنتظم في متواليه من الرواية والتلقي، واستبدال في مواقع الراوي والمروي له، على نحو تفتقر إليه خرافات «مائة ليلة».

إن الوصف الذي خصصناه لخرافة شهرزاد، يظهر أنها خرافة بسيطة التركيب قليلة



الأشخاص، محدودة الأحداث، بيد أن ذلك التركيب البسيط، هو الذي جعلها تتصف بعبارة القدرة على احتواء حكايات كثيرة فيها، إذ ما تنسم به الحكاية الخرافية عامة، وجود «أجزاء رخوة» في الفعل القصصي، يسمح باندرج أفعال قصصية ثانوية في سياقها، تتوالد باستمرار، وتغذي من الإمكانيات السردية للحكاية الإطارية، التي هي بمثابة «حكاية أم» تمد الحكايات الثانوية بأسباب الحياة والبقاء، مما جعل الحكاية الخرافية، تتقبل في سياقاتها، كل ما هو غريب من الأحداث والوقائع، شرط أن يندرج في بنيتها السردية بوساطة راوٍ جديد، يحمل على كاهله حكايته الخاصة أو حكاية رويت له، فما تتصف به الخرافة، كما يقرر تودروف، هو «أن ظهور شخصية ما يفضي إلى ظهور حكاية جديدة»<sup>(1)</sup>. ولما كان ظهور الشخصيات يتم، في الحكاية الخرافية، بتوالٍ مطرد، فإن الخرافة، أصبحت إطاراً مناسباً لتضمين مضاعف من الحكايات، تندرج فيه حكاية داخل أخرى، مما يقود إلى تفرغ مزيد من الحكايات، داخل الحكاية الإطارية. ويحسن أن نمثل على ذلك بخرافة شهرزاد نفسها، كما وردت في روايتي «الف ليلة» و«مائة ليلة». إذ يتضح تماسك الفعل القصصي إلى أن يتم اللقاء بين شهرزاد وشهريار، أو دارم. ثم يبدأ ذلك الفعل يفقد تماسكه، حينما تبدأ شهرزاد بـ «التخريف»، إلى درجة، ينخرم فيها الفعل القصصي، حينما تظهر شخصية جديدة، وحالما تظهر شخصية «شهرزاد» في سياق الخرافة، يتوقف أو يكاد الفعل القصصي المكون للخرافة، ويتحول شهريار أو دارم إلى مروى له، يتلقى عن شهرزاد، ستاً وتسعين حكاية متكاملة، تنطوي على مئات الحكايات الثانوية في «الف ليلة» وثلاث وعشرين حكاية متكاملة، تندرج فيها عشرات الحكايات الثانوية في «مائة ليلة»، في وقت تغيب فيه، أو تنتحي جانباً، بعض مكونات البنية السردية للحكاية الأم. مما يدل دلالة لا تقبل اللبس، على الإمكانية غير المحدودة، لتقبل الحكاية الخرافية لحكايات دخيلة في سياقها السردية. وفيما أتاح زمن السرد في «الف ليلة» لشهرزاد تضديد ذلك العدد الكبير من الحكايات، حدد زمن السرد في «مائة ليلة» قدرتها في تضديد عدد معادل لذلك العدد. مما جعل خضوع المروي له في «الف ليلة»، نوعاً من الخضوع الذي تفرضه هيمنة الراوي، إذ ليس أمام شهرزاد، إلا أن تنفنن في ترتيب خرافات متتالية، تصرف الملك عن قلبها، وتجعله أسير خرافتها، ذلك أن شهرزاد «تعيش لأنها تستطيع أن تروي الحكايات»<sup>(2)</sup> وكما يقول جيرالد برنس، فليس أمامها، سوى «توظيف موهبتها، بوصفها راوية حكايات، وإلا فمصيرها الموت»<sup>(3)</sup>. تتميز الحكاية الخرافية، بمثلة بخرافة شهرزاد، بتعدد مستويات الرواية، التي تترتب

The Poetics of Prose, P.71.

Ibid, P.73.

Reader - response criticism, P.8.

(1)

(2)

(3)

على طبقات، تغلف كل واحدة الأخرى، مما يجعل الفعل القصصي عرضة للخرم والتمزق والإرجاء، إزاء أي فعل خارجي، فالحكايات المنسوبة رواية إلى شهرزاد، تهيمن على الخرافة الأصلية، بل إن ضمور تلك الخرافة، وتشتت بعض وقائعها، يعود، في حقيقة الأمر، إلى غنى حكايات شهرزاد وتنوعها وعددها. مما جعل تلك الحكايات، تستأثر بالاهتمام، أكثر من الحكاية التي تنبأ فيها شهرزاد مكانة مهمة، بدليل اقتران الكتاب، بعدد الليالي التي أمضتها شهرزاد في رواية تلك الحكايات، ليس ذلك، فحسب، بل إن الجزء الأخير من الخرافة، يؤجل إلى أن تفرغ شهرزاد من حكاياتها، وذلك إنما يشير إلى الأهمية الاستثنائية لمكون الرواية في الحكاية الخرافية. بيد أن استئثار الرواية بمكانتها المهمة تلك لا يعني أبداً، أن مكون الرواية، يشتغل في معزل عن مكون المروي، ذلك، أن المروي، ممثلاً بالحكاية، يعمل معاً في إنجاز مهمتين متزامنتين، الأولى: تنظيم سلسلة الحكايات الثانوية بالتتابع. والثانية تغذية الفعل القصصي بصورة غير مباشرة، بأسباب التطور. فرواية شهرزاد لعدد كبير من الحكايات طوال ألف ليلة وليلة، قد عمل على توفير أسباب جديدة، تصرف الملك عن تنفيذ قرار القتل، سواء أكانت تلك الأسباب تتعلق بإنجاب شهرزاد لعدد من الأولاد الذكور الذين سيرثون أبيهم، أم فيما أحدثته من تغيير جوهري في موقفه من المرأة. فالإرجاء المتعمد لنهاية الخرافة، عمل خفية على تغذية الفعل القصصي لخرافة شهرزاد.

إن الوقوف على مكونات البنية السردية في خرافة شهرزاد، مهد لنا السبيل، للاقتراب إلى البنية السردية للحكاية الخرافية بصورة عامة، فإلى مكوني الراوي والمروي له، وأثرهما في تحديد مستويات السرد في الخرافة، نخصص الفقرة الآتية.

## 2 - مظاهر ثنائية الراوي والمروي له :

تقدّم الحكاية الخرافية أشكالاً متنوعة للراوي المفارق لمرويّه، بل إن هذا الراوي سمة مميزة من أخص سماتها. ولعل في «فهراس الفيلسوفي وشهرزاد» وهما يرويان حكايات رويت لهما، وأحياناً حكايات وصلتهما عبر سلسلة من الرواة، ما يدل على موقع الراوي المفارق لمرويّه في البنية السردية للحكاية الخرافية، وشأن ذلك الراوي، يظهر مصاحباً له، مروي له يلازمه، ويترتب على ذلك القول، أن الحكاية الخرافية ما هي إلا المروي الذي يرويّه راوٍ لمروي له، ولعل في نموذج «شهریار» و«دارم» ما يدل على أهمية المروي له في الحكاية الخرافية، فلولاها، ولولا استعدادهما المنقطع النظير للاستماع إلى حكايات شهرزاد، ما كان، من الناحية السردية ممكناً تصور وجود ذخيرتين كبيرتين من الخرافات،

بالشكل الذي بنيت عليه. أو وصلت إلينا فيه.

إن ثنائية النطق والاستماع التي تحيل على ثنائية الراوي والمروي له، هي الموجّه الأساسي للبنية السردية في الخرافة وستقوم بفحص بعض مظاهر هذه الثنائية، وأثرها في بنية الخرافة. من خلال وقوفنا على تجليات هذه المظاهر، مؤكدين ابتداء أمرين، أولهما، إن الحكاية الخرافية، سواء أكان راويها مفرداً أم جماعة، والمروي له مفرداً أم جماعة، فإنها لا بد من أن تنطوي على أكثر من حكاية متضمنة، وبعبارة أخرى، فإن الاستقراء لم يورد لنا حكاية لا تنطوي على تضمين حكاياتي، بغض النظر عن تعدد الرواة أو المروي له، وثانيهما، أننا لن نقف على الراوي المجهول الذي، يتجلى ظهوره الخاطف وغايه في عبارات وجمل موجزة تتقدم الحكاية مثل «حكى» أو «بلغني» أو «زعموا»، وقال صاحب الحديث: «... الخ، فذلك الراوي المجهول، لا يعطي البنية السردية إلا حق ظهورها، أما صياغة مكونات البنية السردية، فمن شأن الرواة الذين يقعون دون مستوى ذلك الراوي المجهول.

من المظاهر البارزة في الخرافة تعدد رواياتها الذي يترتب عليه تعدد في حكاياتها، مع بقاء المروي له مفرداً. وهذا المظهر يحكم بنية بعض الحكايات الخرافية في «ألف ليلة وليلة» و«مائة ليلة وليلة». وحينما نتحدث عن هذا المظهر يلزم التأكيد أن حضور شهرزاد بوصفها راوية، وحضور «شهریار» أو «دارم» بوصفهما مروياً له. أمر محتم، لا يمكن الاستغناء عنه أبداً، وإنما التعدد يحصل في مستوى دون المستوى الذي يكونان هم فيه.

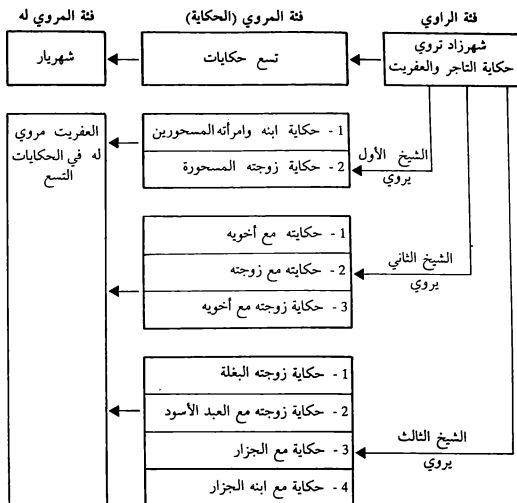
ففي خرافة «التاجر والعفريت»<sup>(1)</sup> يلاحظ أن رواية شهرزاد ما هي إلا إطار يتشتمل حكايات الشيوخ الثلاثة. وأن المروي له ما هو إلا إطار من خلاله يتشكل مروي له آخر هو العفريت، وبين تعدد الرواة وبقاء المروي له فرداً، تتوالد حكايات كثيرة، كما تكشف الترسمة الآتية لخرافة «التاجر والعفريت» (راجع الترسمة على الصفحة 100).

تكشف لنا الترسمة أن حكايات الشيوخ تمر من خلال رواية شهرزاد وأنها تتجه إلى العفريت، ثم شهریار. وأن العلاقة بين هاتين الفئتين، علاقة أفقية كونهما يمثلان ثنائية النطق والاستماع، بينما العلاقة بين الرواة علاقة تنابعية، فكل منهم يعقب الآخر، وهو ما أفضى إلى أن ترتيب الحكايات، كما ورد في فئة المروي، يخضع لنسق متتابع، وثمة نماذج كثيرة من الخرافات تدلل على شيوع هذا المظهر في الحكاية الخرافية، مثل «حكاية الملك وولده والجارية والوزراء السبعة»<sup>(2)</sup> إذ يكون الوزراء «السبعة» والجارية وابن الملك رواة ويكون الملك مروياً له، فيروون له ستاً وعشرين حكاية يستمع إليها جميعاً، قبل أن يصدر

(1) ألف ليلة و 14:1 وكتاب ألف ليلة و ليلة من أصوله العربية الأولى ص 72 و 85-701-689.

(2) ألف ليلة و 229:3 ومائة ليلة و 240.

ترسيمة لنموذج متعدد الرواة إزاء مروى له واحد



حكمه النهائي بحق ابنه . وحكاية «حديث الأربعة رجال مع هارون الرشيد»<sup>(1)</sup> إذ يروي أربعة رجال حكايات لـ «هارون الرشيد» يؤدي ذلك إلى إطلاق سراحهم من السجن .

وثمة مظهر لثنائية الراوي والمروي له، يتناقض والمظهر السابق، ويتمثل في بقاء الراوي مفرداً، وتعدد المروي له . مع تولد مزيد من الحكايات ضمن إطار الحكاية الأم، ومن أمثلة ذلك (حكاية السندباد البحري) ففي الوقت الذي تروي فيه شهرزاد لشهريار حكاية السندباد البحري، يقوم هو بنفسه برواية حكاياته السبع إلى السندباد البري، ولا يكفي بذلك، بل إن السندباد يروي لعدد كبير من المروي لهم، حكاياته، حيثما وقعت، وهذا يكشف تعدداً في مستويات المروي له، وثباتاً في مستوى الراوي» وذلك ما تؤشره فنتا

(1) مائة ليلة : 478 .

ترسيمة لنموذج وحدة الراوي وتعدد المروري له



الراوي والمروي له في الترسمة الآتية الخاصة بـ «حكاية السندباد»<sup>(1)</sup>.

لو تأملنا حكايات السندباد، وهو الراوي الفرد في البنية السردية هنا، لوجدنا حكاياته السبع متعاقبة، كما أن الحكايات المضمنة فيها قد خضعت لنسق التعاقب نفسه، مما جعل التابع هو الإطار الذي يحكمها. وفيما تنطلق روايات السندباد من مستوى واحد هو حكايته التي ترويها شهرزاد، فإن الحكايات الثانوية المتولدة داخل حكاياته السبع تنطلق من مستويات عدة. وعلى الرغم من ذلك فإنه، يهيمن بوصفه راوياً، على الحكايات، أساسية كانت أم ثانوية، كما تكشف ذلك فتنا الراوي والمروي. أما فئة المروي له، فننتظم ضمن ثلاثة مستويات متعاقبة، إذ إن التلقي يمر من الشخصيات في الحكايات الثانوية، إلى السندباد البري وصولاً إلى شهریار. فالفعل الذي أنجزه السندباد البحري، رواه إلى مروي له، شاركه الفعل أو التقاه بعد ذلك بقليل، مثل الملك المهرجان وسائسه، أو صاحب المركب، أو تجار الألماس، إلا أن روايته هذه لا تكتسب استقلالها الخاص بها، إلا ضمن الإطار الذي يروي فيه حكاياته إلى السندباد البري، فإذا وضعنا في الاعتبار، اندراج حكاية السندباد في سياق خرافة شهرزاد، فإن الحكاية ذاتها، لا تتشكل سردياً إلا في ضوء نظام الليالي الذي ترمجه سردياً شهرزاد وشهريار. ونخلص من كل هذا، إلى تأثير مظهر آخر في البنية السردية للخرافة ألا وهو: تعدد واضح، في فتتي المروي له والمروي، يقابله بقاء الراوي مفرداً ويتجلى هذا المظهر أيضاً في «حكاية إسماعيل بن الخصب مع جميلة بنت أبي الليث عامل البصرة»<sup>(2)</sup>.

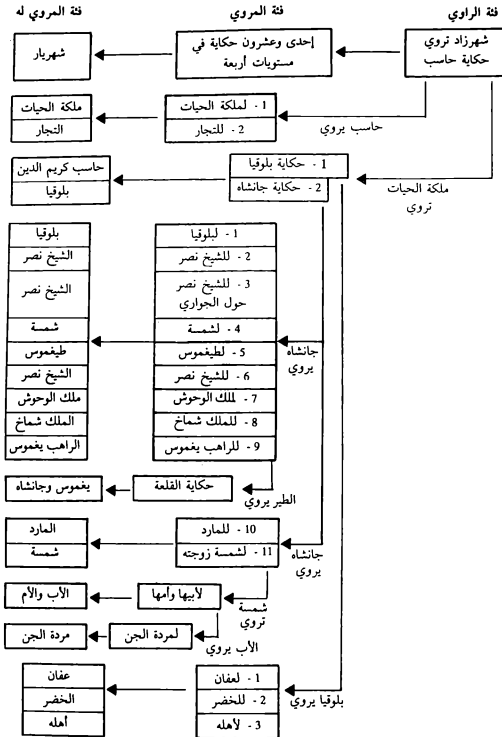
إلى جانب هذين المظهرين، ثمة مظهر ثالث، استأثر بالقسم الأعظم من الحكايات الخرافية في «الف ليلة» و«مائة ليلة» و«الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة»، ويمكن تبعاً لذلك عدّه المظهر المهيمن في البنية السردية للحكاية الخرافية، وهو تعدد في الرواة والمروي والمروي له، والتعدد في الفئات المذكورة، يتفق وما أشرنا إليه من أن الخرافة نسيج روايات أكثر مما هي تكوين أفعال وأنها تنطوي على قابلية غير محدودة لتقبل أية رواية كانت في إطارها ولتقف، للتمثيل على هذا المظهر إزاء حكاية، «حاسب كريم الدين»<sup>(3)</sup> التي تقدم أبرز الأمثلة على هذا المظهر، كما أن تداخل مكونات البنية السردية فيها يبلغ فيما نرى - أعقد أشكاله في جميع المتون الخرافية التي اشتغلنا عليها. ويحسن أولاً أن نصنع ترسيمة خاصة بمكونات البنية السردية للحكاية، وتراكم مستوياتها.

(1) الف ليلة 3: 139.

(2) الف ليلة 4: 360.

(3) م. ن. 32: 3.

ترسيمة لنموذج تعدد الراوي والمروي له



تكشف حكاية «حاسب كريم الدين»، كما يتجلى ذلك من الترسمة الخاصة بها، عن وجود سبعة رواة دون مستوى رواية شهرزاد وهم: حاسب كريم الدين وملكة الحيات «يمليخا» وبلوقيا وجانشاه والطيور الأسود والجنّة شمسة وأخيراً الملك شهلان، الذي هو أب للجنّة شمسة زوجة جانشاه، وهؤلاء جميعاً يقومون بإرسال إحدى وعشرين حكاية إلى واحد وعشرين مروياً له، لا يتكرر منهم أكثر من مرة، سوى بلوقيا والشيخ نصر، وفي الوقت نفسه، تكشف الحكاية، أن فئة المروي تورد أربعة مستويات من السرد، أولهما: خاص برواية حاسب كريم الدين وملكة الحيات وفيه أربع حكايات. وثانيهما: خاص برواية بلوقيا وجانشاه، وفيه أربع عشرة حكاية. وثالثهما: خاص برواية الطيور الأسود والجنّة شمسة وفيه حكايتان. ورابعهما: خاص برواية الملك شهلان وفيه حكاية واحدة. وكل ذلك ضمن حكاية حاسب كريم الدين التي ترويها شهرزاد لشهریار. وتكشف الحكاية أيضاً، أنّ «شهرزاد» تتلقى الرواية عن راويين، هما: حاسب كريم الدين وملكة الحيات «يمليخا»، ولكنها لا تظهر بمظهر المروي له، وأن حاسباً كريم الدين يغيب بوصفه راوياً، بعد أن يروي حكايته لملكة الحيات، ويتحول إلى مروي له، حينما تبدأ ملكة الحيات تروي عن بلوقيا وجانشاه، ولا يظهر بوصفه راوياً إلا في نهاية الحكاية، حينما يروي للتجار الذين ادّعوا أن الذئب أكله، وكانوا قد ألقوه في بئر العسل، جميع ما جرى له، ابتداءً من خروجه من بئر العسل، ولقائه ملكة الحيات، واستماعه إلى حكاياتها العجيبة والكثيرة عن بلوقيا وجانشاه، ولقائهما الطويل بين القبرين، حيث يروي جانشاه لبلوقيا حكايته، مروراً بتعرفه إلى الشيخ نصر، ولقائه الجنّة شمسة، وصولاً إلى العودة إلى أهله، وهروب زوجته ببذلة الريش، والنجاح في الوصول إلى قلعة «جوهر نكبي» حيث تقيم مع أبيها الملك شهلان، ثم زواجه منها وعودته إلى مملكة أبيه في بلاد كابل. ولا تقتصر الحكاية على هذا التنوع في توالد الحكايات، وإنما يتحول فيها الراوي إلى مروي له، ويتضح هذا الازدواج في الوظيفة داخل البنية السردية، عندما تكون ملكة الحيات راوية لحكايتي بلوقيا وجانشاه، ويكون حاسب كريم الدين مروياً له، وتكون هي مروياً له حينما يتكفل حاسب كريم الدين برواية حكايته. والأمر نفسه يكون حينما تزودج وظيفة حاسب كريم الدين إذ يكون في خانمة الحكاية راوياً للتجار وأهله، فيما كان مروياً له في جميع الحكايات التي قدمتها ملكة الحيات. وتكرر الحالة مرة ثالثة حينما يكون بلوقيا مروياً له أمام جانشاه، وراوياً أمام عفان والخضر وأهله. وهذا التداخل في مستويات الرواية، واستبدال مواقع فئات الراوي والمروي له، داخل البنية السردية للحكاية الخرافية، هو مظهر ثابت من مظاهرها الفنية ويكاد يهيمن تماماً على الحكايات الرئيسية في ذخائر الخرافة العربية، كما يتجلى ذلك في حكاية «ورد خان بن



الملك جلجلاء<sup>(1)</sup> وحكاية «الخياط والأحدب واليهودي والمباشر النصراني فيما وقع بينهم»<sup>(2)</sup> وحكاية «التاجر أيوب وابنه غانم وبنته فتنة»<sup>(3)</sup> وحكاية «حسن الصائغ البصري»<sup>(4)</sup> وحكاية «الحمال مع البنات»<sup>(5)</sup> وحكاية «قمر الزمان بن الملك شهرمان»<sup>(6)</sup> وحكاية «عروس العرايس»<sup>(7)</sup> وحكاية «غريبة الحسن مع الفتى المصري»<sup>(8)</sup> وغيرها كثير. ولما كنا نهدف إلى كشف مستويات عمل الراوي والمروي له، يتوجب علينا الآن استبدال علاقات التابع العمودية التي تربط الرواة والمروي لهم بعضهم ببعض بعلاقات تابع أفقية، كما وردت في الترسمة الخاصة بحكاية «حاسب كريم الدين» (راجع ص. . .) لتكشف تلك المستويات بصورة أكثر وضوحاً، على وفق درجات الرواية ودرجات المروي له.

(راجع الجدول على الصفحة 106).

تكشف المظاهر الثلاثة لتنوع علاقات الراوي بالمروي له، عن أمر آخر غاية في الأهمية، وهو علاقة الراوي بالمروي، وبعبارة أخرى علاقة الراوي بالفعل الحكائي الذي يرويهِ، فإذا عدنا إلى الحكايات التي كشفت عن تلك المظاهر، وهي «التاجر والعفريت» و«السندباد البحري» و«حاسب كريم الدين» ونظرنا إلى مكونات البنية السردية من زاوية العلاقة بين الراوي والمروي، نجد أنّ تلك الحكايات تنطوي على ثوابت تصنف على وفق نمطين من العلاقات، أولهما: عدم وجود علاقة بين الراوي والفعل الذي يشكل متن الحكاية ومثاله الأكثر دلالة علاقة «شهرزاد» بما تروي، فالعلاقة التي تربطها بالحكايات المذكورة تتحدد في إطار الفعالية الإخبارية التي تنهض بمهمة بناء الحكاية روايةً، وشهرزاد تبعاً لذلك غريبة عن تشكل الأحداث، كما حصلت، فهي إنما تروي ما بلغها للملك السعيد

(1) ألف ليلة 4: 219.

(2) م. ن 1: 138 ووردت في كتاب «ألف ليلة وليلة من أصوله العربية الأولى» بعنوان «قصة الأحدب صاحب ملك الصين» ص 225 ووردت في كتاب «الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة» بعنوان «حديث الستة نفر» ص 45.

(3) ألف ليلة 1: 231.

(4) م. ن 3: 487.

(5) م. ن 1: 52 ووردت في «ألف ليلة وليلة من أصوله العربية الأولى» بعنوان «قصة الحمال والصبايا الثلاث» 126.

(6) م. ن 2: 109 ووردت في «ألف ليلة وليلة من أصوله العربية الأولى» بعنوان «قصة قمر الزمان وولديه الأمد والاسعد» ص 533.

(7) الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة 147.

(8) مائة ليلة 197.

مستويات الرواية له		مستويات الرواية	
درجته	الرواية له	درجته	الراوي
درجة أولى	1 - شهریار	درجة أولى	1 - شهرزاد تروي حكاية حاسب كريم الدين
درجة ثانية	2 - ملكة الحيات	درجة ثانية	2 - حاسب كريم الدين يروي حكاية
درجة ثالثة	3 - حاسب كريم الدين	درجة ثالثة	3 - ملكة الحيات تروي حكاية بلوقيا وجانشاه
درجة رابعة	4 - الخضر وعفان	درجة رابعة	4 - بلوقيا يروي حكاية
درجة خامسة	5 - بلوقيا والشيخ نصر وآخرون	درجة خامسة	5 - جانشاه يروي حكاية
درجة سادسة	6 - الملك شهلان	درجة سادسة	6 - شمس تروي حكايتها
درجة سابعة	7 - جانشاه والراهب يغموس	درجة سابعة	7 - الطير يروي حكاية الفلعة
درجة ثامنة	8 - مرده الجن	درجة ثامنة	8 - الملك شهلان يروي حكاية شمس

«شهریار». ولهذا فهي تندرج ضمن خصائص الراوي المفارق لمرويّه. كونها تتلقى الرواية عن راوٍ آخر. وتلحق بشهرزاد أيضاً هنا، «ملكة الحيات» في حكاية «حاسب كريم الدين»، فهي تأخذ عن بلوقيا وجانشاه وتعطي إلى شهرزاد. وثانيتها: وجود علاقة مباشرة بين الراوي وما يروي، وذلك أنّ الراوي في هذا النمط من العلاقة إنما هو شاهد على الفعل الفصصيّ ومشارك فيه ومثاله «الشيخ الثلاثة» في حكاية «التاجر والعفريت». و«السندباد» في «حكاية «السندباد البحري» و«جانشاه» في حكاية «حاسب كريم الدين». فجميع هؤلاء الرواة لا مصادر لهم يأخذون عنها رواياتهم، إنما يروون في حقيقة الأمر، ما جرى لهم فهم على نحو أو آخر، جوهر الفعل الحكائي والبؤر التي يتمركز حولها ذلك الفعل، ويفضي ذلك إلى التأكيد أنهم كانوا يروون ما جرى لهم، فهم تبعاً لذلك يندرجون ضمن خصائص الراوي المتماهي بمرويّه، لغيب المسافة بينهم وبين ما جرى لهم، وإن كان زمن الحكاية أكثر إغراقاً في الماضي من زمن الرواية. ومثال ذلك السندباد البحري الذي يستحضر حكاياته بعد وقوعها، مما يوهم بأنه يندرج ضمن فئة الراوي المفارق لمرويّه لكنّ تحديد الفئات يخضع لعلاقة الراوي بالمروي، وليس للفواصل الزمنية بينهما.

لقد ترتب على وجود هذين النمطين من العلاقات بين الراوي والمروي، ظهور صيغ خاصة للقول، ففيما يعتمد الراوي المفارق لمرويّه على صيغة إسناد الرواية ورفعها إلى

مصدرها، عبر سلسلة رواة، شأن الرواة في فن الخبر، فإن الراوي المتماهي بمرويّه يباشر الرواية بنفسه، ومن خلال منظوره الخاص لما جرى له. وغني عن القول إن ذلك أدى إلى ظهور أسلوب السرد الموضوعي والذاتي في الحكاية الخرافية، كنتيجة مباشرة لنمط العلاقة بين الراوي والمروي.

ومثلما وقفنا على علاقات الراوي بالمروي ينبغي الآن أن نفق على علاقات المروي له بالمروي.

لقد أشار برنس في بحثه «مقدمة في دراسة المروي له» إلى أهمية المروي له فقال: «ولا يتحقق أي سرد في غياب المروي له»<sup>11</sup> «وفصل القول فيما وصل إليه، مؤكداً أن «الف ليلة وليلة» - «تقدم مثلاً رائعاً للمروي له، إذ إنه يتعين على شهرزاد أن توظف موهبتها بوصفها راوية حكايات. وإلا فمصيرها الموت، وشيئاً فشيئاً تغلح بأن تجعل قصصها تستأثر باهتمام الخليفة (= شهريار) ولهذا تتخلص من القتل، وواضح أن مصيرها ومصير السرد أيضاً، يعتمدان ليس على مهارتها، بوصفها راوية قصص، إنما أيضاً على مزاج المروي له. فإذا انتاب الخليفة (= شهريار) تعب، أو علق استماعه لما تحكي، فإن شهرزاد ستموت، وسيتهي السرد»<sup>12</sup>. صحيح أن برنس يتطرق من فرض وليس واقعة، والفرض يفقد جدواه بسبب الوجود الحقيقي للأثر الخرافي الموسوم «الف ليلة وليلة»، ولكنه، من أجل إضفاء أهمية على وظيفة المروي له ودوره في «الف ليلة وليلة»، طرح افتراضه، الذي يحيل على أهمية هذا المكون من مكونات البنية السردية، ولما كانت علاقة النطق والاستماع بين شهرزاد وشهريار هي التي تؤطر جميع الخرافات التي تضمنها ذلك السفر، وعلى غرارته يقوم بـ «مئة ليلة وليلة» باختلاف في اسم المروي له وليس وظيفته، فإن إشارة برنس تصلح مدخلاً لفحص علاقة المروي له بالمروي.

لو نظرنا إلى الحكايات الثلاث المذكورة من زاوية علاقة المروي له بالمروي بعد أن وقفنا على العلاقات الأخرى فيها، نجد أن المروي له أيضاً يخضع لعلاقات ثابتة مع المروي، فلا يمكن على سبيل المثال أن يكون «شهريار» في نفس درجة «السندباد البحري» أو «العفريت»، كما أن هذين لا يمكن أن يتساويا في الرتبة مع «تجار الإلماس» و«الملك المهرجان» و«صاحب المركب» في حكاية «السندباد البحري» والشيخ نصر وطيغموس وملك الحوش والراهب يغموس والمردة في حكاية «حاسب كريم الدين». صحيح إن وظيفتهم

---

Reader - Response Criticism, P.22.

(1)

Reader - response Criticism, P.8.

(2)

هي تلقي ما يروى لهم، لكن مستويات العلاقة، فيما بينهم من جهة، وفيما بينهم وبين ما يروى متعددة ومختلفة، فالعلاقة معدومة بين «شهریار» و«العفريت»، أو بينه وبين «السندباد البحري» أو «ملكة الحيات» أو «جانشاه»، لأنه يحتل مستوى أعلى في موقع المروي له، ولا يعرف شيئاً عن المروي لهم المذكورين إلا من خلال شهرزاد، فهو يجهل المستويات التي دونه من المروي لهم، وهم بطبيعة الحال يجهلون، وهو عكس حالة العلاقة بين الرواة، لأن علاقة الإسناد تجعلهم يتلقون عن بعضهم. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن طبقات المروي لهم، تتباعد عن المروي كلما تعددت الرواية، فالرجال من التجار وأصحاب المراكب أقرب إلى ما يروي السندباد البحري من السندباد البري، الذي التقى الأول، فحدثه بما جرى له، كما أن السندباد البري أقرب نسبياً إلى ما رواه السندباد البحري من شهریار. ولو اعتبرنا ما يروي «جانشاه» في حكاية «حاسب كريم الدين» هو لب تلك الحكاية على سبيل الافتراض، فأقرب مروي له لذلك اللب هم: الشيخ نصر والجنبة شمسة والملك شهلان وملك الوحوش شاه بدري والمردة والراهب يغموس والملك شماخ لأن بعضهم عاصر ما حدث لـ «جانشاه» أو كان في زمن حدوثه موجوداً، لأنه سهل وصول «جانشاه» إلى قلعة «جوهر تكي» وتلي هذه الطبقة، طبقة يحتلها «بلوقيا» لأن «جانشاه» يروي له كل تلك الحكايات بعد أن انتهت وماتت زوجته الجنبة شمسة، وتلي هذه الطبقة من المروي له، طبقة ثالثة أكثر بعداً ويمثلها حاسب كريم الدين الذي يستمع إلى ملكة الحيات وهي تروي له حكاية جانشاه وبلوقيا معاً، بما فيها بطبيعة الأمر، كل ما جرى لـ «جانشاه». وتلي هذه الطبقة، طبقة رابعة، يمثلها شهریار الذي يستمع إلى شهرزاد وهي تحدثه بكل ما جرى للجميع ولهذا، فهو الأبعد في مستوى العلاقة التي تربطه بحكاية «جانشاه» بوصفها لب حكاية «حاسب كريم الدين».

نخلص بعد أن وقفنا على العلاقات بين مكونات البنية السردية في الحكاية الخرافية إلى وجود علاقات تتابع تحكم الرواة فيما بينهم والحكايات فيما بينها والمروي لهم فيما بينهم، وأن هذه العلاقات تنسع كلما تعددت الروايات ابتداء من الفعل الذي يشكل «لب الخرافة» وصولاً إلى آخر رواية تنتظمها، وكل هذا مد الحكاية الخرافية بالتنوع وتداخل المستويات، والتوالد المستمر الذي يخضب الخرافة بمزيد من الحكايات الثانوية، فإلى الحكاية التي هي مادة الإرسال السردية بين الراوي والمروي له في البنية السردية، سيتجه البحث في الفقرة المقبلة.

### 3 - بنية المروي الخرافي:

تشكل الحكاية من الفعل الذي تنهض به الشخصيات داخل البنية السردية للخطاب.

في حين تشكل الرواية من القول المخبر عن ذلك الفعل . فالرواية فعل كلامي لاحق للحكاية زمنياً، ويترتب على هذا، ظهور مستويين زمنيين يوظران مكوني الرواية والحكاية، أولهما أبعد في الوقوع وهو زمن حصول الفعل الحكائي، وثانيهما أقرب في الوقوع، وهو زمن حصول الفعل الكلامي .

إن الحكاية الخرافية بوصفها نوعاً قصصياً، تخضع لنسق التشكيل المذكور، ولكن خصائص النوع الخرافي تضيف إليها ميزات خاصة بها، وتفتقر تلك الميزات بطرائق تشكل الحكاية، فكيف يتم ذلك؟

إن مما يميز الحكاية الخرافية، أنها تتكون من رواية أفعال، أكثر مما تتكون من أفعال، فالفعل الذي يعرض للخرم في أجزاء عديدة منه، كلما ظهرت شخصية جديدة، من الضعف، بحيث يبدو أنه قابل للخرق، بل والقطع، في أحوال كثيرة. وهو ما أفضى إلى التكرار، وهو تكرار رواية الفعل وليس الفعل نفسه. ويندرج ضمن الضرب الثالث من ضروب التواتر<sup>(1)</sup> التي حدد، جيرار جنيت أربعة منها وهي:

- أن يروي مرة ما حدث مرة.
- أن يروي أكثر من مرة ما حدث أكثر من مرة.
- أن يروي أكثر من مرة ما حدث مرة.
- أن يروي مرة ما حدث أكثر من مرة<sup>(2)</sup>.

ويقترن تكرار رواية الفعل بالراوي المتماهي بمرويه، لأنه الشخصية التي يعزى إليها الفعل. ولا يقترن بالراوي المفارق لمرويه لأنه لا يعنى بوصفه راوياً، إلا بأمر الإخبار عن الفعل، وللاستعاضة برواية ما فعلته الشخصية، عن إعادة الفعل، ذاته، وهو ما يعد أمراً مستحيلاً سردياً، وتستعين الشخصية غالباً بفقرة قصيرة معبرة، أصبحت علامة ثابتة في الحكاية الخرافية وهي «فأخبره بجميع ما جرى له من الأول إلى الآخر» وتتغير صيغة التعبير في حالة التأنيث والإفراد والجمع طبقاً لجنس المروي له وعده، وقد يستبدل الفعل «أخبر» بـ «حكى» أو «حدث» أو «قص».

نصلح على صيغة تكرار رواية الفعل هذه، بـ «الإضمار» إذ يضمّر الفعل الحكائي ويستعان بالتعبير عنه بجملة، تجنباً لروايته بالتفصيل الذي حدث فيه، ولكن جملة

---

(1) التواتر هو «مجموع علاقات التكرار بين النص والحكاية «سمير المرزوقي وجميل شاكور، مدخل إلى نظرية القصة، تونس، 86، وهو من المصطلحات اللسانية التي تبحث في تواتر الكلمات في النصوص للتفصيل يراجع

dictionary of language and linguistics P.89.

Narrative Discourse, P.114-116.

(2)

الإضمار، تنطوي على وظيفة مزدوجة في البنية السردية، فهي تنجز وظيفة إخبارية كاملة، إذا ما كان المرءي له قد التقى الشخصية صاحبة الفعل أول مرة، أي أن الشخصية تروي كل ما جرى لها، ولكن الراوي المفارق لمرويه، لا ينقل ذلك عن الشخصية، باعتبار أن المرءي له الموازي لذلك الراوي قد عرف كل ما جرى للشخصية، أما المرءي له الموازي للشخصية صاحبة الفعل الذي يلتقي تلك الشخصية أول مرة، فهو لا يعلم شيئاً على الإطلاق عما حصل لمحدثه. ولهذا، فإن الحكاية تتجلى عبر مظهرين، إما أنها تتشكل بحيث يطلع المرءي له (= المتلقي أيضاً) عليها، فإذا جاءت جملة الإضمار، لحظة ظهور شخصية جديدة، فإن المرءي له يعرف تفصيل ما تدل عليه تلك الجملة، ولكن الشخصية لا بد من أن تكون قد أدت كل ما كان قد تشكل من الحكاية، أو أن الحكاية تتشكل بواسطة الرواية الشخصية لها، لأول شخصية تحدثها عنها، وبذلك يعلم المرءي له (= والمتلقي أيضاً) بالحكاية، فلما تظهر شخصية ثانية، وهو ما يستدعي أن تقوم الشخصية برواية ما حدث لها، فإن المرءي له يكون عارفاً بما جرى، في حين تجهل الشخصية الجديدة ما جرى، وهنا فإن الجملة الإضمار تعني أن الشخصية ستقوم برواية كل ما جرى لها، ولكن الراوي المفارق لمرويه لا يورد ذلك، لأنه قد أصبح معروفاً إثر روايته أول مرة. ففي حكاية «حاسب كريم الدين» يقوم «جانشاه» برواية ما جرى له إحدى عشرة مرة، لمرءي لهم ذكرناهم في فقه المرءي له، وباستثناء روايته لـ «بلوقيا»، فإن جميع الحكايات المروية الأخرى المنسوبة له، تقدم بواسطة جملة الإضمار، لأن طبقات المرءي له ما فوق «بلوقيا»، مثل «ملكة الحيات» و«حاسب كريم» و«شهریار» قد عرفت الحكاية، فلا يمكن إعادة روايتها ثانية، لكن «جانشاه» مضطر لرواية حكاية حيشما التقى أياً من تلك الشخصيات في رحلته للفوز بالجنية «شمسة». ويرتب كل هذا أمراً أساسياً في الحكاية الخرافية، وهو أن جملة الإضمار تحيل على حكاية متكاملة، قد قامت الشخصية صاحبة الفعل بروايتها مفصلاً، وإن كان المرءي له يتجنب إيرادها منعاً للتكرار. فجملة الإضمار نفسها تكفي للإشارة إلى ما جرى كونه معروفاً للراوي المفارق لمرويه، والمرءي له الذي يوازيه، وتبدأ كل حكاية بعد ذلك، توردها جملة الإضمار، تندرج في سياق الخرافة بصورة طبيعية وتروي دون اللجوء لروايتها تفصيلاً. وهكذا يتضاعف عدد الحكايات المتولدة في إطار الحكاية الكبرى. وللتمثيل على طرائق تولد الحكايات الثانوية نقف على نموذج يكشف لنا تلك الآلية المتميزة في تفرغ الحكايات تبعاً للروايات وظهور الشخصيات الجديدة في سياق الحكاية الكبرى، والنموذج هو حكاية «أسن الوجود مع محبوبته الورد في الأكمام»<sup>1</sup> وينبغي لنا، أولاً،

(1) ألف ليلة وليلة 2: 431.

أن نضع ترسيمة تمثل نسق تولد الحكايات فيها .



تكشف الترسيم الإيضاحية، أنّ هذه الحكاية، تقدم مثلاً واضحاً للمناقلة بين الرواة للفعل الحكائي نفسه، ولكن بإعادة عرضه، بأسلوب الإضمار كلما اقتضى الأمر، مما يفضي إلى مزيد من تكرار رواية الفعل . كما أنّ الحكاية تنطوي ضمناً على مثال واضح أيضاً على نسق العلاقة التي تحكم مكونات البنية السردية في الحكاية الخرافية، سواء في طرائق تراكب الرواة وطبقاتهم، أم في تتابع الحكايات وتعاقب أدوار المروي لهم وتبادل وظائفهم ومواقعهم، وهو ما كنا قد أشرنا إليه في الفقرة السابقة .

إن تركيب حكاية «أنس الوجود مع محبوبته الورد في الأكام»، غاية في البساطة، مقارنة بحكايات «حاسب كريم الدين» و«السندباد البحري» و«التاجر والعفريت». وهي تتحدث عن عاشقين، فرق بينهما بالإكراه، فبدأ كل منهما، يبحث عن الآخر، إلى أن شامت الأقدار والصدف - وهما عنصران التحكم في مصائر الشخصيات الخرافية - أن يجتمع شملها، وأن يتزوجا. لكن هذا التركيب، الذي يبدو بسيطاً أول وهلة، ما هو سوى مظهر خادع، يمؤه البنية المركبة للحكاية. ففيما يقوم إبراهيم وزير الملك شامخ، بإبعاد ابنته «الورد في الأكام» إلى «جبل التكلي» وسط «بحر الكنوز»، لعشقها «أنس الوجود»، تتاب الأخير حيرة وخذلان، لاختفاء حبيبته المفاجيء والغامض، فيقرر مغادرة قصر أبيها، والبحث عنها، دون أن يكون لديه دليل يرشده إلى مكانها إلى أن يفضي به البحث، إلى أسد، يرشده إلى مغارة عابد، يروي له على سبيل الإضمار، ما جرى له، بالصورة الآتية ودخل الباب، وسلم على العابد، وقال له: ما اسمك؟ قال: اسمي أنس الوجود، فقال له: ما سبب مجيئك إلى هذا المكان؟ فقص عليه قصته من أولها إلى آخرها، وأخبره بجميع ما جرى له<sup>11</sup>، وهنا، يبدأ أول تكرار في الحكاية، ذلك أن الراوي قد جهّز المروي له، بالقسم الأول من الحكاية، لكنه لا يورده هنا، تجنباً للتكرار، أما البطل الذي أصبح راوياً، فقد روى للعابد، الذي أصبح هنا مروياً له، حكايته، ابتداء من تعرفه إلى «الورد في الأكام» إلى خروجه بحثاً عنها. وحالما ينتهي من ذلك، يخبره العابد، بأن مركباً أبحر من الشاطيء، ويُلَمَع إلى أن حبيبته قد تكون فيه، مما يقوي عزم «أنس الوجود» في المضى بحثاً عن «الورد في الأكام» في الاتجاه الذي مضى إليه المركب، ويصل إلى القصر الذي تحتجز فيه «الورده»، دون أن يعلم أنها تعيش فيه، ويضلل خادم القصر، بأن يخلق له حكاية، تقنع أنه تاجر كبير، حطم مركباً على صخور الشاطيء، فيما يروي الخادم له، حكاية أصوله الأصهبانية، وأسرته وبيعه وقطع إحليله. وهنا تلتصق بسياق الحكاية الأصلية، حكايتان غريبتان عنها، وحالما يأنس الخادم به يخبره بحكاية «الورد في الأكام» دون أن يعلم أنها حكاية جليسه - وهو تكرار ثانٍ للحكاية - ولما كانت «الورده» تعمل على التخلص من احتجازها في القصر، فإنها تفلح في الهروب منه، دون أن يقيض لها أن تعلم بوجود «أنس الورد» فيه، فيعثر عليها صياد، يتجه بها إلى مملكة الملك «درباس» فتروي له حكايتها - وهو تكرار ثالث - وما أن تصل بلاط الملك. حتى تروي له حكايتها أيضاً - وهو تكرار رابع - فيقرر الملك درباص أن يوصلها بحبيبتها، بحيلة يخلقها، فيرسل وزيره إلى الملك شامخ، يعلم أنه يرغب أن يزوج ابنته، بأحد تابعيه ويدعى «أنس الوجود» - ، ولكن

(1) الف ليلة 2:440.



الأخير يخبره بأن تابعه المذكور، قد اختفى منذ عام، ولما كان الملك درباس قد هدد وزيره، بعزله إن هو لم يعد برفقة «أنس الوجود»، لم يكن أمام الملك شامخ، إلا أن يأمر وزيره إبراهيم، والد «الورد» بمرافقة ذلك الوزير، بحثاً عن «أنس». وفي طريقهما، يمران بـ «جبل النكلي» فيروي الوزير إبراهيم حكاية الجبل لمرافقه - وهي حكاية ثالثة تندرج في سياق الحكاية الأصلية - وما إن يصلا القصر الذي أبعثت فيه «الورد» حتى يخبرهما الخادم إنها اختفت منه، إلى جهة مجهولة، ويخبرهما أيضاً بحكاية التاجر الذي حطم مركبه - وهو تكرار ثانٍ لحكاية أنس التي اختلقها للخادم - ويقران، إثر فشلها في العثور على «أنس» العودة، كل إلى مملكته، ولما كان العشق قد أضنى ذلك التاجر، الذي هو «أنس» إلى حدٍ بدا فيه مجذوباً، وهو يقيم في القصر دون جدوى، فإن وزير الملك درباس يصطحبه معه، دون علم منه إنه عثر على بعيته. ويخبره في الطريق، أن ملكه، هدده بالعزل، إن عاد دون «أنس»، ويخبره بخبره - وهو تكرار خامس - فيتعهد «أنس» له، بأن لا يعزله الملك، إن هو أوصله به، وحالما يلتقي الملك، يروي له ما جرى له - وهو تكرار سادس - وحالما يتأكد الملك، أن محدثه هو «أنس» وقد تخفى بزي تاجر، غرق مركبه، حتى يروي له، ما جرى لـ «الورد» التي هي حكاية «أنس» نفسها - وهو تكرار سابع - ثم يأمر بتزويجهما، ويبعث رسولاً إلى الملك شامخ، يخبره بحكايتهما - وهو تكرار ثامن -، ويعود «أنس» و«الورد» إلى مملكتهما، وقد أصبحا زوجين، وتحقق حلمهما بأن يكونا معاً.

إذا وقفنا على درجات التكرار في بنية الحكاية، نلاحظ أمرين، أولهما: تعدد مستويات التكرار، وثانيهما أن مصدر التكرار يرتبط بشخص الحكاية الرئيسيين مثل «أنس» و«الورد»، والثانويين كالملك درباس ووزيره والخادم. ويفضي تعدد مستويات الرواية، إلى تغير في وظائف مكونات البنية السردية للحكاية، فالإبطلال سرعان ما تتغير وظائفهم من كونهم بؤراً للحكاية، إلى رواة لها، ثم إلى مروي لهم، يتلقون حكايتهما نفسها، والمروي له، سرعان ما يصبح راوياً، شأن الملك درباس أو الخادم.

لا يكتبني تركيب هذه الحكاية، بأن يقدم مثلاً للتكرار الذي هو من أخص سمات الحكاية الخرافية، بل إنه، يقدم مثلاً، لاحتواء هذا النوع، على حكايات دخيلة، تندرج في سياقات الحكاية الأصلية، مثل حكاية الخادم الأصهباني، وحكاية جبل النكلي، والحكاية المختلفة لأنس الوجود. صحيح أن الحكاية تتمركز حول عاشقين، فرق بينهما بالإكراه، مما يدل على أن الحدث وقع مرة واحدة، لكن درجات رواية الحدث، بلغت ثمانين، كل رواية منها، ترتبط براوٍ، له موقع محدد في البنية السردية للحكاية.

إن حكاية «أنس الوجود» مع محبوبته الورد في الأكمام»، كشفت لنا عن أحد مظاهر

الحكاية الخرافية، وهي نموذج شائع لهذا النوع القصصي، أما لو وقفنا على نماذج معقدة التركيب مثل حكاية «حاسب كريم الدين» أو حكاية «وردخان بن الملك جلعاد» أو حكاية «الخياط والأحدب واليهودي والمباشر النصراني فيما وقع بينهم» أو حكاية «الحمال مع البنات» - على سبيل المثال وليس الحصر - لتبين ليس تعقيد الحكاية الأصلية حسب، بل تعدد الحكايات التي تتضمنها وتفرعاتها إلى حكايات آخر، فضلاً عن درجات التكرار الكثيرة التي تعاد فيه رواية، ليس الحكاية الأصلية فقط، إنما الحكايات الموجودة فيها أيضاً، ولقد ألمحنا إلى ذلك عرضاً في أثناء الوقوف على مكونات البنية السردية لبعض تلك الحكايات في الفقرة السابقة، وكشفت لنا ترسيمات بعضها عن تعدد الحكايات ومستويات الرواية فيها، مما يدل، دلالة واضحة على أنّ شجرة الحكاية الخرافية كثيرة الفروع وأنّ فروعها عديدة الأغصان.

ليس التكرار سوى مظهر واحد مما تتميز به الحكاية الخرافية، فإلى جانبه ثمة مظهر قار آخر هو «الاستباق» الذي يقصد به هنا، الإشارة إلى فعل لم يحدث بعد، ثم يصار فيما بعد إلى تحقيقه بوصفه جزءاً من الحكاية. ففي حكاية «أنس الوجود» مارة الذكر يرد «الاستباق» حول «جبل الثكلي» على النحو الآتي: «فلما فرغت من صلاتها» = أم الورد في الأكمام) قالت لزوجها في وسط بحر الكنوز جبلاً (كذا) يسمى جبل الثكلي وسبب تسميته بذلك سيأتي»<sup>(1)</sup> ويتحقق ذلك لاحقاً عندما يشترك الوزيران بالبحث عن «أنس الوجود» حيث يروي وزير الملك شامخ لوزير الملك درباس أمر تسمية الجبل وقصته بالصورة الآتية:

«فقال وزير الملك درباس لوزير الملك شامخ لأي شيء سمي هذا الجبل بذلك الاسم. فقال له لأنه نزلت به جنية في قديم الأزمان، وكانت تلك الجنية من جن الصين وقد أحببت إنساناً وقع له معها غرام، خافت على نفسها من أهلها، فلما زاد بها الغرام فتشت في الأرض على مكان تخفيه فيه عن أهلها، فوجدت هذا الجبل منقطعاً عن الأنس والجن، بحيث لا يهتدي إلى طريقه أحد من الأنس والجن، فاختطفته محبوبها ووضعت فيه وصارت تذهب إلى أهلها، وتأتيه في خفية، ولم تزل على ذلك زمناً طويلاً حتى ولدت منه في ذلك الجبل أطفالاً متعددة (كذا) وكان كل من يمر على هذا الجبل من التجار والمسافرين في البحر يسمع بكاء الأطفال بكاء المرأة التي تكثت أولادها، أي فقدتهم، فيقول هل هنا ثكلي. فتعجب وزير الملك درباس من هذا الكلام»<sup>(2)</sup>.

ويرد «الاستباق» في سياق الأحلام والوصايا والنبوءة، ومن أمثلة «الاستباق» البارزة في

(1) ألف ليلة 2:436.

(2) ألف ليلة 2:450.

الحكاية الخرافية، ما ورد في حكاية «جودر بن التاجر عمر وأخويه»، فبعد أن يفلح الساحر المغربي عبد الصمد في السيطرة على جودر، ويستغله لاستخراج كنز الشمردل، يصف له ما سيلقي في طريقه للوصول إلى الكنز، من فك الطلاسم التي تعترضه، ومواجهة الأخطار التي تهدده وهو يجتاز الأبواب السبعة في طريقه إلى الشمردل وكنزه، ولما يحين موعد المهمة، يبدأ جودر، يجتاز الأبواب، ويلاقي حاملي السيوف والفارس والقواس والأسد العظيم والعبد الأسود والتعابين ثم أمه إذ يوصيه الساحر المغربي أن لا يتردد عن تنفيذ طلبه بأن تنزع عنها ملابسها، وتتعري أمامه وحالما يتردد، يخل بشرط من الشروط الواردة في «الاستباق» فتفشل مهمته، ويعرض لضرب شديد من خدام الكنز من الجن، يدفع أثرها إلى خارج المكان، وتفشل مهمته في استخراج كنز الشمردل، لأنه أبطل بترده في الخطوة الأخيرة عمل السحر<sup>(1)</sup>. وفي حكاية «أحمد الدنف وحسن شومان مع الدليبة المحتالة وبتنها زينب النصابة» يؤدي تركيب الحكاية إلى الاستعانة بـ «الاستباق» عندما تندفع الوقائع فلا يكون أمام الراوي إلا التأكيد على أن بعض الوقائع سيصار إلى الحديث عنها في حينها مثل قوله عن إحدى الصبايا «ولها كلام يأتي بعد قدوم زوجها من السفر»<sup>(2)</sup> ويعود فعلاً لتفصيل حكاية الصبية، وجدير بالذكر أن هذه الحكاية يتكرر فيها «الاستباق» الذي يظهر في حكايات كثيرة مثل: «حكاية زواج الملك بدر باسم بن شهرمان بنت الملك السمندل»<sup>(3)</sup> و«حكاية «حسن الصانع البصري»<sup>(4)</sup> و«حكاية «علي نور الدين ومريم الزنارية»<sup>(5)</sup> و«حكاية «ورد خان بن الملك» جلعداد و«حكاية «عروس العرايس»<sup>(6)</sup> و«حكاية «الوزير وولده»<sup>(7)</sup>.

يزرع «الاستباق» أفق توقع، ويرصد ما سيحدث لاحقاً، وبذا فدوره في تركيب الحكاية ذو تأثير خاص، فما ألمح إليه بإيجاز، سيتحول لاحقاً إلى واقعة تندرج في الحكاية. وربما يبدؤ «الاستباق» حكاية جديدة. ويفضي الحديث عن الاستباق إلى الوقوف على مظهر أساسي آخر من مظاهر الحكاية الخرافية، ألا وهو أن الحكاية، تنتمي دائماً إلى الماضي، فالرواية تلحق بالحكاية ولا يمكن أن تتزامنا أو أن تسبق الرواية الحكاية، إلا فيما

(1) م. ن 3:306-308.

(2) م. ن 3:357 و 380.

(3) م. ن 4:447.

(4) م. ن 4:32 و 40 و 65.

(5) ألف ليلة 4:162.

(6) م. ن 4:219.

(7) الحكايات العجيبة 156.

(8) مائة ليلة 154.

ذكر من أمر «الاستباق» علماً أنّ «الاستباق» كونه جزءاً من الرواية، يقع ضمناً في الماضي، وتعليل ذلك، أنّ الحكاية الخرافية تستحضر بوساطة الرواية، وعبر سلسلة من الرواة، وهناك دائماً فاصل كبير بين زمان الحكاية ومكانها، وبين زمان الرواية ومكانها. وبالتأكيد، فإنّ زمان الأولى متقدم على زمان الثانية، كونها تروى بعد وقوعها، وللتدليل على ذلك نورد أمثلة على الفوارق الزمانية والمكانية لبعض الحكايات، مؤكدين أنّ زمن الحكاية حدد هنا طبقاً لمعطيات تاريخية وردت في الحكاية، وهذا لا يعني إقرارنا هنا، بأنّ الحكايات التي سنأتي على ذكرها، هي وقائع تاريخية، حدثت فعلاً في عصور محددة، ولكن بناء على ما ورد من إشارات إلى زمان وقوعها، كما أشار إلى ذلك رواها. فحكاية «الباهلي والراهب شمعون»<sup>(1)</sup> تقع أحداثها بين البصرة والصين في خلافة عثمان ولكنها تروى في دمشق في بلاط هشام بن عبد الملك، وبعض أجزاء حكاية «عبد الله بن فاضل عامل البصرة مع أخويه»<sup>(2)</sup> تقع في البصرة لكنها تروى لهارون الرشيد في قصره. وكذلك فإنّ بعضاً من أجزاء حكاية «ابن الخصب مع ابنه عامل البصرة»<sup>(3)</sup> تقع في البصرة ومصر، لكنها تروى لهارون الرشيد في بغداد، كذلك الأمر بالنسبة لحكاية «علي نور الدين ومريم الزنارية»<sup>(4)</sup> التي تحصل وقائعها في مصر وبلاد الإفرنج، لكنها تروى أيضاً لهارون الرشيد في قصره. فإذا خرجنا من التخصص إلى التعميم، فإنّ جلّ الحكايات الخرافية في «ألف ليلة وليلة» و«ماية ليلة وليلة» قد وقعت أحداثها في بغداد والبصرة وفارس ودمشق والهند والصين والأندلس ومصر في أزمان مختلفة، لكنها تروى في مكان وزمان محددين هما إما بلاط شهريار أو بلاط دارم، زمن حكمهما، وهما الملكان اللذان كانا من صنيع الخرافة وليس التاريخ، ووجدا لغاية فنيّة تهدف إلى تحديد إطار سردي لثنائية الراوي والمروي التي لا يتحقق أي سرد بدونها.

#### 4- الخرافة والبطل الخرافي:

يتصف البطل الخرافي، بأنه إما ينحدر من أصل نبيل أو تقوده سلسلة أفعاله البطولية للوصول إلى مرتبة عالية من النبل، والمهابة، وتمثل مرحلة الضياع والتشرد، التي يمر بها البطل الخرافي، حلقة ربط، توصله بمجد غابر، أو باعثاً لبلوغ مرحلة تتصف بذلك.

(1) الحكايات العجبية 368.

(2) ألف ليلة 4:435.

(3) ألف ليلة 4:360.

(4) م، د، 4:131.

وتغذي متون الخرافة العربية، هذا الوصف للبطل الخرافي، بشواهد كثيرة، تجعل منه، أمراً لصيقاً ببطل الخرافة.

إنّ الانتماء إلى أصول نبيلة، أو بلوغ مكانة سامية، صفة تلازم «شهریار» و«دارم» و«شهرزاد» ويتصف بها ابن الملك في حكاية «الملك والغزاة»<sup>(1)</sup>، و«الجبل المطلسم»<sup>(2)</sup> و«الأربعين جارية»<sup>(3)</sup> و«فرس الأبنوس»<sup>(4)</sup>. والوالي في حكاية «عبد الله بن فاضل والي البصرة»<sup>(5)</sup>، و«بدر باسم في حكاية «جلائر البحرية»<sup>(6)</sup>، و«سيف الملوك في حكاية «سيف الملوك وبديعة الجمال»<sup>(7)</sup>. ويتواتر الأمر في عدد يصعب حصره من الحكايات الخرافية.

يفتح الاستهلال السرد في الحكاية الخرافية، على مشاهد، تعنى بتربية الطفل، الذي سيكون فيما بعد بطلاً، ويصار إلى العناية بوصف اكتسابه معارف تتعلق بالفروسية والقتال أو العلم، ويطراً ما يجعله يرحل عن مملكته، بسبب ما، شأن شهریار الذي يكشف خيانة زوجته، أو رغبة البطل في زيارة مدينة أخرى كما في حكاية «الملك والغزاة»، أو الرغبة في معرفة سرّ ما كما في حكاية «فرس الأبنوس»، أو الأمل في العثور على امرأة جميلة سمع بها البطل كما في «جلائر البحرية» وحكاية «سيف الملوك وبديعة الجمال»، أو الهرب من جور وقع عليه، شأن البطل في حكاية «الجبل المطلسم» أو النفي الذي يتعرض له أحد أقرباء البطل كما في حكايات «الأربعين جارية»، أو بسبب التجارة، كما هو الحال في حكاية «عبد الله فاضل عامل البصرة». ويتبع هذا أن يقع البطل الخرافي بمأزق لا ينجو منه إلاّ بظهور مساعد يقدم العون له، إذ يواجه البطل في حكاية «الجبل المطلسم» صعوبات الإبحار وخطورة الصنم الموجود في الغار، لكنه يتغلب عليه حينما يقدم له ريان المركب، كتاباً عن آفات البحر، يتعلم إثر الاطلاع عليه، كيفية إبطال عمل الصنم الذي يعترض المارة بسيفه، ويواجه الفتى الشامي العفريت في جزائر الهند، ويطعنه دون أن يفلح العفريت في إلحاق أي أذى به لأنه يحمل خرزاً يحميه. ومرة ثانية يسهل له الملك وإحدى العجائز، والجارية المؤمنة أخت العفريت أمر قتله. كما يخرج بدر باسم إلى البحر للبحث عن جوهرة

(1) مائة ليلة 346.

(2) الحكايات العجيبة 247.

(3) م. ن 105.

(4) مائة ليلة 313.

(5) ألف ليلة 4:435.

(6) الحكايات العجيبة 122 وألف ليلة 3:401 وكتاب ألف ليلة من مصادره العربية 481.

(7) ألف ليلة 3:439.

ابنة السمندل في حكاية «جَلَنَار البحرية» ويكاد يقتل والد الفتاة التي يبحث عنها. وتفلح جوهره في أن تسحره إلى طير، لكنّ زوجة أحد الصيادين تفك السحر عنه، ولما تحاول الملكة «لاب» سحره ثانية، يخبره الشيخ الذي أواه بذلك، وأنها ساحرة خطيرة وعلى الرغم من ذلك فإنها تسحره لكنّ الشيخ - عبد الله الباقلائي - يساعد في حل طلسم السحر عنه. كما أنّ البطل في حكاية «الأربعين جارية» يظل جاهلاً بخطورة الأخت الكبرى، إلى أن يفتح باباً حذرته من دخوله، فيجد فرساً يكتشف أنها أخت الجارية الكبيرة، وقد سحرتها، وتقوم هذه الفرس - الجارية بإيصاله إلى مملكة أبيها. فيلأفي مصاعب في عبور النهر صوب المدينة ولا يقدر على ذلك إلا بمعونة الجارية المسحورة، ولا يفلح البطل في إنقاذ حبيبته في حكاية «فرس الأبنوس» بعد المخاطر التي واجهها إلا بمعونة «فرس الأبنوس». كما لا يتقد عبد الله بن فاضل والي البصرة من الغرق المحقق، إلاّ الحية التي خلصها من الثعبان الأسود إذ يكتشف أنها جارية مسحورة، وهي ابنة ملك الجان، وأنّ الثعبان الأسود ما هو إلاّ ابن الوزير الأسود وقد حاول الاعتداء عليها. وبعد أن ينجو البطل من حبال الشير الذي يمثل دور الخصم، يستقر في المكان الذي هوفيه، ويتزوج من المرأة التي ذهب من أجلها، أو ساعدته، أو خاطر بنفسه هناك من أجلها، كما هو شأن ابن الملك في حكاية «الجبل المطلسم» حيث يتزوج الملكة، ويأمر الجن يقتل المملوك والوزير، الذي خطط لتخريب مملكة أبيه، والأمر نفسه يظهر في حكاية «جَلَنَار البحرية» إذ يقتل بدر باسم الملكة «لاب»، بمساعدة أمه «جَلَنَار» ويتزوج «جوهره ابنة الملك السمندل» كما أنّ البطل في حكاية «الأربعين جارية»، يتزوج ابنة الملك الصغيرة «بدر الزمان» ويصبح ملكاً. ويقوم الفتى الشامي في حكاية «الملك والغزاة»، بعد قتل العفريت، بتحرير الأسيرات من الجوارح، ويتزوج ابنة الملك، ويقم في الجزيرة. ويتزوج ابن الملك في حكاية «فرس الأبنوس» معشوقته التي استطاع تخليصها من الملك، بوساطة «فرس الأبنوس» وينجح عامل البصرة في العثور ثانية على زوجته التي التقاها في مدينة الأصنام، التي قدر لها أن تكون زوجته طبقاً لنبوءة الخضر، وهي التي ألقاها في البحر أخواه اللذان مسخا كليين، وقد ظهرت بصورة الشيخة «راجحة»، بعد أن منحها الخضر، قدرة شفاء المرضى. ويختتم البطل الخرافي دورة حياته، بالعودة إلى مكان انطلاقه، وقد علا شأنه، وصار ملكاً، أو والياً، أو تاجراً كبيراً. ففي حكاية «جَلَنَار البحرية» يعود بدر باسم برفقة زوجته جوهره، وقد توج ملكاً بعد وفاة أبيه. وفي حكاية «الجبل المطلسم» يعود ابن الملك، محاطاً بالجن، ومعه الملكة زوجته، وقد أصبح هو الملك، وخلص المملكة من الأشرار. وفي حكاية «الأربعين جارية»، يتزوج ابن الملك، الفتاة المسحورة بصورة فرس، بعد أن تعود إلى طبيعتها البشرية، ويصبح ملكاً ويعود البطل في حكاية «فرس الأبنوس» برفقة زوجته، ويتوج ملكاً،

فيما يختار الفتى الشامي، بعد أن يمل المدينة، مرجاً أخضر يقيم فيه مع زوجته أخت العفريت، التي تتغير صورتها مرة إلى طاووس وأخرى إلى غزالة، ويصبح صديقاً للملك الذي دفعه الفضول لمعرفة سرّ زوجته الغزالة ويعود عبد الله بن فاضل عامل البصرة برفقة زوجته إلى ولاية البصرة، وقد استقر كل شيء له.

لقد وقفنا على الشخصية الخرافية من خلال فعلها، في محاولة لاستنباط منطق يحكم هذا الفعل دون العناية بمضمونه<sup>(1)</sup>، وينبغي الآن البحث في تلك الشخصية بوصفها عنصراً أساسياً من عناصر الحكاية الخرافية. وما يلاحظ ابتداء خضوع البطل الخرافي لمنطق مجهول يسيّره ويختار له أفعاله، ويوفر له مستلزمات النجاح في مهمته - وهو عكس بطل السيرة الشعبية الذي يتندب نفسه لإنجاز فعل ما، يعبر عن موقفه ورؤيته للعالم الذي يعيش فيه<sup>(2)</sup>.

إن البطل الخرافي يعيش حتماً متواصلاً، ولا يحس بالزمن الذي يترك أثره في الأشياء المحيطة به، فيرحل إلى أمكنة بعيدة، ويعيش في ممالك نائية، ويبحر في بحار مجهولة، ويسحر، وأو يسجن، ويحب ويتزوج، ثم يعود إلى مسقط رأسه كأن الزمن لم يؤثر فيه، سوى أنه رجع مكللاً بالغار، لمخاطر خاضها بمعونة مساعدين من الجن والإنس، يوفرون له سبل الخلاص، وإنهاء الخصوم دون أن يبذل من الجهد إلا أقله، ويبدو عامل القدر، متحكماً في حياة البطل ومصيره، بل إنه ينظم رحلة العودة التي يخوضها، ورحلة المجد التي يعود بها إلى مملكته أو أهله. وحيثما يصل مكاناً ما، يجد في انتظاره مساعداً متأهباً لتقديم العون له، للمضي في رحلته ويجد دائماً من يهبه ابنته وثروته، ويعمل على إعادته منتصراً إلى مملكته. إن صفات البطل الخرافي هذه قد طبعت الفعل المسند إليه، فهو فعل لا يتطور نتيجة لأسباب موضوعية فيه، تجعله يتنامى شأن الفعل في السيرة الشعبية مثلاً، إنما هو فعل يخضع للمصادفات التي تسير البطل، ولهذا فهو لا يفعل شيئاً، غير رواية «ما جرى له» كلما التقى أحداً، والمروي له، لا يفعل شيئاً سوى الاستماع إليه ورواية «ما جرى له» هو الآخر، وكل هذا جعل فعل البطل الذي يؤلف لبّ الحكاية الخرافية، فعلاً غير متماسك

---

(1) جدير بالذكر أنّ مياجير هاروت قد صنفت حكايات ألف ليلة وليلة طبقاً لأغراضها، وتوصلت إلى وجود حكايات حب وجريمة ورحلة وجن وتعلم وحكمة وتقوى، كما ورد في كتابها طبقاً للأغراض أيضاً وأن ص 369-115 وقامت أيضاً فريال غزول بمحاولة لنمذجة بعض الحكايات طبقاً للأغراض أيضاً وأن راعت الجوانب البلاغية فيها كما ورد في كتابها The Arabian Nights: Astructural Analysis ص 109-146.

(2) الفقرة (3) الفصل (2) الباب (3).

يتقبل أن يتدرج في سياقه أي فعل طارئ آخر. وعلى هذا النحو تلتحق الحكايات الثانوية بذلك الفعل وتشكل مظهراً أساسياً من مظهره. وكما هو الأمر في دورة حياة البطل الخرافي، من ولادة، إلى رحلة، إلى تعرض لمخاطر، إلى ظهور مساعد له، ونيل مبتغاه، ثم عودته إلى وطنه. فإن حكايته وصف لحياته، عبر دائرة مغلقة، تبدأ بالولادة وتنتهي بالموت، ولكنها تحتوي في تضاعفها كل ما هو غريب، وقد يتكفل البطل نفسه بروايتها أو رواية أجزاء منها، ويعدها كلما التقى شخصاً آخر، وقد تُعرض بالتدرج، موضوعياً، في سياق وصف غربة البطل وعودته. ولهذا فالمنطق الذي يحكمها هو المنطق نفسه الذي يحكم حياة البطل، بما فيه من هيمنة قوى خارجية عليه، تجعله يحقق هدفه دونما بذل جهد يذكر. فإذا بحثنا عن أسام قائمة بذاتها للحكاية الخرافية، نجدتها متوازية مع فعل البطل، سواء في وصف عائلته وولادته وشبابه، أم في عشقه، أو غربته، أو في مأزقه، أو عودته مكللاً بالمدح، ولما كانت الأسباب التي توجه فعل البطل، هي في الغالب خارجة عن إرادته، وتعرضه بعامل الصدفة، وتتدخل لصالحه، فإن الحكاية هي الأخرى تشتت تبعاً لذلك، دون أن تنمو فيها أسباب تعمل على تطويرها من الداخل وهذا ما يفسر لنا، على نحو واضح ودقيق، أسباب ثبات مكونات البنية السردية للحكاية الخرافية من راوٍ ومروي، ومروري له، لأن الحكاية ذاتها، ما هي إلا استبدال في مواقع هذه المكونات وأداء وظائف متعددة لكل مكون، وذلك أن تلك المكونات ببروزها الذي وصفناه من قبل، إنما تعمل على نسج كيان الحكاية الخرافية، ولكن ذلك، الاستبدال للمواقع والوظائف، يفضي دائماً إلى التكرار وتضمين ما هو غريب، حيثما جرى تغيير في موقع كل من الراوي والمروي له، وحيثما التقى البطل شخصية جديدة وكل هذا قاد إلى نتيجة أساسية، هي ميزة من ميزات الحكاية الخرافية، ألا وهي ضعف الفعل الذي يتشكل منه، وطغيان عنصر الإسناد والرواية وتوالد الحكايات الثانوية، بطرائق شبه متماثلة، وهو الأمر الذي أشار إليه بروب عندما أكد «أنّ الخرافة تسند غالباً أفعالاً متشابهة لشخصيات متباينة»<sup>(1)</sup>، ولكن ذلك التباين، لا يختلف في الأدوار إنما بالصفات.

## 5 - نسج البنية السردية:

يكشف الوقوف على مكونات البنية السردية للحكاية الخرافية، عن ميزة خاصة تميز العلاقة بين تلك المكونات، وهي علاقة لا تخضع لأسباب يغذيها التطور العضوي المتنامي للحكاية، إنما توجدها صيغة مناقلة الحكاية بين الراوي والمروي له، وهي صيغة شفاهية،

(1) مورفولوجية الخرافة 34.



لا تهدف إلى توفير أسباب موضوعية، تعمل على تطوير الحكاية الخرافية، بل تعمل على تنسيق مجموعة من الوقائع التي تقع للبطل، وتعرضها بوصفها مشاهد تؤلف سلسلة من الأحداث. فالحكاية، سواء بتعاقب أحداثها المحكوم بزمن متتال، أم بما تنطوي عليه من استباق والحاق وتقطع وتكرار، لا تنتظم في منطق داخلي صارم، تفرضه أسباب تتعلق بفعل البطل، إنما تخضع لطبيعة الرواية التي يتكفل بها راوٍ مفارق لمرويته، يجعله انفصاله عما يروي، عرضةً لعدم الاهتمام بإخضاع المروي لسياق متطور ومتنام من الأحداث. ولهذا، فإن روايته، تخرق في مواضع كثيرة، مما يجعل الحكاية الخرافية، محضناً يخبص حكايات ثانوية كثيرة.

إن الراوي المفارق لمرويته في الحكاية الخرافية الذي ينحدر عن نظام الإسناد، لا تربطه بما يروي صلة مباشرة، إنما تفصله عنه سلسلة من الرواة، وبذلك يفتقر أحياناً إلى «الدوافع الذاتية» التي تجعله يتفاعل «وجدانياً» مع ما يروي، ويلزم أن نتذكر هنا، أن شهرزاد، ما كانت لتروي إلا دفعاً لموت محقق، وهو أمر ينسحب على كثير من الحكايات الخرافية الأخرى التي تشكل سردياً بتوجيه مباشر من مأزق شهرزاد في بحثها عن الخلاص. وقد أفضى ذلك، إلى أن ينصب الاهتمام على رواية ما حدث، أكثر مما ينصب على ما حدث. وهذه السمة اللصيقة بالبنية السردية للحكاية الخرافية تعد من تجليات الإسناد في القصص العربي، قاد إلى ظهور فئة من المروي له، لا تعنى بأمر الحكاية إلا كونها سمراً لطيفاً، يمكن قضاء الليل في الاستماع إليه، كما هو الأمر في حالة «شهريار» و«دارم». ولما كان الراوي والمروي له، محكومين بحضور يهدف إلى إرسال وتلقي لمتن خرافي، صار دورهما في البنية السردية عظيماً، ذلك، إنهما، المكونان المتحكمان مباشرة بالمكون الثالث وهو المروي. ولهما أن يكيفانه حسب إرادتهما التي تعمل بتوجيه من ثنائية: الإرسال والتلقي الشفاهي. وفيما يمكن الافتراض منطقياً، أن بعض الحكايات يمكن أن تحافظ على وجودها، إن هي جردت من مكوني الراوي والمروي له، كونهما يندغمان في المروي، ولا يتعاليان عليه، فإن الحكايات الخرافية، تقوض بنيتها حالاً إن جردت منهما، ذلك أنهما الإطار الذي يوفر الأسباب الكاملة، لظهور الحكاية، الأمر الذي يستحيل معه، وجود حكاية خرافية، دون أن تشكل وسط إطار صارم، قوامه العلاقة بين الراوي والمروي له.



الباب الثالث

---

السيرورة: تشكل النوع والبنية السردية



## الفصل الأول

### السيرة تشكل النوع القصصي

#### 1 - السيرة فضاء الدلالة

يحيل لفظ «السيرة» دلاليًا على «الطريقة»<sup>(1)</sup>، وتقرن الطريقة بـ «السنة». والسيرة أيضاً، هي: «الطريقة المحمودة المستقيمة»<sup>(2)</sup>، كما وتدل على «الحديث»، فيقال «سَير سيرة: حدّث أحاديث الأوائل»<sup>(3)</sup>، وتشير الدلالة الأخيرة إلى أمرين، الأول: تضمّن اللفظ معنى الخبر أو الحكاية، والثاني: الإشارة إلى قدم مرويات السيرة، بدلالة ربطها بحديث الأوائل. ثم أصبحت «السيرة» بدلالاتها الاصطلاحية العامة في الموروث الثقافي العربي، والدني من خاصة، تحيّل على «الترجمة المأثورة لحياة النبي محمد»<sup>(4)</sup>، واقتترنت بـ «المغازي» الدالة على «مناقب الغزاة»<sup>(5)</sup>، أي أفعالهم الفروسية إبان الغزو.

استعملت مفردة «ترجمة» في الاصطلاح بمعنى «سيرة»، لكنها، ظلت تدل على «تاريخ الحياة الموجز للفرد»<sup>(6)</sup>، وهذا الترادف في الدلالة الاصطلاحية، لم يستند إلى أساس صحيح من التماثل فيما يحيل عليه، فثمة فرق بين «السيرة» و«الترجمة»، ليس في طبيعة الآثار الأدبية التي تحيل عليها المفردتان، بل في الاستخدام الشائع لهما في المصادر العربية أيضاً، ففيما كانت «السيرة» تحيل على المرويات والمدونات التي عنيت بشخص الرسول محمد، كانت «الترجمة» تحيل على خلاصات موجزة للتعريف بأعلام الحديث والفقهاء والأدب واللغة والطب والحكمة... الخ.

توسع مفهوم السيرة، تبعاً لتنوع الأشكال السيريّة التي تنضوي تحت هذا النوع من

(1) الفيروز آبادي، الفاموس المحيط، واللسان والصاحح، مادة «سير».

(2) اللسان، مادة «سنن».

(3) م. ن، مادة «سير».

(4) دائرة المعارف الإسلامية، طهران 12: 439.

(5) اللسان، مادة «غزاة».

(6) يحيى إبراهيم عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، القاهرة 31.

أنواع القصص. فأصبح، ومصطلح «السيرة الشعبية» يدل على «مجموعة من الأعمال الروائية الطويلة، ذات سمات فنيّة متشابهة، وذات أهداف فنيّة متماثلة»<sup>(1)</sup>، ومصطلح «السيرة الذاتية» على الكشف الذاتي لجانب من جوانب الحياة الشخصية، ومصطلح «السيرة الموضوعية» على التعريف المفصل لشخص معروف، استأثر بالاهتمام. ونال حظوة، بؤاته موقعاً مهماً في عصره. وسنقف، في تضاعيف فقرات هذا الفصل، على أبرز أشكال السيرة العربية، تطوراً وسمات، على أن نجعل «السيرة الشعبية» موضوعاً للتحليل الفني في الفصل الآخذ، كونها أكثر أشكال فن السيرة العربية، تمثيلاً لمكونات البنية السردية في هذا النوع القصصي.

## 2- السيرة النبوية : الأصل الموجّه :

أصبحت حياة الرسول، بعيد وفاته مباشرة، وخلال القرون اللاحقة، موضوعاً لعدد كبير من المرويات، ومنها ما تركه محمد بن إسحاق (151 = 768) التي تعد مدونات الصورة شبه الكاملة، لمرويات كثيرة كانت متداولة مشافهة، قبل أن يأمر المهدي (158-169 = 774-785) ابن إسحاق بتدوينها<sup>(2)</sup>. بيد أن الصورة النهائية للسيرة النبوية، إنما تكاملت على يد عبد الملك بن هشام (213 = 828) الذي اشتهر بـ «حمل العلم»<sup>(3)</sup>. ويبدو لذلك، أن نصف القرن الذي أعقب وفاة ابن إسحاق، أكثر وضوحاً في تاريخ تكوّن السيرة النبوية، من القرن والنصف الذي سبق وفاته. ذلك أنه خلف رواية محترفين، رروا عنه السيرة، أبرزهم: زياد البكائي (183 = 799) وسلمة بن الفضل الأبرش (191 = 806) ويحيى بن سعيد بن أبان (194 = 809) وعمرو بن عبد الله السلمي (202 = 817) والهيثم بن عدي (207 = 822) وأحمد بن خالد الذهبي (214 = 829)، وعن الأول، الذي يوصف بأنه «من أوثق الناس في ابن إسحاق»<sup>(4)</sup> روى ابن هشام السيرة، وهذبها ونقحها.

تثير المدة الواقعة بين وفاة الرسول (10 = 632) ووفاته ابن إسحاق، إشكالاً كبيراً، ليس في قضية الريادة الزمنية لرواية السيرة فحسب، بل في تكوّن نص السيرة. وهو الأمر الذي أفضى إلى اعتبار ابن إسحاق المدون الأول لمرويات متفرقة قبله، لم يثبت بعد تدوينها،

(1) فاروق خورشيد، السير الشعبية العربية، القاهرة 5.

(2) يشك الخطيب البغدادي تاريخياً في هذه الرواية، لأن ابن إسحاق توفي قبل خلافة المهدي، ويرى أن امر تدوين السيرة، ربما أصدره المنصور (136-158 = 753-774) لتكون بين يدي ولده المهدي - تاريخ بغداد 1: 221، وإن صحت الرواية يكون الأمر قد حصل قبل توليه الخلافة.

(3) الروض الأنف 1: 43.

(4) العبر في خبر من غير 1: 287.

ذلك أن مواد السيرة وهيكلها كانت معروفة قبل زمن ابن إسحاق<sup>(1)</sup>. الأمر الذي يستدعي هنا البحث في تلك المرحلة الغامضة من عمر السيرة النبوية.

تختلف المصادر، اختلافاً جذرياً في تحديد قضية الريادة الزمنية الخاصة برواة سيرة الرسول، ويعود ذلك إلى أن تلك المصادر المتأخرة نسبياً، استدعت مرحلة غامضة التكوين، سبقت عصرها كثيراً، ونظمت لها تاريخاً، كانت المشافهة وسيلته الوحيدة. ولا نجد وصفاً لموضوع رواية السيرة، إلا في مدونات الواقدي (206 = 821) وابن سعد (230 = 845) وعلى جهودهم، استقامت فيما بعد، حول هذه القضية، الآراء التي أوردها اليعقوبي (283 = 898) والطبري (310 = 845) والمسعودي (346 = 956).

لم يثبت بعد وجود رايٍ للسيرة النبوية، في زمن الرسول والخلفاء الراشدين، وبهذا، ينتفي وجود شاهد أول محدد على الوقائع التي اندرجت في متن السيرة فيما بعد ولكن، الأمر المؤكد، أن الصحابة كانوا المصدر الأساس لرواية وقائع حياته، وعندهم أخذ الرواة الأول، الذين بدأوا بالظهور في النصف الثاني من القرن الأول. ويقول هورفتس، بهذا الصدد: «شرح الناس في الجيل التالي للصحابة، جيل التابعين، يجمعون روايات أقوال النبي وأفعاله التي كانت شائعة في عصرهم»<sup>(2)</sup> ولهذا، فإن تقرير أمر الريادة هنا، ما زال موضوعاً يشوبه الغموض، ولا سبيل - لعدم توفر معطيات دقيقة - إلا الترجيح، اعتماداً على درجة تواتر الأخبار في المصادر التي عنيت بموضوع السيرة. وهنا، يتنازع حق الريادة الزمنية في رواية السيرة، اثنان هما: عروة بن الزبير (23-94 = 643-712) وإبان بن عثمان (22-105 = 642-723)، ويستأثر الأول باهتمام المصادر الأساسية<sup>(3)</sup>، ولا يقرر ريادة الثاني سوى هورفتس<sup>(4)</sup>، أما المصادر التي تؤكد ريادة الزهري<sup>(5)</sup> (124 = 742) أو موسى بن عقبة<sup>(6)</sup> (141 = 758) أو ابن إسحاق<sup>(7)</sup>، فهي تهمل تماماً، الجذور الأولى للسيرة في القرن الأول. ويمكن القول أن عروة بن الزبير وإبان بن عثمان، كانا رائدين في تهيئة مناخ مناسب لرواية

(1) عبد العزيز الدوري، دراسة في سيرة النبي ومؤلفها ابن إسحاق، بغداد 5.

(2) هورفتس، المغازي الأول ومؤلفوها، ترجمة حسين نصار 2.

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات تحقيق هلموت ريتز، ألمانيا 7:1 ومحاضرة الأوائل 103، كشف الظنون 1147:2 الواقدي، المغازي، تحقيق مارسدن، أكسفورد 21:1 وادارة المعارف الإسلامية 450:12.

(4) المغازي الأول ومؤلفوها 3.

(5) الاعلان بالتبويخ 157 وبروكلمان: تاريخ الأدب العربي 3:10.

(6) الحلبي إنسان العيون في سيرة الأمين، والمامون القاهرة 2:1 ودحلان، السيرة النبوية والآثار المحمدية - على هامش إنسان العيون 3:1.

(7) القفطي، أنباء الرواة على أنباء النحاة تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 5:1.

مختلف الأخبار التي تضافرت فيما بعد، لتكوّن على يد الطبقة اللاحقة، مادة السيرة، التي دونها ابن إسحاق، فيما بعد، ويحسن هنا، أن نصنع مسرداً بطبقات رواة السيرة النبوية، اعتماداً على ما أورده هورفثس ومارسدن، علّمه يوضح موضوع الريادة، وتعاصر الرواة في القرنين الأول والثاني. وهو يبين، أنّ رواة السير، كانوا فعلاً يؤلفون طبقات متتالية، يأخذ اللاحق من السابق، ما يتوفر عليه من أخبار تخص الرسول.

#### مسرد طبقات رواة السيرة النبوية في القرنين الأول والثاني

الطبقة الأولى	الطبقة الثانية	الطبقة الثالثة	الطبقة الرابعة
ابان بن عثمان	عبد الله بن أبي بكر بن حزم	موسى بن عقبة	نجيح بن عبد الرحمن السندي
عروة بن الزبير	عاصم بن عمرو	معمر بن راشد	الواقدي
شرحبيل بن سعد	محمد بن شهاب الزهري	محمد بن إسحاق	ابن سعد
وهب بن منبه			
عروة بن الزبير	عاصم بن عمرو	موسى بن عقبة	
وهب بن منبه	محمد بن شهاب الزهري	محمد بن إسحاق	
ابان بن عثمان	عبد الله بن أبي بكر بن حزم	معمر بن راشد	
		نجيح بن عبد الرحمن السندي	

استأثر الزهري، وهو من أعلام الطبقة الثانية، بأهمية خاصة، فإليه عُزِي الفضل في جمع المرويات المتناثرة عن حياة الرسول وتعد مروياته الأصل الذي قامت عليه مدونات ابن إسحاق، وقد ظلت تلك المدونات الأصل الذي بنيت عليه الجهود اللاحقة.

يوصف ابن إسحاق، بأنه «صاحب السير»<sup>(1)</sup> و«رئيس أهل المغازي»<sup>(2)</sup> وكان، حسب

(1) الفهرست 105.

(2) كشف الظنون 2: 1012.



الذهبي «بحراً من بحور العلم»<sup>(1)</sup> و«عالمًا في السير والمغازي»<sup>(2)</sup> وفيهما كما يقول السهيلي وابن خلكان «ولا تجهل إمامته»<sup>(3)</sup> وموقعه هذا هو الذي جعل الشافعي يقول «من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على ابن إسحاق»<sup>(4)</sup> فلا عجب أن تكون مدوناته، أساساً للسير التي خصص بها الرسول، وأصلاً دارت حول شروح كثيرة<sup>(5)</sup>.

لقد استدعى ابن إسحاق، أحداثاً مضى عليها أكثر من قرن. ولا شك أنّ عصر التدوين، الذي تزامن مع تدوين ابن إسحاق لمرويات السيرة النبوية، قد ترك أثراً في الأحداث التي دونها. وأضفى عليها مفاهيم عصر التدوين لا عصر الوقائع المدونة، فالوقائع التاريخية التي تروى شفاهاً، يعاد إنتاجها، ليس في ضوء عصرها فقط، بل في ضوء عصر تدوينها أيضاً، وتفترض الرواية الشفاهية أن يضيف كل راوٍ رؤيته للأحداث وموقفه منها، وقد أشار ابن هشام، إلى ما لحق بالسيرة مما ليس منها، وهي «أشياء بعضها يشنع الحديث به»<sup>(6)</sup>. فضلاً عما ورد فيها من أشعار، لم يكن أحد من «أهل العلم بالشعر يعرفها»<sup>(7)</sup>. وقد قام ابن هشام بحذف كثير مما وجده قد لحق بالسيرة، ولا يلبق بشخص الرسول، بما فيه الجزء الذي خصصه ابن إسحاق لبده الخليفة، ويكشف موقف ابن هشام، أنّ ابن إسحاق لم يكن في منأى عن إضفاء مناخ قصصي على السيرة، ذلك، أنه قد «اتصل في دراساته بكافة الأوساط من محدثين وأهل كتاب ورواة وقصاص، وأخذ عن الجميع»<sup>(8)</sup>، وهو الأمر الذي جعل المحدثين يشككون أحياناً بروايته الأحاديث<sup>(9)</sup>.

لقد صيغ متن السيرة، في كثير من أجزائه، صياغة قصصية، وبأسلوب ذاتي أحياناً، وكان ابن إسحاق يتخلى أحياناً عن الإستاذ، ويتصرف في ترتيب المرويات، طبقاً لسياق الأحداث، وكان يهمل أحياناً أسماء الرواة، ويؤكد أنه يروي عن لا يتهم<sup>(10)</sup>، أو يروي عما

(1) العبر في خبر من غير 216:1.

(2) تاريخ بغداد 1:215.

(3) الروض الأنف 1:37 ووفيات الأعيان 4:276.

(4) تاريخ بغداد 1:219، الروض الأنف 1:40، وفيات الأعيان 4:276 وابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون

المغازي والشعائل والسير القاهرة 1:9.

(5) للوقوف على السير النبوية وشروحها، نحيل على كشف الظنون 2:1012-1013 والإعلان بالتبويب 157

والوافي بالوفيات 1:7-8.

(6) (7) السيرة النبوية 1:6.

(8) دراسة في سيرة النبي 8.

(9) الفهرست 105، تاريخ بغداد 1:223 وكتاب المجروحين من المحدثين 1:77.

(6) السيرة النبوية 1:194، 225، 262 و 37:2، 89 و 136:3، 176 و 44:4، 54.

يتحدث به الناس<sup>(1)</sup>، أو يسند خبراً واحداً إلى مجموعة من الرواة<sup>(2)</sup>، وجاء المتن الرئيس للسيرة الذي يصور غزوات الرسول، بشكل وحدات شبه قصصية، كما أنّ هيكل السيرة بأجمعه، يمثل وصفاً شاملاً ومفصلاً لشخصية ذات أهمية اعتبارية في التاريخ، ابتداء من ظهورها، وانتهاء بوفااتها، مروراً بأهم الإنجازات التي قامت بها طوال حياتها، الأمر الذي يؤكد، أنّ بنية السيرة النبوية كانت الموجّه الأول، لصياغة البنى السردية للسيرة الشعبية فيما بعد.

### 3- أشكال السير العربية :

عرف فنّ السيرة العربيّة أشكالاً سيرة أربعة هي :

#### 3-1 التراجم :

لا يخفى الباعث الديني وراء ظهور التراجم وطبقات الرجال في حقول الأدب والمعرفة، ذلك أنّ العناية بالرجال، كان يراد بها أولاً «خدمة الحديث النبوي بالحكم على رواته، ووزنهم بأدق الموازين»<sup>(3)</sup>، ويضيف روزنتال الاهتمام المبكر بالفقه سبباً أيضاً، بقوله إنّ التراجم ظهرت من أجل «تدعيم علمي الحديث والفقه»<sup>(4)</sup>، ولكن التراجم اتسع موضوعها، ليشمل الشعراء والنحاة والقراء والصحابة والمفسرين والحكماء والأطباء والأعيان وأصحاب المذاهب... الخ وتمثل التراجم جزءاً كبيراً من الموروث الفكري والأدبي، يصعب حصره امتد إلى جميع حقول النشاط الثقافي، وتنهض التراجم على قواعد محددة، تهدف إلى التعريف الموجز بالمرّجم له، إسماً وكنية ولقباً، تعقبها وقفة وجيزة على أخباره ونتاجه الأدبي أو العلمي - تتناسب وأهمية الشخص، وتتراوح هذه التراجم بين أسطر قليلة، كما يلمس في تراجم ابن أبي أصيبعة مثلاً لابن وصيف الصائبيء وأبي عثمان سعيد بن غالب وموسى بن سيار، وبين صفحات طويلة، تورّد الأخبار المستفيضة، شأن ترجمته لابن سينا وعلي بن رضوان وعبد اللطيف البغدادي<sup>(5)</sup>، ولكنّ الإيجاز هو السمة الغالبة والمميزة لهذا الشكل من السير، وغالباً ما يبين المعنويين بالتراجم، الأهداف المحددة لما يقومون به، وخطّة العمل التي يتبعونها في الترجمة، فابن قتيبة (270 = 883) يقول، عن التراجم التي

(1) م. ن 45:1 و 123:4.

(2) م. ن 193:2 و 176:3.

(3) هاني العمدة، دراسات في كتب التراجم والسير، عمان 93.

(4) روزنتال، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة أنيس فريحة، بيروت 115.

(5) عيون الأنباء 2:18، 220، 225، 226، 230 و 164:3، 287.

ضمنها كتابه «الشعر والشعراء»: «هذا كتاب ألفت في الشعراء، أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم وأسماء آبائهم، ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم وعمما يستحسن من أخبار الرجل ويستجد من شعره<sup>(1)</sup>». ويحذو السلمي (410 = 1019) حذوه في التأكيد أنه يهدف في كتابه «طبقات الصوفية» الوقوف على طبقات الأولياء المتصوفة حسب عصورهم، ذاكراً لكل منهم «من كلامه وشمائله وسيرته ما يدل على طريقته، وحاله، وعلمه<sup>(2)</sup>»، وهو الأمر نفسه الذي يحرص ابن أبي أصيبعة (668 = 1296) على ذكره عندما يخصص كتابه «عيون الأنبا في طبقات الأطباء» لـ «مراتب المتميزين من الأطباء القدماء والمحدثين، ومعرفة طبقاتهم على توالي أزمنتهم وأوقاتهم» ويورد «نبدأ من أقوالهم وحكاياتهم ونواديرهم ومحاوراتهم<sup>(3)</sup>»، من أجل أن يستدل على علمهم ومكانتهم. وهو الأمر الذي يتقيد به كثيرون مثل ابن سعد (230 = 844) في «الطبقات الكبرى» وابن المعتز (296 = 908) في «طبقات الشعراء» وابن الأثير (630 = 1232) في «أسد الغابة في معرفة الصحابة» والذهبي (748 = 1347) في «طبقات القراء المشهورين» والسبكي (771 = 1369) في «طبقات الشافعية الكبرى» وعدد لا يمكن حصره من الكتب التي عدها كثيرون جزءاً من التاريخ<sup>(4)</sup>، ولكن وجهة نظر المؤلف الشخصية تمنح الترجمة طابعاً ذاتياً وأدبياً، وأسلوب التعبير، هو الآخر يشحن التعريف أحياناً بسمات أدبية، كما يلمس على سبيل المثال في ترجمة السبكي لطبقات الشافعية<sup>(5)</sup>، ولكنه، قد يكون أسلوباً يتصف بالإيجاز والدقة، شأن ترجمات ابن تقيّة وابن أبي أصيبعة والمقفطي والسيوطي.

### 3- 2 السير الموضوعية:

نصلح بـ «السير الموضوعية» على تلك التراجم المستفيضة التي تؤلف كتباً قائمة بذاتها، معروفة المؤلف، وتعنى بأعلام معروفين على نطاق واسع جداً، وتفصل في حياتهم وأعمالهم وآثارهم، وتهتم بالموقع الاعتباري للشخصية تاريخياً وفكرياً، وتقدمها بوصفها نموذجاً متقدماً في عصرها. شأن سيرة عمر بن الخطاب، لابن الجوزي (597 = 1200) وسيرة صلاح الدين الأيوبي، لابن شداد (632 = 1234) وسيرة الملك الظاهر للبيدر العيني

(1) الشعر والشعراء 21.

(2) السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريعة، القاهرة 1.

(3) عيون الأنبا 8:1.

(4) جرونيانوم، حضارة الإسلام ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة 329 ونحيل في هذا الموضوع إلى

الاعلان بالتاريخ 154 وعجائب الآثار 9:1.

(5) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى القاهرة 14:1.

(855 = 1451) وسيرة أحمد بن طولون، للبلوي، وسيرة سنان راشد الدين، لشهاب الدين أحمد بن إبراهيم المنيفي، الملقب بأبي فراس (937 = 1530).

وتحكم السير الموضوعية قواعد محددة، يتبعها كتابها وهي: الوقوف المفصل على شخصية المترجم له، فابن شداد، يورد في القسم الأول من سيرة صلاح الدين الأيوبي، ذكر مولده وأوصافه وشمائله وخلالله، ثم يخصص القسم الثاني، لبيان تقلبات أحواله ووقائعه وفتوحاته، ويؤكد أنّ ما دعاه إلى كتابة سيرته، أنه كان «جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصلبان، ورافع علم العدل والإحسان» وهو «صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين»<sup>(1)</sup> وينهج ابن الجوزي، النهج ذاته، فيؤكد، أنه كتب سيرة عمر بن الخطاب، «لأنه جمع من العلم والعمل ما أدهش العلماء العاملين، وقام من الجد في السياسة والعدل ما أعجز الولاة والزاهدين»<sup>(2)</sup>، ويؤكد البدر العيني، أن الذي دعاه إلى تدوين سيرة الملك الظاهر «ططر» هو «سيرته الشريفة، وأحوال دولته المنيفة»<sup>(3)</sup>، ويتمسك بالأسباب ذاتها أبو فراس والجوزي والبلوي<sup>(4)</sup>.

إنّ ما يميز السير الموضوعية، عن غيرها من أشكال السير العربيّة، أنّها تعنى بشخصية، استأثرت باهتمام الناس، وأصبحت مآثرها معروفة بينهم، وتقوم السير بوصف المركز الاعتباري الذي بلغته، وتضفي عليه أوصافاً كثيرة، هي نتاج المرويات الإخبارية حول تلك الشخصية، فابن الجوزي، يورد نبوءة التوراة بظهور عمر، وكيف أنه كان يصارع الشياطين، وتنعيه الجن وتبكيه حين وفاته، وتحتشد سيرة سنان راشد الدين بالكرامات والنبؤات، ويحاول كتاب هذه السير إضفاء سمات شبه خارقة على الشخصيات موضوع السير ولذلك فالسير الموضوعية، مرحلة من التعبير الموضوعي عن الآخرين، تقع بين التراجم والسير الشعبيّة.

### 3-3 السير الذاتية:

عرف الأدب العربي، شكلاً آخر من أشكال السيرة، وهو «السيرة الذاتية».

- (1) ابن شداد، سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة 3.
- (2) ابن الجوزي، سيرة عمر بن الخطاب 2.
- (3) البدر العيني، الروض العاطر في سيرة الملك الظاهر «ططر»، تحقيق هانس ارنتس، القاهرة 2.
- (4) نحيل بهذا الصدد على أبي فراس، مناقب المولى سنان راشد الدين، تحقيق مصطفى غالب، بيروت 165 والجوزي، سيرة الأستاذ جؤذر، تحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي أبو شعيرة، القاهرة 34 والبلوي، سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي دمشق 7.

التي يتكفل فيها أصحابها، بكشف تكوينهم الفكري، وهو ما جعلها ترتبط بالفلاسفة والعلماء والفقهاء والمؤرخين. وتورد المصادر التاريخية سيرة مبكرة لسلمان الفارسي (36 = 656) يستنها الخطيب البغدادي إلى ابن عباس<sup>(1)</sup> (68 = 687) وسيرة اللواقدي (206 = 821) يوردها ابن سعد<sup>(2)</sup>، لكن هناك من يذهب إلى أن هذا الفن مستحدث عند العرب «قلدوا فيه غيرهم من الأمم الأجنبية التي قرأوا آثارها، وخاصة اليونان»<sup>(3)</sup>، وهذا الرأي يعتمد على ما قال به جرونيانوم من أن أول من ترجم لنفسه هو جالينوس، وأن العرب أخذوا عنه ذلك<sup>(4)</sup>، كما أن العرب قد عرفوا ترجمة ابن المقفع لسيرة برزويه ضمن كتاب كلية ودمنة<sup>(5)</sup> في النصف الأول من القرن الثاني. وشيئا فشيئا، استأثر هذا الشكل من أشكال السيرة باهتمام المفكرين والمؤرخين ورجال الدين، فظهر عدد كبير من السير الذاتية للرازي وابن الهيثم وابن رضوان وحنين بن إسحاق وابن الجوزي وابن خلدون والغزي والمرادي وابن حزم والسيوطي وابن حجر العسقلاني والمحاسبي والشعراني وغيرهم ولم يقتصر الأمر على سير ذاتية موجزة تضمنتها كتب الطبقات مثل سيرة ابن عربي وحاجي خليفة والعماد الأصبهاني واليماني، بل وردت بعض السير في كتب قائمة بذاتها، مثل سير الداعي هبة الله الشيرازي، وابن خلدون، والغزالي والحيمي وابن حزم وغيرهم.

يقول روزنتال، إن «النقطة الرئيسية في كل التراجم الذاتية العربية هي في وصول الشخص إلى الإيمان بمذهب من المذاهب أو دين من الأديان»<sup>(6)</sup>، وهذا التعميم يحيل على عناية كتاب السير الذاتية بجانب التشكل العقائدي والفكري لهم، ولهذا فهم يغفلون الجانب الوجداني لشخصياتهم، ويحاولون التأكيد على الجانب الاعتباري لتكوينهم الذاتي، متبعين الأساليب المباشرة في التعبير كابن سينا والغزالي وابن خلدون حيناً، والإيماء والرمز والتلميح كابن طفيل، حيناً آخر.

إن استعمال الأسلوب المباشر في التعبير عن الذات، يتجلى في أعلى صورته في سير ابن سينا والغزالي وابن خلدون، والوقوف على سيرهم، إنما يكشف القواعد الأساسية المتحركة في هذا الشكل من أشكال السيرة.

(1) تاريخ بغداد، 1: 164-169.

(2) الطبقات الكبير 5: 314.

(3) شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، القاهرة 5.

(4) حضارة الإسلام 343.

(5) كلية ودمنة 70-87.

(6) عبد الرحمن البديوي، الموت والعبقريّة، الكويت 120.

يقول ابن سينا (428 = 1037) في سيرته التي أوردها ابن أبي أصيبعة والقفطي<sup>(1)</sup>:

«كان أبي رجلاً من أهل بلخ، وانتقل منها إلى بخارى في أيام نوح بن منصور، واشتغل بالتصرف، وتولى العمل في أثناء أيامه بقرية يقال لها خرمتين من ضياع بخارى، وهي من أمهات القرى، ويقربها قرية يقال لها أفشنة، وتزوج أبي منها بوالدتي، وقطن بها وسكن، وولدت منها بها، ثم ولدت أخي، ثم انتقلنا إلى بخارى، وأحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب، وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب، حتى كان يقض مني العجب». وبعد هذا الوصف لمرحلة الطفولة، يقف ابن سينا على طرائق اكتسابه العلم بما فيه من منطق وفلسفة وفقه وطب، ويصف ذلك بحياد كامل، كأنه درس في كيفية تلقي المعرفة. ويحذو ابن خلدون (808 = 1405) حذو ابن سينا في التعبير عن تكونه الفكري، فيقول «ولدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنين وثلاثين وسبعمئة، وربيت في حجر والدي رحمه الله إلى أن أبلغت وقرأت القرآن العظيم...» وبعد أن استظهرت القرآن الكريم من حفظي، قرأت عليه (= شبيخة البطرني) القراءات السبع المشهورة إفراداً وجمعاً في عشرين ختمة...» ودارست عليه كتاب التسهيل لابن مالك ومختصر ابن الحاجب في الفقه، ولم أكملها بالحفظ. وفي خلال ذلك تعلمت صناعة العربية على يد والدي وعلى أستاذي<sup>(2)</sup>. ويورد أسماء شيوخه ودراسه الحديث والفقه، وهلاك والديه، واتصاله بالسلطان أبي عنان، ورحلته إلى الأندلس وبجاية، وعلاقته بابن الخطيب، ورحلته إلى مصر، وحجه، ولقائه تيمورلنك. يلاحظ في هاتين السيرتين، عناية صاحبيهما، كما في معظم السير الذاتية، بمرحلة النشأة والتكون المعرفي في جميع وجوهه، والوقوف المفصل على النتاج الفكري الذي خلفه كاتب السيرة، وذكر الأحداث التي لها علاقة بهذا الجانب دون غيره. والمؤكد أن السير الذاتية العربية التي تنحو هذا المنحى، تستدعي أحداث الطفولة على عجل، ذلك أن عنايتها الأساسية تتجه ناحية الموقع الاعتباري، علمياً ودينياً، الذي صار عليه صاحب السيرة زمن تدوينها، ولعل سيرة الغزالي، تمثل أحد أبرز نماذج السير الذاتية العربية، التي يكون الانصراف فيها كاملاً إلى المرحلة الأخيرة من مراحل التكون الفكري، مرحلة الثبات على موقف عقائدي وفكري، استخلصه كاتب السيرة، عبر مروره بتجارب عديدة، أفضت به إلى الموقف الفكري الأخير.

يقول الغزالي (505 = 1111): «أحكى لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضراب الفرق، مع تباين المسالك والطرق، وما استجرت عليه من الارتفاع عن حضيض

(1) عون الأبناء، 3:3 وتاريخ الحكماء 413-417.

(2) ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، تحقيق محمد بن تاويت، القاهرة 15-17.

التقليد، إلى يفاع الاستبصار، وما استفدته أولاً من علم الكلام، وما اجتويته ثانياً من طرق أهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تقليد الإمام، وما ازديته ثالثاً من طرق التفلسف، وما ارتضيته آخراً من طريقة أهل التصوف<sup>(1)</sup>، وواضح أن سيرته الذاتية، تتضمن وصفاً للمراحل الأربع التي شكلت تكوينه الفكري، وهي: التكلم والتأويل والتفلسف والتصوف. فقد جرب الأول، فوجده «علماً وافيةً بمقصوده، غير وافيةً بمقصودي» وجرب الثاني، وسير ظاهر أتباعه وباطنهم «فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام وضعفاء العقول . . .» فهذا حقيقة حالهم. فأخبرهم تقلهم (= تبغضهم)، فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضاً.

وجرب الثالث، فوجد أتباعه «على كثرة أصنافهم، يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد».

وبعد هذه الرحلة، التي خاض غمارها مجرباً، يصل الغزالي مرحلة الحق واليقين وهي عنده التصوف، التي يصف سالكيها، بأنهم «السالكون لطريق الله» وأن «سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، لغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به»<sup>(2)</sup>.

وإذا كان الغزالي قد وصف مباشرة تجاربه الفكرية والروحية، مورداً الأدلة على ذلك، ومفتداً بالقرائن المراحل الثلاث الأولى، ومعتقاً التصوف، بوصفه أفضل خياراته العقائدية، ترون التصوف وأصوب الطرق، فإن ابن طفيل (581 = 1185) الذي يتجاوز الغزالي في اختياره طريق التصوف ذاته، وصولاً إلى «حكمة الإشراق» يستعين بأكثر أساليب التعبير غموضاً وإيماءً، لتدوين سيرته الذاتية، مستعيراً حكاية رمزية تمثيلاً لخياره العقائدي، وبحثاً في فلسفة الإشراق عنده. ولأن كتاب «حي بن يقظان» قد عُدَّ، منذ القدم خطاباً في الفلسفة، وهو لا يخلو من ذلك، فإن قراءته بوصفه سيرة ذاتية لابن طفيل، توجب بحثاً خاصاً في دائرة الإشراق، حيث تتنفس هذه السيرة أنسام ذلك الإشراق، وهو ما يفرض الاستفاضة في هذا الجانب المهم من جوانب الثقافة العربية الإسلامية<sup>(3)</sup>.

(1) الغزالي، المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، تحقيق جميل صليبا وكامل عباد، دمشق 55.

(2) المنقذ من الضلال 101.

(3) أنجزنا بحثاً مفصلاً حول الإشراق، وأوجه المطابقة بين ما يقوله الإشراقيون، وما أورده ابن طفيل في «حي بن يقظان». وخلصنا، بعد استنطاق النص، إلى أن الكتاب سيرة ذاتية رمزية للمؤلف، ولكننا =

لقد أكد مدني صالح، أن «مجمّل موقف حي بن يقظان، صورة لابن طفيل عن نفسه، منهجاً وشخصاً وموقفاً من مجمّل مسائل التطور الطبيعي، والتطور الثقافي، والحضاري، والتاريخي، ومن مجمّل نظرية المعرفة»<sup>(1)</sup>. لكنّ استنطاق النص على نحو دقيق، ومقارنته بمقولات الإشراق الأساسية، عن النفس والسعادة والوجود والعقل والخالق، يدلّل فضلاً عن ذلك، على أنه بحث في سيرة ابن طفيل نفسه.

إنّ المعطيات التي يقدمها، ابن طفيل، في مقدمة الكتاب<sup>(2)</sup>، والتمثيل الرمزي الذي يشكله المتن، ترجح أمر المطابقة بين ابن طفيل وحي بن يقظان، فكلاهما جعل الحدس والمجاهدة الروحية، سبيلاً لتحقيق درجة من التماهي في ذات الخالق، بحثاً عن السعادة، التي لا تتحقق، كما يؤكد الإشراقيون، إلّا بالتقرب الروحي إلى الله، والتخلص التام من الصفات المادية التي تعلق بالإنسان. وإذا كان الغزالي، قد وصف في سيرته، بصيغ إخبارية مباشرة، تطوره الفكري والعقائدي، فإنّ ابن طفيل، صدر في سيرته، عن رؤية أشمل في منظورها. لقد منح تجربته الذاتية، بوساطة التمثيل الرمزي، سعة وافقاً، تصلح فيه، أن تكون تجربة إشراقية مجردة.

نخلص، وقد وقفنا بإيجاز على أبرز السير الذاتية العربيّة، بأساليبها المتنوعة، إلى أنّ هذا الشكل من فنّ السيرة العربيّة، يصف، بأساليب مباشرة أو غير مباشرة، رحلة التكوّن الفكري والعقائدي، لصاحب السيرة، الأمر الذي يجعل شخصيته هي المركز الذي يضيء أهمية على ما حوله، وكلّ شيء، لا يكتسب أهمية إلّا عبر منظوره الذاتي لما يحيط به، ولهذا، فإنّ رؤيته تكتسب أهميتها الخاصة، في تحديد مسيرة التطور الفكري له. أما العناية بالجوانب الشخصية، وجدانياً وعاطفياً، فلم يلتفت إليه كتاب السير الذاتية، إلّا ما له علاقة مباشرة، بالتكوّن الثقافي، الأمر الذي يقرر، إنّ البواعث الكامنة وراء كتابة السير، هي الرغبة المتأخرة، بتقديم سيرة اعتبارية، لا شخصية دقيقة، تعنى بوصف رحلة البحث عن الحقيقة. في بنية ثقافية يزداد فيها الصراع بين الخيارات العقائدية والفكرية.

### 3-4 السير الشعبيّة:

تتسم «السير الشعبيّة» إلى مرويات العامة، وهذا الانتماء، هو الذي جعلها تشكل في منأى عن الثقافة المتعالية التي كانت تعنى، إجمالاً، بأخبار الخاصة، الأمر الذي أفضى

= ارتأينا، أن لا ندرجه هنا، كونه لا يمس موضوع البحث مباشرة، ونأمل نشره في وقت قريب.

(1) مدني صالح، ابن طفيل وقصة حي بن يقظان، بغداد 31-32.

(2) ابن طفيل، حي بن يقظان، تحقيق فاروق سعد، بيروت 106-116.



إلى عدم العناية بهذه المرويات، تدويناً ووصفاً.

إنّ تغييب مرويات العامة، والسكوت عنها، يرجع إلى موقع العامة في الثقافة العربية الإسلامية، وهو ما ألمحنا إليه من قبل<sup>(1)</sup>. وقد أدى ذلك إلى جهل شبه تام بالأصول الأولى للمرويات الشفاهية الشعبية، فضلاً عن الجهل بطرائق تكوّنها. وأسباب ظهورها. وتواجه الباحث في هذه المرويات، مهمتان أساسيتان هما: تشكّل السير الشعبية، وإنشادها.

أ - تشكّل السير الشعبية:

لم تشر المصادر العربية الأدبية والتاريخية إلى السير الشعبية إلاّ إشارات مقتضبة في سياق ذمها، وبذلك فالغموض يحيط، بالأشكال الأولى لهذه المرويات فضلاً عن الأسباب الكامنة وراء ظهورها. ذلك، أنّ التدوين المتأخر الذي قام به بعض منشدي هذه السير، لا يقدم إلاّ صورة لعصر أولئك المنشدين، ولكنّ الأمر المؤكد أنّ جذورها المتداولة شفاهياً ترجع إلى زمن أقدم من زمن تدوينها بكثير. ولا يمكن حصر أسباب ظهور هذا الشكل القصصي، إلاّ على سبيل تأويل متونها الضخمة، كونها تستدعي أشهر فرسان العرب، ليكونوا أبطالاً لعصور غير عصورهم، وهو ما جعل بعض الباحثين، يعللون ظهورها، إلى أنه نوع من استحضار الماضي المجيد، لمواجهة عصر، انحسر فيه الدور العربي، وأوردوا أسباباً أخرى تهدف جميعها إلى تعليل أسباب ظهور هذا النوع المتميز من أنواع القصص العربي.

يرجع اندريه ميكال، ظهور السير الشعبية إلى «تعلق الجماعة الإسلامية بذكرياتها»<sup>(2)</sup>. ذلك أن أبطالها يحلون إلى أولئك الرجال العظام الذين عرفهم التاريخ العربي، أما عبد الحميد يونس، فيعزو ظهورها إلى اهتزاز «الوجدان العربي» بسبب الحروب الصليبية، مما دفعه إلى «أن يعتمض بعصر البطولة»<sup>(3)</sup> الذي مثله أبطال لهم شأن في صلب ذلك الوجدان. وإذا كان ميكال ويونس، يذهبان إلى أنّ ظهور السير، سببه عوامل نفسية وحضارية، استجذبت نتيجة التحديات التي واجهها العرب، فإن بعض الباحثين الآخرين، يرون أنّ ذلك يعود إلى أسباب أدبية، إذ يقول فاروق خورشيد، إنّ ظهورها يعزى إلى الحاجة إلى «ظهور شكل إسلامي للتعبير الأدبي، ليعده عن مظان الارتباط بالأشكال الأدبية المنحدرة من الأسطورة الوثنية القديمة»<sup>(4)</sup>، فيما يرى عادل البياتي، أنّ ظهورها يرجع إلى

(1) الفقرة 3 الفصل 2 الباب الأول.

(2) أندريه ميكال، الأدب العربي، ترجمة رفيق بن وناس وآخرون، تونس 96.

(3) عبد الحميد يونس، دفاع عن الفلكلور، القاهرة 139.

(4) السير الشعبية العربية 43.

البذور التي أوجدتها أيام العرب، وما احتوته من أخبار كثيرة<sup>(1)</sup>، أما أحمد كمال زكي، فيؤكد أن السير الشعبية، كانت «تخلق في خط مواز للمغازي، وتستقطب كل ما رفضه المؤرخون واللغويون من الأيام الأصيل، ومن تواريخ الأنساب، وأسفار التكوين»<sup>(2)</sup> فضلاً عما ترسب في الذاكرة من كتب الأوائل، ونواتج الرحالة والجغرافيين المتقدمين.

يصعب في واقع الحال، تقرير صحة أي من هذه الآراء، فكل منها، يمكن أن يكون سبباً وراء ظهور السير الشعبية، وجميعها يمكن أن تكون كذلك، لكن آراء تعتمد على تعليل يستدعي ثقافة الماضي على سبيل التأويل، والعناية بمرجع تلك المرويات، لا الاستقراء الفني الذي يهتم بتحليل البنى السردية لها، ضمن شروط النوع القصصي الذي يوجهها، تظل بحاجة إلى نوع من الدرس والتحليل، للثبوت من أمر ظهور تلك المرويات السردية.

وكما اختلف بشأن أسباب ظهور السير، اختلف أيضاً في أزمان ظهورها، ويستمد الباحثون المعنويون بهذه المرويات، آراءهم إما من الأحداث التاريخية التي تحيل عليها تلك المرويات، أو من الإشارات العابرة التي تتضمنها المصادر الأدبية أو التاريخية، وكلا المصدرين، لا يقدمان أدلة كافية تؤكد شيئاً أساسياً في هذا الموضوع، ذلك أن إشارات المصادر التاريخية أو الأدبية، لا تعني بهذه الإشكالية أصلاً، أما اعتماد الأحداث التاريخية التي توردها تلك المرويات، بوصفها أدلة على أزمنة تشكلها، فأمر يشوبه عدم الدقة والشك، لأن تلك الآراء تتعامل معها بوصفها تاريخاً، وليس بنى رمزية قصصية، إن تقويل المرويات، يخرجها من إطار جنسها الأدبي، ويدخلها في حقل غريب عنها هو التاريخ. صحيح أن الأحداث التاريخية قد تكون دليلاً على أن مروياً ما قد ظهر بعد الواقعة التاريخية التي تشير إليها، كما في سيرة «الظاهر بيبرس» التي تورد وصفاً لثورة عرابي، الأمر الذي يؤكد أن هذا الجزء من السيرة - في أقل احتمال - لا بد أن يكون قد ظهر بعد تلك الثورة. ولكن استقراء عاماً للسير الشعبية العربية، يدل على إنها ليست من التاريخ<sup>(3)</sup>.

(1) عادل البياتي، الملاحم العربية بغداد 29.

(2) أحمد كمال زكي، الفن القصصي في التراث العربي، مجلة الآداب 1989/8-7 ص 40.

(3) تجدر الإشارة هنا إلى أن أبطال السير العربية الكبرى قد عاشوا قبل الإسلام، لكن بعضهم استدعي للمساهمة في أحداث إسلامية، فعترة يفزو الأندلس، وسيف يمهّد للإسلام، ويقود جيشاً من ثمانية عشر مليوناً من الجند، وتجعل سيرة الأميرة الملك الرومي «لاوون» معاصراً لثلاثة عشر خليفة، ابتداءً من عبد الملك بن مروان (64-85 = 683-704) لغاية المهدي (158-619 = 774-885) كما تجعل مروان بن محمد (126-132 = 743-749) خليفة لسليمان بن عبد الملك (96-99 = 714-717) ولا تأتي على ذكر ستة خلفاء بينها، وتجعل سيرة سيف الحجاز مكاناً للطوفان، وتصف مدينة القاهرة في سياق أحداث وقعت قبل الإسلام، وتجعل سيف بن ذي يزن وقد عاش في القرن السادس الميلادي معاصراً للملك

وبين المسرد الآتي أهم الآراء التي بحثت في زمن ظهور مرويات السير الشعبية .

مسرد بين زمن ظهور السير الشعبية

السيرة	زمن التأليف	صاحب الرأي
الأمير ذات الهمة	القرن 3 هـ = 9 م	نبيلة إبراهيم، سيرة الأميرة ذات الهمة: دراسة مقارنة 59 ويستند هذا الرأي إلى إنها كانت تروي للخليفة الواصل (227-233 = 841-847) السيرة 22:68
عترة	1- القرن 4 هـ = 10 م	لويس شيخو، شعراء النصرانية 2:882 وأخذ بهذا الرأي الزيات، تاريخ الأدب العربي 392 محمود ذهني: سيرة عترة 155، 171، 280 وموسى سليمان، الأدب القصصي عند العرب 105 وفؤاد حسنين، قصصنا الشعبي 77، ويستندون جميعاً إلى إشارة أوردها شيخو دون أن يذكر مصدرها إلى إن العزيز الفاطمي (344-386 = 955-996) أمر الشيخ يوسف ابن إسماعيل بتدوين هذه السيرة، ونشرها بين العامة، لصرافهم عن ربية وقعت في قصره. شعراء النصرانية 2:882.
	2- القرن 6 هـ = 12 م	اندريه ميكال، الأدب العربي 85 وهلمر، كما ورد في عبد الحميد يونس ودفاع عن الفلكلور 163 ويستند هذا الرأي إلى إشارة أوردها ابن أبي أصيبعة في «عيون الأنباء» تؤكد أن طبيباً عراقياً يدعى ابن الصائغ كان يكتب أحاديث عترة العبي، وصار مشهوراً بنسبته إليها 2:314.
الهلالية	القرن 5-8 هـ = 11-14 م	عبد الحميد يونس، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي 133 ودفاع عن الفلكلور 179 ويستند هذا الرأي إلى ما أورده ابن خلدون من أنّ للهلالين حكاية غربية عن رحيلهم إلى المغرب تروى «خلفاً عن سلف، وجيلاً عن جيل، وكساد القادح فيها والمسترب في أمرها أن يرمى عندهم بالجنون والخلل المفرط، لتواترها بينهم» - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخير 40:6
سيف	القرن 8-9 هـ = 14-15 م	ثريا منقوش، سيف بن ذي يزن بين الحقيقة والأسطورة 90 وعبد الحميد يونس، الحكاية الشعبية 91 وفؤاد حسنين، قصصنا الشعبي 59 ويستند هذا الرأي، إلى أنّ السيرة تسورد الملك الحبشي سيف أرعد (1334-1372 م) بوصفه أحد أبطال السيرة.
الظاهر بيبرس	القرن 13 هـ = 19 م	بدلالة كون السيرة، توردها تاريخياً معروفة وقعت في نهاية القرن التاسع عشر مثل ثورة عرابي وولاية الخديوي عباس حلمي (1313-1895) على الرغم من أن أحداث السيرة تبدأ في خلافة المقتدي بالله (467-487 = 1074-1094).

الحبشي «سيف أرعد» الذي حكم الحبشة في القرن الرابع عشر الميلادي . وتشير سيرة عترة إلى مدينة بغداد والأندلس في سياق أحداث قبل الإسلام، وتجعل سيرة الظاهر بيبرس، صلاح الدين الأيوبي (589 = 1193) معاصراً للخليفة المقتدر (320 = 932) وتقرر أن وفاته، كانت عام 752، وتؤكد أن الأصمعي (216 = 831) قد فرغ من تأليف السيرة سنة 473 هـ، وأنه عاش في الجلمة 670 سنة.

إن ما يمكن تقريره هنا، أن تلك الآراء، كانت تهدف إلى تأصيل المرويات السيرية في التاريخ، لا التبحر في ماهيتها، ويفترض البحث في مرويات ذات أصول غامضة، القول، هنا، إن صورها الشفاهية كانت تتغير، تبعاً لتغير عصور روايتها. ومن المؤكد أن التداول الشفاهي كان يحذف منها ويضفي عليها، كثيراً من الوقائع، وتلك صفة ترافق المرويات الشفاهية عموماً.

ب - الإنشاد:

لإنشاد السير الشعبية، تقاليد شبه ثابتة، وصفها الباحثون، وفيها يقوم المنشد بقراءة جزء من أجزاء السيرة في مكان ما، وقد ترافق القراءة الموقعة، مقاطع موسيقية على بعض الآلات كالربابة والجوزة، وكانت هذه التقاليد معروفة على نطاق واسع إلى منتصف القرن العشرين في كثير من المدن العربية، ويحث فيها المنشد - الذي يعد هنا راوياً - مستمعيه للمشاركة الوجدانية في الأحداث التي ينشدها، ولا يلتزم حرفياً بالمرويات المدونة خطأً لديه، إنما يتصرف بما يروى تبعاً لحالة الانفعال التي يثيرها في المتلقين، ويستعين أحياناً، لتعميق الإحساس بصدق الواقعة - ببعض قطع السلاح كالسيف، فيوميء به، طاعناً مساعديه الذين يقومون برفقته في بعض المقاطع بتحويل الرواية إلى مقاطع لتمثيل الأحداث، ولما كانت متون السير ضخمة، كان الإنشاد يستمر عدة أشهر، يستأنف فيه المنشد، كل مساء، الإنشاد، من حيث انتهى في الليلة الماضية، وكان المنشدون يتخصصون برواية سيرة معينة، وينسبون إليها، كـ «العناترة» و«الهلالية» و«الظاهرية» و«البوزيدية»، وكانت صناعة الإنشاد مزدهرة في كثير من البلاد العربية، وفي القاهرة، على سبيل المثال، كان لها «نقابة لها شيخ يرأسها، ويشرف على مصالحها، ومصالح أفرادها، ويشجع على رواجها»<sup>(1)</sup>، وكانت مهنة الإنشاد وراثية، تعتمد على المشافهة<sup>(2)</sup>.

يمثل المنشد راوياً مفارقاً لمرويه في السير الشعبية، فيما يمثل المتلقي نوعاً من المروي له، وبينهما يتشكل متن المروي، ويصف باحث عربي عملية تكون المروي، قائلاً: «تعتمد التنغيزات التي يحدثها الراوي في النص كثيراً من الأوصاف النمطية المحفوظة عن وصف البطل وهي كثيرة، ويمكن أن يضيفها لأي بطل من أبطاله، وكذلك صورة الجوّ،

(1) عبد الحميد بونس، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي القاهرة 123.

(2) حول تقاليد الإنشاد، وصناعاته، نحيل على المصادر الآتية: عبد الحميد بونس: دفاع عن الفلكلور 151 والحكاية الشعبية 58 والهلالية في التاريخ والأدب الشعبي 153 وفاروق خورشيد السير الشعبية العربية 26 ونوري حمودي القيسي، محاولات في دراسة اجتماع الأدب 168-172 ونزار الأسود، الحكواتي في دمشق - مجلة المأثورات الشعبية 18/1990 ص 55-63.

تتكرر في المواقف، تطول وتقصّر حسب إحساسه برغبة جمهوره الذي يشترك في عملية الأداء، اشتراكاً فعلياً. فالنص الشفوي يعاد تأليفه ساعة الأداء، ويتم في عملية جدلية بين الراوي والمتلقي، إذا لم تتم عملية التفاعل، فإن النص يسقط، فكل النصوص التي بين أيدينا هي بصورة أو بأخرى، تأليف تم ساعة تسجيل النص أو ساعة أدائه، تأليف لا يبدأ من فراغ، وإنما من تقاليد متوارثة. فالسيرة التي تطول طولاً متسعاً ليس من السهل أن يحفظها الراوي بكاملها، إنه يحفظ الأساس ثم يبني عليه بناءً جديداً من وصفه وحسه، وتتم عملية تداخل لمحفوظه، وما يمكن أن يتولد ساعة الأداء، فهو يصوغ عالماً متكاملًا من خلال تقاليد عالمة الذي يعرفه، ويشترك في معرفته جمهوره الخاص، ويأخذ النص في التوالد والبناء، ليتكامل نصاً لنوع أدبي اسمه فن السيرة<sup>(1)</sup>. ويورد نمطين من الرواة، أولهما: الراوي الأصلي وهو «الذي يحترم الرواية التي يرويها، ويحترم جمهوره» وثانيهما: الراوي المزيف وهو «الذي لم يدرّب تدريباً كافياً فيقف قبل أن يتم تدريبه أمام الجمهور، فهو هنا يخدعهم»<sup>(2)</sup>.

تكشف علاقة الراوي المنشد بالمتلقي، عن توفر ظروف مناسبة لإضافة أحداث إلى متون السير أو حذفها منها، وتقاليد الإنشاد، وحاجات التلقي هي التي تتحكم بضخامة تلك المرويات، وهي السبب وراء ظهور أحداث متأخرة كثيراً عن عصر البطل، ولكن تلك التقاليد، من جهة ثانية، هي التي جعلت عوالم تلك المرويات شبه متماثلة، سواء في أفعال الأبطال، أم في البنى السردية لمتون تلك المرويات، وهو ما سنقف عليه في التحليل الفني لتلك السير في الفصل الآتي.

---

(1) أحمد شمس الدين الحجاجي، مصادر الراوي والرواية في السيرة الشعبية العربية، مجلة المانثورات الشعبية 1989/15 ص 80.

(2) م.ن. ص 75.



## الفصل الثاني

### البنية السردية للسيرة الشعبية

#### 1 - وظائف الرواة :

تكثر السير الشعبية من إيراد مصطلح «الراوي»، دلالة على من سمع قولاً ما، وقام بروايته على الوجه الذي قيل فيه. وتورد أحياناً مصطلحات رديفة، تحيل على الراوي أيضاً مثل «المؤلف» و «المصنف» و «الناقل» و «الراوي المؤلف»<sup>(1)</sup>.

إن استعمال المصطلح بغير دلالة، أمر شائع في السير الشعبية، ولم يقتصر ذلك على «الراوي» بل تعداه إلى «السيرة» نفسها، فقد حلت مصطلحات كثيرة مثل «الإيراد» و «الكلام» و «التيبان» و «الأخبار» و «المقال» و «النظام» و «الديوان» و «القول» و «القول المجمع» و «الحديث الغريب» و «الكلام العجيب»<sup>(2)</sup> محل مصطلح «السيرة»، على الرغم من الاختلاف الواضح في الجذور الدلالية بينها وبين مصطلح «السيرة»، وهو ما يؤكد، أن منشدي السير الشعبية، كانوا يفتقرون إلى الدقة، ولا يعنون بها، ويوردون مصطلحات مختلفة للدلالة على شيء واحد.

يرتبط المرويّ السيري بالراوي، وعنه يصدر إلى المروي له، ولذلك فهو أداة لتشكيل نسج ذلك المروي. ومما يميز به الراوي في السير الشعبية، أنه يعيد إنتاج مروي، إلى متلقين تلقوه من رايّ قبله، وهو بذلك يحل لفظه محل لفظ الذي سبقه، ويورد متناً مرناً رواه غيره، في ظل بني ثقافية متغيرة، تبعاً لتغير مكان الرواية وزمانها، وفي كل هذا، إنما يروي عن رايّ أصلي يتصف بصفات الراوي الأول الذي كان شاهداً على الواقعة المروية. وفيما يعلن الراوي في السيرة عن حضوره، فإن الراوي الأول يظلّ متخفياً، يتجنب الإشارة إلى نفسه، ولا يعني إلا بما شاهد من وقائع. وبذلك فالراوي في السير الشعبية شأنه شأن الراوي في المرويات السردية الشفاهية، ينتظم في نمطين: رايّ مفارق لمرويّه، يتدخل دائماً فيما يروي، ورايّ متماء بمرويّه، يترك للمروي أن يروي دونما تدخل مباشر فيه. وينبغي الوقوف

(1) سيرة عتر بن شداد 226:9، 356:11. سيرة الظاهرة ببيرس 12:1.

(2) سيرة عتر 127:2، 189:3، 18:7، 86:8، 227:9، 242:10، 135:30 وسيرة الظاهر 408:7.

على وظائف كل منهما، وأثره في البنية السردية لتلك المرويات .

## أ - وظائف الراوي المفارق لمرويه :

(1) وظيفة اعتبارية: يقوم الراوي المفارق لمرويه، بتحديد الأهمية الاعتبارية للسيرة، وذلك بإضفاء صفات اعتبارية عالية الشأن على أبطال السير وأفعالهم، كما يلمس في فواتح السير الشعبية عامة، وما يتخللها من عبر وأحداث تنطوي على مقاصد محددة :

كقول الراوي «هذه قصة الأمير سيف بن ذي يزن مبيد الكفرة أهل الشرك والمحن في سائر الأمصار والدمن ومخمد الأسحار والفتن»<sup>(1)</sup>.

(2) وظيفة تمجيدية: إنَّ الراوي لا يأل جهداً في إضفاء كل ما يمجد السيرة التي يرويها، وذلك لمنح ما يروي أهمية خاصة، وإثارة حماس المتلقي، وتحتشد السير الشعبية بعبارة «السيرة العجيبة، المطربة الفائقة الغريبة» ومن أمثلة وظيفة التمجيد التي يقوم بها الراوي، ما ورد في سيرة «الأميرة ذات الهممة» قوله «يا لها من سيرة ما أعجبها، وفي الأحاديث ما أغربها»<sup>(2)</sup>. ثم يضيف «لم يرو في السير، ولا سمع في الخبر، مثلها، لوقعاتها نقلت عن أكابر المشايخ من بني كلاب، أهل العقل والصدق والأداب، المجاهدين في سبيل الملك التواب. وما كان الواثق يعمل من سماع هذا الحديث، ولا سيما هذا الفصل في نفي ظالم والبطال ورجوعهم إلى الديار والأطلال، فكان الواثق يطرب من هذا الحديث، غاية الطرب، ويتعجب منه غاية العجب»<sup>(3)</sup> ويختتم السيرة بقوله: «هذا ما انتهى إلينا من سيرة المجاهدين، وأبطال الموحدين رضوان الله عليهم أجمعين. ولقد قرأت في كتب الأولين والأخريين، فما وجدت ألدَّ من سماعها»<sup>(4)</sup> ويتردد الأمر نفسه في سير أخرى<sup>(5)</sup>.

(3) وظائف بنائية: يقوم الراوي المفارق لمرويه، بالوظائف البنائية الآتية:

أولاً: وظيفة تنسيق: فهو ينسق مرويات الرواة، ويجعلها متماسكة حول شخصية

(1) سيرة سيف بن ذي يزن 2:1 وانظر سيرة عترة 2:1 وسيرة الظاهر 2:1.

(2) سيرة الأميرة ذات الهممة 9:15.

(3) م. ن 68:22.

(4) م. ن 46:70.

(5) سيرة سيف 29:1، 38:6، 19:13، وسيرة عترة 62:1، 304:4، 18:13، 183:15، 187:27 سيرة الظاهر

30:1، 83:2، 316:5، 388:7.



البطل، فالراوي في سيرة الأميرة. يصرح مؤكداً وظيفته هذه «أحببت أن أجمع سيرة تكون نزهة السامعين، لما فيها من الانتفاع لكل المطالعين، وأنا أسأل الله الإعانة على ترتيب هذا الكلام العظيم»<sup>(1)</sup>.

ثانياً: وظيفة استباق: وفيها يقوم الراوي بالإعلان عن أحداث ستقع، ولم يكن سياق السرد قد منحها تحققاً بعد. ومثال ذلك ما يورده الراوي في سيرة «عنترة» من أن «زبيبة» قد منعت عن نفسها، ولم ترض غير شداد معاشراً لها. «لأنها من نسل قوم كرام، وسوف نذكرها في تأصيل نسبتها، ونذكر سبب غربتها وفرقتها، ولكن نذكر كل شيء في مكانه بعون الله وسلطانه إذا وصلنا إليه»<sup>(2)</sup> وفعلاً ينسج الراوي، وحدة حكاية كاملة، بعد ثلاثة وثلاثين جزءاً، حينما يغزو عنترة الحبشة، بعد أن يصبح فارساً معروفاً وأنداك، يتدخل الراوي لكشف نسب أم عنترة، وفيما يستعد عنترة لمواجهة النجاشي، يقدم الراوي سر الانتساب بينهما «قال الراوي: وكان الملك النجاشي وهؤلاء الملوك، كلهم أولاد عم». وكانت أم عنترة زبيبة بنت النجاشي ملك الحبشان، وكان ملك الحبشان قد زوج أمها بالملك بسام، وهو أبو الملك همّام، وأن الملك النجاشي، هو جد زبيبة من الأبوين، ونسبهم إلى نوح عليه السلام، وقد غدر بزبيبة الزمان، وأحكم عليها القادر أن تقع في يد العربان، وأرسلها إلى بني عيس وعدنان، وأخذها شداد، وأتت منه بعنترة»<sup>(3)</sup>.

إن اكتشاف حقيقة النسب الذي يربط عنترة بالنجاشي ملك الحبشة، يؤدي إلى تغير في مجرى الأحداث في السيرة، إذ يتحول العدا إلى أقاء، ويتصل النسب بينهما، ويعود عنترة لخوض مغامرة جديدة.

تؤدي الأحلام أحياناً، دوراً مهماً في تحقيق الاستباق، فالرؤيا التي يراها عبد الوهاب في سيرة الأميرة، إذ يزوره الرسول، ويخبره بأن عقبة شيخ الضلال - الشخصية الشريرة التي تعاضد الروم ضد المسلمين - لا بد أن يصلب على أسوار القسطنطينية، بحضور خليفة المسلمين، ترد في الأجزاء الأولى من السيرة<sup>(4)</sup>، لكن تحقيقها لا يتم إلا في نهاية السيرة<sup>(5)</sup>، وعلى الرغم من المواقف الكثيرة التي ينجح فيها أبطال السيرة من المسلمين في القبض على

(1) سيرة الأميرة 1:3.

(2) سيرة عنترة 1:76.

(3) سيرة عنترة 34:402.

(4) سيرة الأميرة 26:40.

(5) م. ن. 77:70.

عقبة، إلا أن ظروف صلبه لا تتحقق طبقاً لما جاء في رؤيا عبد الوهاب، ويظل الاستباق مهمناً على أحداث السيرة، ولا يتأتى لأحد قتل عقبة، لُبُعه عن المكان المحدد في الرؤيا، وتتابع الأحداث وتتوالى الأجيال، ليتحقق أخيراً، ما بذره الاستباق، إذ يصبغ عقبة بحضور المعتصم، بعد مرور زمن طويل على الرؤيا - النبؤة التي تحدد مصيره.

يتحدد إطار الاستباق السردى، بعبارات يوردها الراوي، مثل «سنذكر كل شيء في موضعه» و «سنذكر ما به يتم الكلام» و «يكون لنا معهم كلام، إذا وصلنا إليه نحكي عليه». وجدير بالذكر - كما مثلنا في رؤيا عبد الوهاب - أنّ كثيراً مما له علاقة بالاستباق، تبذره النبؤات والأحلام وتوقعات الأولياء، وإرشادات الرجال الصالحين ذوي الكرامات، ممن يعاضدون البطل في مهمته، وتحشد السير الشعبيّة بالرؤى والنبؤات التي تؤدي هذا الغرض، ففي سيرة سيف على سبيل المثال، يتنبأ نوح، أنّ نسل حام لا بد أن يصبحوا خدماً لنسل سام، لأن الأول ضحك على عورة أبيه<sup>(1)</sup>، وتظل تلك النبؤة، توجه أحداث السيرة، إلى أن يقوم سيف بن ذي يزن الذي يرمز إلى أولاد سام، بقتل سيف أرعد الذي يرمز إلى أولاد حام، في «الركبة الكبرى» التي يجردها سيف ضد خصومه، وتستغرق ثلاث عشرة سنة وستة أشهر وسبعة وعشرين يوماً<sup>(2)</sup>، وبها تنتهي السيرة، إذ يتحقق الاستباق السردى الذي دارت حوله أحداث السيرة.

**ثالثاً:** وظيفة إلحاق: وفيها يقوم الراوي بإلحاق جزء من الحكاية، أو محور من محاور الأحداث فيها، بجزء كان قد قدمه من قبل، ومثال ذلك، أنّ الراوي في سيرة عنتره، يصف ظهور شخصية «الجوفران» على النحو الآتي: «وكان السبب في طلوع الجوفران وفي هذه الأحوال، وأصل هذا القتال، سبباً عجيباً، وأمرأ مطرباً غريباً، لأنه هو وأخواته، أصل هذه السيرة وأخبارها وفروعها، وبسبب أبيهم كان وقوعها حتى تكتمل لهم لذة الكمال»<sup>(3)</sup>. ويتضح أنّ الجوفران، هو أحد أبناء عنتره، يظهر بعد موته، وهو ابن الجارية التي طلب إليها القيصر أن تحمل من عنتره، لكنها فرت، فيما بعد، مع كوبرت إلى إحدى الجزر النائية، وذلك حينما يذهب عنتره إلى الشام والقسطنطينية وبلاد الأندلس<sup>(4)</sup>. ولتوضيح العلاقة بين أحداث السيرة، يقوم الراوي بإلحاق جميع الوقائع الخاصة بحياة الجوفران في بلاد الروم، إلى أن يتعرف إلى أخوته مثل الغضنفر وعنتره<sup>(5)</sup>.

(1) سيرة سيف 16:1 و 29، و 21:3.

(2) سيرة سيف 57:17.

(3) سيرة عنتره 296:55.

(4) م. ن 320:48 - 108:51.

(5) م. ن 296:55 - 301.

وفي سيرة الظاهر بيبرس، يقوم الراوي، بإلحاق وحدة حكاية كاملة، تكشف الأصول الملكية لبيبرس<sup>(1)</sup>، في وقت أصبح فيه أميراً، وسياق الأحداث يمنحه فرصة بعد أخرى، ليكون سلطاناً لمصر.

يؤطر الراوي الوحدات الحكائية التي يلحقها، بسياق أحداث سابقة عليها، وترتبط بها ارتباطاً عضوياً، بعبارة محددة، مثل «وعدنا إلى سياق الحديث الأول» و «نرجع إلى الحديث» و «وسنرجع إلى سياق كلامنا الأول» و «وعدنا إلى ترتيب الكلام».

رابعاً: وظيفة توزيع: وفيها يقوم الراوي، بتوزيع محاور الوحدة الحكائية، حسب وقوعها في الزمان، أو حسب علاقتها بالشخصيات. ثم ينظم تتابع الوقائع في كل محور، بما يجعل وقوعها متوازياً، وكأنها تحدث في زمن واحد. ويتم ذلك، بأن يورد الراوي، مشهداً يخص البطل ومعاضديه تارة، والخصم ومعاضديه تارة أخرى، لكشف استعداد الجانبين لملاقاة الآخر. وتبنى متون السير عامة، بتوجيه من التوزيع المنظم للأحداث التي يقوم بها الراوي. لأن الانتقال بين الفئات المتصارعة، ضرورة لازمة، من ضروريات البنية السردية للسير الشعبية، كون هذا النوع القصصي، لا يتكون إلا بوجود خصوم، يختلفون فيما بينهم، اختلافاً عرقياً ودينياً، ويحتم كشف هذا التناقض توزيعاً في المشاهد السردية بين فتي الخصوم، على نحو يكشف موقف كل منهما بصورة جلية. ففي سيرة الأميرة وعتره وبيبرس وسيف وبنو هلال، يفرد الراوي مشاهد تصف أبطال السيرة من العرب المسلمين، وأخرى تصف أبطال السيرة من روم وفرنس وأحباش وأقوام وثنية أخرى تعبد النار أو الأوثان.

يستعين الراوي، وهو يؤدي وظيفة توزيع الأحداث والوقائع، بعبارات تسهل القيام بهذه المهمة، مثل «هذا ما كان من أمر هؤلاء، وأما ما كان من أمر...»، ويورد أحياناً تفصيلاً مفيداً كأن يقول «هذا ما كان من الملك بعلبك وما جرى له، وأما ما كان من الملك ذي يزن، فإنه بعد هروب الملك بعلبك من قدامه، احتوى على جميع ماله»<sup>(2)</sup> وقد ينص الراوي إلى أن الأحداث ستطور في محورين، فيقول: «يا سادة يا كرام: ومن هنا ينقسم الحديث، حتى لا يجوز الغلط في الكلام»<sup>(3)</sup>.

(4) ووظيفة إبلاغية: وفيها يقوم الراوي المفارق لمرويّه، بنقل حديث الراوي المتماهي بمرويّه، بوصفه شاهداً على الوقائع، وتأتي الصياغة الإبلاغية، باستخدام أسلوب

(1) سيرة الظاهر 6:349-356.

(2) سيرة سيف 1:2.

(3) سيرة الأميرة 13:7.

السرد المباشر، ففي سيرة الأميرة، ينقل الراوي الأول عن الثاني قوله: «ولقد سألت الأمير أبو محمد (= البطال)، وقلت له: كيف كان خلاصكم؟ قال: إنه لما لقي الملعون شومدرس الطاحون على باب المظمورة...»<sup>(1)</sup>. وقد يدعي الراوي المفارق لمرويه إنه شاهد الوقائع بنفسه، كما يرد على لسان الأصمعي، في سيرة عنترة، وصفه الحرب بين الفرس وبني عيس، قوله «ولقد كنت صغيراً في هذه الواقعة ولها ناظر فقاتلت بنو عيس ذلك الجمع الكثير، وما قصرت، وحمى حريمها وما تأخرت»<sup>(2)</sup>، أو قوله «وقد اجتمعت على عنتر مراراً عديدة، فما رأيت قط، يسجد لصنم ولاهتك حرم، وما كان يحلف إلا برب البيت الحرام، وكان عنده يقين بظهور سيد المرسلين»<sup>(3)</sup>. وقد يورد الراوي المفارق لمرويه، حديثاً أخذه عن شاهد عيان، مثل «وقال الأصمعي: لقد أخبرني من أتق به، واعتمد في كلام الصدق عليه وهو أنني صادق في حديثي هذا، ولا قلت إلا حقاً، ولا تكلمت إلا صدقاً، وقال لي: يا أصمعي: إني كنت في هذه الواقعة حاضراً وناظراً، ولقد شاهدت بعيني، فرأيت العجائب، وقد رويت على قد جهدي، واقتصرت غاية الاقتصار»<sup>(4)</sup>.

(5) وظيفة تأويلية: وفيها يقوم الراوي المفارق لمرويه، بإيجاد علاقة ما بين ما يروي والبنية الثقافية للمرجع، من أجل شحن الخطاب بدلالته المطلوبة في زمن روايته.

إن أمرين اثنين يوفران للراوي أسباب وظيفته التأويلية، أولهما: عدم وجود مؤلف ترجع إليه ملكية السيرة، وثانيهما: التداول الشفاهي المتواتر للمرويات السرية. وهذان الأمران، مكنا الراوي، في كل زمان ومكان، أن يجري إضافات كثيرة لتلك المرويات، تتناسب والظروف الموضوعية التي تروى فيها.

إن «الانزياحات الدلالية» المستمرة، تحدث نتيجة التغير الحاصل في البنية الثقافية للمرجع، من ناحية، وأهداف الرواة الذين يتعاقبون على رواية المتن من ناحية ثانية، الأمر الذي يتيح للراوي المفارق لمرويه، إضفاء رؤيته الخاصة، وموقفه الفكري على المروي، كلما رأى ضرورة لذلك، دون مراعاة تدعوه لعدم الإخلال بالمروي الذي يرويه. ذلك أن الرواية، تجري في مناخ شفاهي، لا يراعي الدقة في الإرسال، سواء من جهة الراوي أم من جهة المتلقي، بل يراعي حالة الانفعال التي يحدثها المروي في نفوس المتلقين وليبان الوظيفة التأويلية للراوي، تقف على نماذج تدلل عليها.

(1) م. ن. 69:14.

(2) سيرة عنترة 10:273.

(3) سيرة عنترة 10:278.

(4) م. ن. 368:18.

إن الرواة يقدمون أبطال السير، بوصفهم حماة الإسلام، أو دعاة له، على الرغم من أن بعض أبطال السير عاشوا وماتوا قبل الإسلام مثل سيف بن ذي يزن وعنترة بن شداد. وبقدر تعلق الأمر بهاتين الشخصيتين، فإن الرواة، يجعلون عنترة داعية للدين الجديد، ومدشناً لظهور الرسول في الجزيرة العربية، وهو الذي يخوض حروبه لإحلال الإيمان محل الكفر. ويجعلون سيفاً حاملاً لواء «الحنفيّة» بين الوثنيين عبدة زحل، ويقود جيشاً جراراً، قوامه ثمانية عشر مليوناً من المقاتلين، ليحول العالم من الكفر إلى عبادة الله. قائلاً «أنا قصدي أظهر الأرض من الكافرين، وإذا كانت بقعة من الكافرين، أحاربهم حتى يؤمنوا بالله رب العالمين»<sup>(1)</sup>، وما إن ينجز سيف رسالته الدنيّة، حتى يعتزل الحياة في «قلعة الجبل» - وهي القلعة التي بناها صلاح الدين الأيوبي، بعد عصر سيف بما لا يقل عن ستة قرون في القاهرة - ولما يموت يدفن جوار القلعة، وقد كتب على قبره «هذا قبر الملك الجيوشي، رحمة الله تعالى عليه وعلى من مضى من أموات المسلمين»<sup>(2)</sup>. والأمر ذاته يحصل مع عنترة، فهو بطل قومي وديني، يطهر الجزيرة من الأوثان، ويواجه كسرى والنجاشي، ويعود مظفراً وقد تحققت الرسالة التي يناقشها.

أما الوقوف على نماذج لأبطال السير الأخرى، كالأميرة ذات الهمة، والظاهر بيبرس وأبي زيد الهلالي، وهم عاشوا تاريخياً في ظل الإسلام، فإنه، يكشف، أن الرواة جعلوا هؤلاء الأبطال، يقاتلون الروم والفرس والهنود والصينيين واليهود والمجوس، ويقومون بمغامرات داخل الممالك الصليبيّة والمجوسية، الأمر الذي يستدعي إلى الذهن صور المواجهة العربية - الإسلامية من جهة، والرومية - الفارسية من جهة أخرى.

إن الراوي الذي يؤول متون السير، طبقاً لبنيته الثقافية، وليس للظروف التاريخية التي ظهر البطل فيها، ويستدعي من التاريخ، شخصيات اتصفت بصفات الشجاعة والبطولة، ليضعها في مواجهة أحداث، متأخرة كثيراً عن عصرها، إنما يقوم في حقيقة الأمر، بـ «إعادة إنتاج» لمرويات معينة، بما يوافق عصره ورؤيته للعالم الذي يعيش فيه. وهذا «التمدد الدلالي» لتلك المرويات هو السبيل الوحيدة، لأغنائها وتخصيها، وإضفاء مزيد من الأهمية عليها.

## ب - وظائف الراوي المتماهي بمروية :

(1) وظيفة وصفيّة: وفيها يقوم الراوي، بتقديم مشاهد وصفيّة للمنازلات وأعمال

(1) سيرة سيف 43:17.

(2) م. ن. 66:17.

الفروسيه، دون أن يعلن عن حضوره، بل إنه يظل متخفياً، وكأنّ المتلقي يراقب مشهداً حقيقياً، لا وجود للراوي ولا حضور فيه، وحقيقة الأمر، أنّ الراوي لا يتنحى في مشاهد الوصف، لكنه يحتجب إلى حد ما، ولا يعنى بإظهار موقفه من الأحداث أبداً، فيتيح للروائي، أن يتشكل في صفاء بعيداً عن تأملات الراوي وآرائه .

يستعين الراوي المتماهي بمرويّه، بأسلوب السرد الموضوعي (= الأسلوب غير المباشر) ووصف كل ما يتعلق بالمشاهد بحياد، ذلك أن المشاهد الوصفية، تتطلب عرضاً للموقف، دونما تدخل مباشر من الراوي ومثال ذلك منازلات الخصوم والأعوان التي تحتشد بها السير، وتؤلف جزءاً كبيراً من متون تلك المرويات .

(2) وظيفة توثيقية: وفيها يقوم الراوي، بتوثيق بعض مروياته، رابطاً إياها بمصادر تاريخية، زيادة في إيهام المتلقي، إنه يروي تاريخاً موثقاً، ومثال ذلك ما يرد في متون السير عامة، من التأكيد المستمر، بأن هذه السير تنتمي إلى رواة مشهورين: كالأصمعي ووهب بن منبه وأبي عبيدة وجهينة اليميني وغيرهم .

(3) وظيفة تأصيلية: وفيها يقوم الراوي، بتأصيل مروياته في التاريخ والثقافة العربية، ويجعل منها أسفاراً للصراع القومي والديني، ويربطها أحياناً بالمآثر العربية المعروفة في الانتصار على الخصوم، مثل معارك الفتوح الإسلامية، والمواجهات العربية الرومية، والحروب الصليبية التي انتصر فيها العرب المسلمون على الصليبيين .

## 2- بنية الوحدة الحكائية :

نرى «الوحدة الحكائية»، بأنها: سلسلة الأفعال المتعاقبة التي يقوم بها بطل السيرة لإشباع حاجة ما، مادية كانت أو معنوية، وتستدعي رحيلاً عن المكان الذي يقيم فيه، والذهاب إلى مكان خصومه، والدخول معهم في مواجهة، وعودته ظافراً إلى مكانه، وقد أشبع الحاجة التي دفعته للرحيل .

إنّ الرّوق على بنية «الوحدة الحكائية» بوصفها فعلاً متكاملًا يقوم به بطل السيرة، يوجب انتخاب عدد من الوحدات الحكائية، تكون موضوعاً مباشراً للتحليل، ذلك، أنّ متون السير الشعبية، تتكون من عدد كبير من الوحدات الحكائية المترابطة بشكل متتابع . تكوّن بمجموعها متون تلك السير . وقد جرى انتخاب خمس وحدات حكاية من بين عدد كبير من الوحدات، وأخضعت للتحليل الذي يهدف إلى كشف المنطق الداخلي الذي يحكمها . ويبان العناصر المكونة لها . ولأنّ تلك الوحدات الحكائية متناثرة في متون السير العربية

الكبرى، وجدنا من اللازم، لضرورات البحث أن نلخص أحداثها بصورة مكثفة، لينضح التحليل اللاحق الذي يقوم على مكوناتها - وهو ما لم نقم به في الحكاية الخرافية، ولن نلجأ إليه في المقامة، كون النصوص المدروسة، يمكن الاطلاع عليها في مظانها بسهولة، عكس الوحدات الحكائية في السير الشعبية، لأنها تندرج في متون ضخمة وغير مفهومة - .

## أولاً: الخلاصات:

(أ) في سيرة الأميرة ذات الهمة، تشفى الأميرة من مرض ألمّ بها، إثر فتحها مدينة ملطية (= البؤرة المكانية لأحداث<sup>(1)</sup> السيرة). وكان القائد الرومي كوشناوش قد مضى إلى بغداد والبصرة، ملاحقاً جيوش المأمون الفارة أمام جيشه، وقد خلف وراءه أبناء الأميرة واتباعها، أسرى في قلعة «الشیطان». ولهذا، تنتهز الأميرة فرصة ابتعاد كوشناوش، لتحرير اتباعها من الأسر، ومن بينهم ولدها عبد الوهاب وأولاده ومساعدتها البطال، فتقود لهذا الغرض جيشاً من بني كلاب قومها، وتتوغل في بلاد الروم. وتصل القسطنطينية. حيث يعلمها «يانس المتعرب»، أنّ كوشناوش أسر «ميخائيل» ملك القسطنطينية مع أولادها في قلعة «الشیطان»، وأنه لا بد من تحرير الجميع من الأسر، فيقودان معاً، جيشاً واحداً، ويتجهان صوب القلعة الحصينة، وفيما هما يحاولان اقتحام القلعة، يلتقيان صدقة أبا محمد انطال، الذي استطاع الهروب من الأسر، ويروي لهما ما يدور في القلعة، إذ إن كوشناوش ترك أحد قواده لحماية القلعة، ويدعى «صليبا» وكان هذا قد تزوج قسراً «مليكة» التي كانت تحب «ميخائيل» ملك القسطنطينية، وحالما ترى مليكة «ميخائيل» بين الأسرى، حتى تتعلق به ثانية، وتقرر زيارته في الأسر. وتمارض، فتخبر زوجها أن شفاءها لا يكون إلا بطعام من لحم أسد أحمر، وعليه الخروج لصيد ذلك النوع من الأسود، وتتصل بزوجة حارس السجن، الذي هو سرداب مغمور تحت الأرض، وتغريها بالمال والجاه، إن هي مكنتها من اللقاء بميخائيل، ويتم لها ما تريد، فتهبط حيث يعتقل الأسرى، وتلتقي «ميخائيل» وسط الأسرى العرب، فيطلب إليها أبو محمد البطال، أن تساعد في الخروج، شرط تسهيل زواجها من «ميخائيل»، ويتفقون جميعاً على ذلك، وتفك أيديهم من الأغلال، ويعثر البطال على منفذ، يقضي إلى خارج أسوار القلعة، وفيما يفلح في الخروج، يلتقي هناك الأميرة ويانس المتعرب، وقد أحاطوا القلعة بجيوشهما، وبمساعدة البطال، تدخل الجيوش القلعة

---

(1) نصلح بـ «البؤرة المكانية» على المكان الذي يطلق البطل منه، لإنجاز مهمة ما، والعودة إليه، وقد أنجز تلك المهمة.

وتحرر جميع الأسرى ويقتل جميع من فيها باستثناء مليكة التي تزوج «ميخائيل» ويرحل الجميع صوب القسطنطينية، حيث يعود ميخائيل إلى عرشه، وفي هذه المرحلة من الأحداث، يبلغ كوشناوش نبأ ما جرى خلف جيشه، وكيف حرر الأسرى من القلعة، فيفك حصاره عن البصرة، ويقرر العودة لمواجهة الأميرة وابنها عبد الوهاب وأحفادها وتقع بين الخصمين منازلة، يقتل فيها إبراهيم حفيد الأميرة، وتؤسر هي، لكن عبد الوهاب يتنازل كوشناوش ويتغلب عليه، ويتركه صريعاً، وينتصر على جيشه، وبنهاية المعركة، يعود الكلابيون إلى ملطية منتصرين بقيادة الأميرة<sup>(1)</sup>.

(ب) في سيرة سيف بن ذي يزن، يطلب الملك أفرح «حلواناً» لابنته شامة من سيف الذي ينوي الزواج منها. دون أن يعلم أن تلك مكيدة، دبرها سقرديون، أحد أتباع ملك الحبشة سيف أراع، للتخلص من سيف بن ذي يزن، ويشترط الملك أفرح أن يكون حلوان ابنته كتاب «تاريخ النيل» الذي لا يعلم سيف مكانه، ويتمكن حائز هذا الكتاب، من تغيير مجرى النيل، إلى أي جهة يشاء، ولهذا يحاول ملك الحبشة الحصول عليه، لتحويل مجرى النيل عن مصر.

يفادر سيف، مدينة الملك أفرح، على غير هدى، ويمر عرضاً بصومعة الشيخ «جيهاد»، أحد الأولياء الزاهدين، فيعلمه أنه سيكون ملكاً عظيماً، وأن اسمه ليس «وحش الفلاء» - ولم يكن قد سمي باسمه المعروف بعد - وإنما يدعى الملك، سيف بن ذي يزن. ويمضي سيف الليلة في صومعة الشيخ، ويسلم على يديه، فيخبره الشيخ، أن الكتاب الذي يبحث عنه موجود في مدينة «قيمر» وأن ملكها «قمرون» قد حصنها بالأرصاد والسحر، وهي بعيدة، تقع خلف بحار شاسعة. ولا وسيلة للوصول إليها، إلا بركوب دابة متوحشة، تزيد التهام الشمس، فتلاحقها منذ شروقها إلى حين غروبها، وحالما تصل الشاطئ وقت الغروب، وقد أعيها التعب حتى تضرب رأسها على صخوره، وتنام طوال الليل، وحالما تشرق الشمس، تلاحقها مجدداً إلى أن تبلغ شاطئ البحر من الناحية الأخرى، وتجدد ذهابها ورجوعها كل يوم، في محاولتها التهام قرص الشمس. وليس أمام سيف وسيلة سوى الاختباء على ظهر تلك الدابة لتقلبه إلى ما وراء البحار صوب مدينة قيمر. ويتم له الأمر طبقاً لما أخبره به الشيخ، وحالما يصل مكاناً قريباً من المدينة حتى يلتقي «طامة» ابنة الحكيمة «عاقلة» في انتظاره، وقد أعلمتها أمها، وهي التي تشرف على السحرة المكلفين بحماية المدينة، وأن الأقدار ستجعلها في المستقبل زوجة لملك يدعى سيف بن ذي يزن، وهكذا

(1) سيرة الأميرة 32: 51-7.



تتخفى بزى فارس، وتنازل سيفاً، فيتصر عليها، وتكشف له حقيقة نبوءة أمها، وأنها تخفت بزى فارس لتتحقق من صحة النبوءة، التي تؤكد أن سيفاً سينتصر عليها وستكون زوجة له وتخبره أنه لا يمكن دخول المدينة، لأنها مرصودة من شخص آلي مسحور، يكشف وجود الغريب ويعلن عنهم، وأن المدينة حصينة، ويشرف على حراستها ثلاثمائة وستون ساحراً، لكل يوم ساحر، خوفاً من سرقة كتاب تاريخ النيل، وأن لا سبيل للبليغ المدينة، سوى الوقوف بجوار البرج العاشر من أبراجها، والدخول في صندوق يجده معلقاً هناك، يدخل فيه ويده برجليه، فتقوم أمها الحكيمة عاقلة - بإلقائه داخل المدينة، بوساطة آلة تشبه المنجنيق. ترفع الصندوق، وتقذفه إلى الداخل، دون أن يمس الأسوار. وبهذه الطريقة يدخل سيف مدينة قيصر، ويختفي في بيت الحكيمة عاقلة، التي تنازعتها رغبتان: الإخبار عنه، كونها المسؤولة عن حماية المدينة، أو التستر عليه، لأنه سيكون زوجاً لابنتها، طبقاً للنبوءة. وفيما يكون سيف في البيت، يعلن الشخص الآلي عن وجود شخص غريب في المدينة جاء لسرقة الكتاب، ويبدأ البحث عنه، لكن الحكيمة عاقلة، وقد اختارت أن تنقله، تتبع أساليب سحرية لإبطال جميع المحاولات الهادفة إلى العثور عليه، وتبتكر طرقاً متعددة، تسفّه فيها ما يقوله السحرة عن وجوده في المدينة، فمرة تلفه بجلد سمكة، وتشد عليه مخالب طير، ومرة تلفه بجلد غزال، وتشد عليه أجنحة نسور وثالثة توقفه في هاون مملوء بالدم، وتضلل السحرة، كلما حاولوا بحضور الملك، أن يعثروا على الغريب، أو يقدموا وصفاً له. وتعمل في الوقت نفسه، على تسهيل مهمته في الحصول على الكتاب، وذلك بأن تغير صورته، وتجعله مرافقاً لها، في زيارتها الشهرية لمخبأ الكتاب برفقة الملك، لكن أمره يكشف حينما يرتفع صندوق الأبنوس المطعم بالفضة في الهواء، ويحط بين رجليه، الأمر الذي يدفع الحراس إلى إلقاء القبض عليه، وأسره بعيداً عن المدينة في «جب الهلاك» إذ لا أمل له في الخلاص، إلا الاستغاثة بالله، كما قال له الشيخ جواد من قبل. وحالما يستغيث سيف، إذا هو بـ «عاقصة ابنة الملك الأبيض» وهي أخته في الرضاعة، وكانت أمها قد أرضعت سيفاً في طفولته، حينما نبذته أمه في الصحراء، ويكون حضور عاقصة من أجل الانتقام لها من «المختطف الأقطع»، وهو الجني الجبار الذي أجبرها على الزواج منه، وتخرجه من جب الهلاك، شرط أن يخلصها من ذلك الجني، ويستطيع سيف أن يقتل الجني بوساطة السوط المطلسم، ويحرر أربعين جارية كان يحتجزهن في قصره. ويفرج برفقة عاقصة على المدن السبع العجيبة، ويحول أهلها إلى الإسلام، ويترك له نائباً في كل مدينة يحررها، ثم تتركه عاقصة جوار «جب الهلاك»، وتأتيه ثانية طامة، وتسهل دخوله إلى مدينة قيصر، مرة أخرى، متخفياً بقلنسوة، غنمها إبان جولته في مدن العجائب، ويستطيع بعد لأي، وتوجيه من الحكيمة عاقلة الحصول على الكتاب، وتطارده جيوش الملك

قمر، ولكنه ينجو من الموت، حينما يختفي على ظهر الدابة المتوحشة التي تنقله إلى الجانب الآخر من البحار، فيعرج إلى صومعة الشيخ جيد، ويبلغه بما جرى له، وفي تلك الليلة يموت الشيخ، فيدفنه سيف، ويعود حاملاً الكتاب إلى مدينة الملك أفرح، ويفاجأ بشوب حرب بين مساعده «سعدون الزنجي» من جهة، والملك أفرح وسقرديون من جهة أخرى، ذلك أنهما رغبا أن يزوجا شامة للملك سيف أرعد، لأنهما ظنا أن سيف بن ذي يزن قد هلك، لأنهما أرسلاه في مهمة مستحيلة، لن يعود سالماً منها، لكن سيفاً بحضوره المفاجيء يوقف الحرب، ويصلح ذات البين، ويروي لهم كل ما وقع له في رحلته إلى مدينة قمر<sup>(1)</sup>.

(ج) في السيرة الهلالية، يغادر أبو زيد «بلاد السرو» باتجاه «بلاد الحسب والنسب والقيطاف»، إثر علمه بوجود فرس تدعى «الحصا» هنالك، يرغب امتلاكها، فيخرج متكرراً إلى تلك البلاد، ويلاقي في رحلته، شيخاً راعياً قرب عين ماء اسمه «فارس» ويوهم أبو زيد، فارساً، أنه درويش من «القدس» كيلا يثير وجوده، الريب بأمره، وفيما يقدم الراعي الطعام لأبي زيد، يقوم هو بعمل «حجاب» له، ليتمكن امرأته العاقر من الإنجاب، ويظل يراقب عن كثب مكان الفرس التي تعود إلى الملك «حسين الجعبري»، ويجد أنها محروسة بعدد من العبيد الأشداء الذين يحمونها من السرقة، وفيما ينتظر أبو زيد، متخفياً جوار عين الماء، يقوم «مساعدة» ابن الوزير، بالاعتداء على «العليا» ابنة الجعبري، فتستغيث بمن ينجدها، ولا وجود لأحد في المكان سوى أبي زيد، الذي يهب لتجديتها، ويقتل ابن الوزير، ولما تسأله عن اسمه والهدف من وجوده، يخبرها بحقيقة أمره، وأنه قدم لاختطاف فرس أبيها، فتعده «العليا» أن تجلب له الفرس، لأنه أنقذها، ويعود إلى بلاده، وقد حقق مبتغاه. ولما يكتشف الوزير أن ابنه قد قتل، بتدبير من ابنة الملك، يبدأ حرباً ضده، لكن «العليا» تخبر أباه، بأن ابن الوزير حاول الاعتداء عليها، وأن أباه زيد أنقذها منه، وأنه وعدها أن يستجيب لطلبها ساعة تحتاج المساعدة، ويرسل الجعبري رسولاً، يخبر أبا زيد بالأمر، وتصل فرسان بني هلال، يقودها أبو زيد، الذي ينتصر للملك، ويقتل الوزير وأبناه، فيكرمه الملك، ويوجه ابنته «العليا»، فيعود إلى بلاده بالزوجة والفرس<sup>(2)</sup>.

(د) في سيرة عنترة، يخرج عنترة، مغادراً «أرض الشربة والعلم السعدي»، باتجاه ديار «بني رميش» طالباً الثار من الملك «الهلقيان»، لأنه قتل صديقه الأمير «بسطام» واستحوذ على أرملة. ويرافق عنترة أخوه شيبوب، وبعض فرسان بني عبس كعروة بن الورد وسبيع

(1) سيرة سيف 1: 45-2-58.

(2) سيرة بني هلال 168-187.

البن، وبعد أحد عشر يوماً، يقترب عترة من ديار بني رميش، فيجدها محمية بالفرسان الصناديد، وأن الملك الهيلقان، مسربل بالحديد كأنه الأسد الغضوب، فيرسل عترة أخاه، لاستطلاع المكان، وما أن يعود حتى ينصحه بأن لا يهاجم خصومه مباشرة، بل ينتظر خروج مواشيهم صباحاً، فيقوم بغنمها، وحالما يقوم الأعداء، بالخروج لاستعادتها، يبدأ عترة بالهجوم عليهم، ويتبع عترة ما أشار عليه شيبوب عمله، وتدور معركة شديدة بين الجانبين، ويقتل فيها الهيلقان، ويعود عترة منتصراً، وقد أخذ بثأر صديقه<sup>(1)</sup>.

(هـ) في سيرة الظاهر بيبرس، يرسل والي الشام، رسولاً إلى مصر، ليخبر السلطان بيبرس، أن أهل الشام يعانون من ظاهرة غريبة، وهي قيام مجهول باختطاف الأولاد والبنات، وحجزهم في مكان غير معروف، فيندب بيبرس نفسه، للوقوف على حقيقة الأمر، فيغادر «قلعة الجبل» ناحية الشام، وفيما هو يمر في أحد أحياء الشام يعترضه «نقيب الأشراف» أمام أحد المساجد، وقدلقى القبض على «حسن ابن الإمام»، منهماً إياه بخطف ابنته، لأنه وجدته يرتدي عباءة ابنته المخطوفة، ولما يستجوب بيبرس ابن الإمام، يخبره، أنه هو الآخر كان مختطفاً في مكن خفي يعود إلى امرأة فارسية تدعى «قمرستان». وأنه أفلح في الهرب، حينما سكر حراس المظمورة، ولأنه كان عارياً، لأنهم استولوا على ملبسه، فلم يكن أمامه، إلا طلب عباءة ابنة نقيب الأشراف، المحتجزة معه في المظمورة، وفيها هو قادم إلى الجامع لإخبار نقيب الأشراف بالأمر، اتهمه الأخير بأنه اختطف ابنته، وأنه إنما جاء ليدلهم على مكان الاحتجاز، ويستطيع بيبرس اقتحام المظمورة، ويحرر المختطفين، ويحرق قمرستان التي أرسلها ملك العجم، لتخريب ديار العرب، ويأمر بأن يتزوج ابن الإمام من ابنة نقيب الأشراف، ويباركهما، ويعود إلى «قلعة الجبل» مطمئناً<sup>(2)</sup>.

### ثانياً: مكونات الوحدة الحكائية:

يكشف الاستقراء الخاص بمكونات الوحدة الحكائية للسير الشعبية، عن وجود نظام داخلي، يحكم بنية الوحدة الحكائية، وسنعمل - اعتماداً على الخلاصات السابقة - على استخراج تلك المكونات، استناداً إلى تصنيف يهدف إلى استنباط المنطق الذي يوجه تعاقب تلك المكونات، لبيان درجة التماثل فيما بينها، الأمر الذي يدل على ثبات بنية الوحدات الحكائية في السير الشعبية العربية.

(1) سيرة عترة 277:47-284.

(2) سيرة الظاهر 139:23-141.

(1) في «أ»<sup>(1)</sup> تقرر الأميرة، تحرير ولدها وأحفادها من الأسر. وفي «ب» يقرر سيف الحصول على كتاب تاريخ النيل. وفي «ج» يقرر أبو زيد الحصول على الفرس «الحيصا». وفي «د» يقرر عترة الثار لسطام. وفي «هـ» يقرر بيبرس كشف أمر محنة اختطاف الأولاد والبنات في الشام، والاقتصاص من الفاعل. وكل هذا يدل على أن البطل، يتدب نفسه، لإنجاز مهمة محددة، يشبع فيها حاجة ما، تخصصه أو تخص بني قومه، تكون أحياناً مادية (فرس، كتاب) أو معنوية (ثار، تحرير أسرى، حل معضلة ما). وهذا الحافز يخلخل وضع الاستقرار الذي كانت الشخصيات تنعم به، ويغير حالة سكون الأحداث، ويوجب على البطل واتباعه مغادرة أرضهم.

(2) يتم الرحيل عن «البؤرة المكانية» بتصميم من البطل، فتغادر الأميرة «ملطية» في «أ»، وسيف «مدينة الملك أفراح» في «ب»، وأبو زيد «بلاد السرو» في «ج»، وعنترة أرض الشربة والعلم السعدي» في «د»، وبيبرس «قلعة الجبل» في «هـ».

(3) يكون اتجاه البطل محدداً، ففي «أ» إلى «قلعة الشيطان» وفي «ب» مدينة «قير» وفي «ج» بلاد «الحسب والنسب والقيطاف» وفي «د» ديار «بني رميش» وفي «هـ» بلاد «الشام».

(4) يحدد البطل خصمه، فيكون في «أ» كوشناوش وصليبا، وفي «ب» الملك قمرون، وفي «ج» حسين الجعبري، وفي «د» الملك الهيلقان، وفي «هـ» قمريستان. ولا يشترط أن يكون الخصم قد أذى بالبطل في هذه المرحلة من الأحداث، ولكنه يستطيع أن يشبع حاجة البطل التي دعتة للرحيل، ف «قمرون» في «ب» ليس خصماً لسيف، لكنه يصير كذلك، لما يرفض إعطاءه الكتاب، وحسين الجعبري في «ج» ليس خصماً لأبي زيد، لكنه صاحب الفرس التي يريد أبو زيد الحصول عليها.

(5) يستعين البطل بمساعدين، يسهلون له مهمته، وهم على فئتين:

أولاً : المساعدون الأساسيون، وهم يرافقون البطل طوال أحداث السيرة ويكاد يتكرر وجودهم في كل وحدة حكائية، كأبي محمد البطال في «أ»، وعاقصة ابنة الملك الأبيض في «ب»، ودياب في «ج»، وعروة بن الورد وسبيع اليمن في «د»، وشيخة جمال الدين في «هـ».

ثانياً : المساعدون الثانويون، ويتعددون طبقاً للوحدات الحكائية، ويلتقيهم البطل في

---

(1) الحروف تحيل على الوحدات الحكائية التي لخصناها من قبل.

رحلته، مثل مليكة في «أ» والشيخ جواد في «ب» وفارس في «ج» وحسن ابن الإمام في «هـ».

(6) إن المساعدين يعلمون البطل بحصانة مكان الخصم، ففي «أ» تكون القلعة حصناً منيعاً، يحرسه أربعة آلاف من البطارقة، ويوجد الأسرى في مخبأ تحتها، وفي «ب» تكون مدينة قيرمرصودة بالسحر، ومحصنة بالأبراج، ويشرف على حراستها السحرة والشخص الألي الذي يتحسس وجود الغرباء حال دخولهم المدينة. وفي «ج» تكون «الحيصا» محروسة بالعبيد، وفي «د» يحرس عشرة آلاف فارس ديار بني رميش، فيما يحرس المختطفين في «هـ» مجموعة من الحراس الأشداء، ويحتجزونهم في سرداب سري يصعب اقتحامه.

(7) إن المساعدين يزودون البطل، بالصفات الشخصية للخصم، ففي «أ» يكون صليبا كافراً، قبيح الصورة سريع الغضب وشجاعاً، وفي «ب» يكون قمرن قاسياً لا يعرف الرحمة، وفي «ج» يكون الوزير قوياً، وفي «د» يكون الهيلقان شريراً عابساً كالأسد المرسل بالحديد، وفي «هـ» تكون قمرستان، زانية ولا أخلاقية.

(8) يكشف المساعدون للبطل نقاط ضعف الخصم مما يمكنه من الانتصار عليه ففي «أ» تكره مليكة زوجها وتحب «ميخائيل» وفي «ب» تكون الحكمة عاقلة المسؤولة عن حماية المدينة، أمّا لزوجة سيف المنتظرة، وتضلّل السحرة بالأعيب عجيبة، تسهل مهمة سيف. وفي «ج» تجلب «العليا» بنفسها فرس أبيها إلى أبي زيد، وفي «د» يشعر الهيلقان بالذنب، ولوم قومه له، لأنه أقدم على قتل بسطام. فيما يكون سكر العياق في «هـ» سمة ضعف قمرستان.

(9) يستثمر المساعدون طبيعة علاقتهم بالخصم، لصالح البطل، ففي «أ» ترسل مليكة زوجها إلى الصيد، لثقتي الأسرى، وفي «ب» تخفي عاقلة سيفاً بأساليب متعددة في بيتها وتقتن الملك قمرن بجنون الحكماء والسحرة. وفي «ج» تستغل «العليا» علاقتها بأبيها، فتختطف الفرس وتسلمها لأبي زيد، وفي «د» يتنكر شيبوب حين الدخول إلى بلاد بني رميش، في حين ينتهز حسن بن الإمام في «هـ» سكر العياق، فيهرب من المخبأ.

(10) يحدد نوع المساعدة التي يقدمها المساعدون إلى البطل، ففي «أ» ترسل مليكة الأكل إلى الأسرى، وتعمل على فك قيودهم، وتزودهم بالسلاح، وفي «ب» تخفي عاقلة سيفاً في بيتها، وفي «ج» تجلب العلياً الفرس لأبي زيد، وفي «د» ينصح شيبوب عنترة بعدم الهجوم مباشرة على بني رميش، وفي «هـ» يقود حسن ابن الإمام بيرس إلى مطمورة إخفاء الأولاد.

(11) علي الرغم من الأهمية الفائقة لعمل المساعدين في مساعدة البطل، إلا أن ظروفًا مساعدة أخرى، تسهم في إنجاز مهمته، كوجود فتحة تقضي إلى القلعة في «أ»، ووجود الدابة الوحشية في «ب» واعتداء الأمير مساعد على «العليا» في «ج»، وخروج مواشي بني رميش في «د»، ولقاء بييرس نقيب الأشراف في «هـ».

(12) تقرب المكونات السابقة البطل إلى هدفه، فالأميرة تحرر الأسرى في «أ»، وسيف يحصل على الكتاب في «ب»، وأبو زيد يحصل على الفرس في «ج»، وعترة يثار لبطام في «د»، وبييرس يحرق المختطفين في «هـ».

(13) يعاقب الخصم بالموت غالباً، فالأميرة وأتباعها يقتلون صليبا في «أ»، وسيف يقتل معظم خصومه الذين يواجهونه مثل المختطف الأقطع وعبود خان في «ب»، وأبو زيد يقتل الوزير وأبناءه في «ج»، وعترة يقتل الهيلقان في «د» وبييرس يحرق قمرستان في «هـ».

(14) يكافأ المساعد بدوره في إنجاز مهمة البطل، إذ تتزوج مليكة ميخائيل في «أ»، ويدفن سيف الشيخ جيد بعد موته في «ب»، ويتزوج أبو زيد «العليا» في «ج» وتتمركز مكانة شيوب في بني عبس، ويستحسن رأيه في «د» ويتزوج ابن الإمام ابنة نقيب الأشراف في «هـ».

(15) فيما يعود البطل إلى «البؤرة المكانية» التي انطلق منها، يطرا ما يعوق عودته، في «أ» يعود كوشناوش، ولكن عبد الوهاب يقتله، وفي «ب» تصل جيوش سيف أرعد إلى مدينة الملك أفرح، لترتيب زواج شامة من الملك الحبيشي، وفي «ج» يعتدي مساعد على العليا، وفي «د» يلتقي جيش الملك قيس بن مسعود، بجيش عترة إثر قتل الهيلقان، وفي «هـ» يشغل بييرس بزواج ابن الإمام وابنة نقيب الأشراف.

(16) تتغير طبيعة العلاقات التي كانت تحكم الأحداث والشخصيات، فالانتصار على جيوش كوشناوش، يقضي إلى تقوية جبهة الثغور العربية مع الروم، في «أ» وجلب كتاب النيل، يبطل محاولات الإيقاع بسيف في «ب» وقتل الوزير يجعل الجعبري حليفاً لبني هلال في «ج» وقتل الهيلقان يقود إلى نوع من التحالف بين عبس وشيبان، في «د» وحرقت قمرستان، في «هـ» يجعل الأمن مستتباً في بلاد الشام.

(17) تغلق الوحدة الحكائية، بعودة الأبطال إلى الأماكن التي انطلقوا منها، فتعود الأميرة إلى «مطية» ويعود سيف إلى مدينة الملك أفرح، وأبو زيد إلى بلاد السرو، وعترة إلى أرض الشربة والعلم السعدى، وبييرس إلى قلعة الجبل. ويعود الاستقرار إلى الأحداث، إلى أن تظهر بواعت جديدة، تتطلب استجابة أخرى.

### ثالثاً: بنية الوحدة الحكائية :

يغذي تصنيف مكونات الوحدة الحكائية، البحث، بحقيقة مهمة، وهي أنها محكومة بمنطق صارم، يوجه بناءها، ابتداء من ظهور الحافز، وصولاً إلى إثبات الحاجة التي يتدب البطل نفسه لها. ويمثل الإنجاز الذي يقوم به البطل، لب الوحدة الحكائية، ومحورها الدلالي الذي يوجه مكونات الوحدة. ولتحقيق ذلك الهدف، يستعين البطل وخصمه بفتح من المساعدين، ويمكن التعبير عن محور الوحدة الحكائية، وأركان الصراع فيها بالمسرد الآتي :

الوحدة الحكائية	البطل	المساعدون	الهدف	الخصم	المساعدون
أ	الأميرة ذات الهمة	البطل، مليكة يانس المتعرب	تحرير كوشناوش والأسرى	كوشناوش وصليبا	السجان، البطارقة.
ب	سيف بن ذي يزن	عائلة، عاقصة الشيخ جياذ	كتاب تاريخ النيل	قمرن	الشخص الآلي السحرة
ج	أبو زيد الهلالي	العليا، فارس	الفرس	الوزير	أبناء الوزير
د	عترة بن شداد	شيوپ، عروة بن الورد	نار	الهيلفان	الجنود
هـ	الظاهر بيبرس	حسن بن الإمام	إنهاء اختطاف الأولاد	قمرستان	العياق

إن كشف البنية السردية للوحدة الحكائية، يتطلب الوقوف على كيفية توالي وقائعها في الزمن، فالزمن هو العنصر الذي يضيظ نظام توالي الوقائع، والوسيلة التي بواسطتها، يمكن الكشف عن بنية الوحدة الحكائية. وعليه ينبغي أن تخضع الوحدات الحكائية التي انتخبناها متناً للتحليل إلى معيار الزمن بغية إيضاح أبنيتها الداخلية.

(1) في «أ» يبلغ كوشناوش بأمر تحرير الأسرى واعتلاء ميخائيل ثانية عرش القسطنطينية، فيترك حصاره للبصرة، ومطاردة جيوش المأمون إلى خراسان، ويعود مسرعاً، لإخماد ثورة «بني كلاب» ضده. ولا يورد الراوي أي وصف لعودة كوشناوش، ولا يقدم إلا وصفاً مسهباً لخروج الأميرة إلى قلعة الشيطان وتحرير الأسرى والعودة إلى القسطنطينية، والراوي ينتهز فرصة تغيب الخصم، للوقوف مفصلاً على مزايا البطل وأفعاله، وذلك يكشف أن هنالك محورين، يعقب أحدهما الآخر، وإن وردا متعاكسين في البنية السردية، فطبقاً لأولوية وقوع الأحداث في الزمان، يقوم كوشناوش بالانسحاب لقمع بني كلاب، لكن

الراوي يتجاهل ذلك، ويعنى بأمر الأميرة فقط، مستخدماً أسلوب السرد الموضوعي لوصف الأحداث حتى لحظة لقاء الأميرة بأبي محمد البطال، وأسلوب السرد الذاتي على لسان البطال نفسه بعد ذلك، ثم يعود السرد الموضوعي، لاستكمال وصف المواجهة الأخيرة بين كوشناوش وبني كلاب، وهنا تنتظم الأحداث، طبقاً للتعاقب، فعودة كوشناوش، تعقب وصول الكلابيين وميخائيل إلى القسطنطينية، ووصولهم إليها، يعقب تحرير الأسرى وتحرير الأسرى يعقب، بطبيعة الحال، خروج الأميرة من ملطية، هذا من جهة تعاقب الأحداث، أما في البنية السردية، فإن عودة كوشناوش توازي في الزمان، كل الأعمال التي قامت بها الأميرة، إلى لحظة المنازلة مع كوشناوش، إذ يلتحم محوراً الحدث، وذلك، يكشف أن القسم الأول من الوحدة الحكائية خضع لبناء التوازي إذ يتعاصر فيه محوراً الحديث، فيما خضع القسم الثاني لبناء التابع، مما يجعل أحداث الوحدة الحكائية هذه، تتداخل فيما بينها بصورة عامة.

وفي «ب» يخرج سيف بحثاً عن كتاب «تاريخ النيل» ويفلح في دخول مدينة «قير» ويلقى عليه القبض، ويسجن في «جب الهلاك»، إذ تنجده عاقصة، فيقتل المخنطف الأقطع، ويحرر الجوارى الأربعين الأسيرات في قصره، ويطوف في المدن العجبية، ثم يحصل على الأدوات السحرية كالسوط والقلنسوة، ويعود إلى مدينة «قير» ثانية، ويحصل على الكتاب، ويرجع إلى مدينة الملك أفرح. ويتوازي هذا المحور من محاور الوحدة الحكائية، مع المحور الذي يعنى بوصف مكائد «سقرديون» في الإيقاع بسيف، وإقناع الملك أفرح في تزويج ابنته من الملك سيف أرعد. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن الراوي يوقف تعاقب الأحداث التي تصور بحث سيف عن الكتاب، إثر إخراجها من «جب الهلاك»، ويلاحق ما حدث لسيف مع عاقصة في المدن العجبية، ويعود لاستكمال الأحداث الخاصة بالهدف الذي جاء سيف من أجله، فالراوي هنا، وإن كان لأسباب تتعلق بضرورة تنظيم الأحداث سردياً، يوردها على التعاقب، إلا أنها تتداخل من ناحية، وتتوازي من ناحية أخرى، وتندمج أخيراً، لتأخذ مساراً متتابعاً، ولأن خاصية التداخل هي الغالبة على خواص التوازي والتتابع في انتظام الوقائع، فإن هذه الوحدة الحكائية، والوحدة «أ» يخضع نسق الأحداث فيهما إلى «البناء المتداخل». وهو البناء الذي تتداخل فيه الوقائع التي تشكل الوحدة الحكائية، دون أن تخضع لضوابط تعاقب الزمان، فالعناية فيه لا تولى إلى ترتيب الأحداث ضمن نظام متدرج، بل إلى تقديم الأحداث وتأخيرها تبعاً للإمكانات التي يحققها الاستباق والإلحاق في بناء الحدث، مما يجعل الأحداث غير منتظمة، يتداخل بعضها في بعض.

(2) في الوحدة الحكائية «ج»، يغادر أبو زيد الهلالي بلاد «السرو» بحثاً عن الفرس



«الحمصاء»، ويظفر بالحصول عليها، ويعود إلى بلاده، ثم يستغيث به الجعبري، فيغيثه ضد الوزير، ويتزوج «العليا» ويعود ثانية إلى بلاده، وفي «د» يخرج عترة للشار من الهيلقان، ويعود منتصراً إلى «أرض الشربة والعلم السعدى»، وفي «هـ» يتجه ببيرس صوب الشام لإخماد فتنة الاختطاف فيها ويحرق قمرستان، ويعود إلى «قلعة الجبل». ويلاحظ في هذه الوحدات الحكائية الثلاث، أن الوقائع التي تكون أحداثها، تتعاقب في الزمان، دون تقطع أو استباق، أو إلحاق، بل هي تخضع لمنطق صارم متدرج منذ البدء إلى النهاية، ينظم وقائعها، ولا يسمح لها بالارتداد أو التشتت، وبذلك فإنها، تخضع لنمط آخر من البناء، هو «البناء المتتابع»، الذي تتعاقب فيه الوقائع، طبقاً لتتابع الزمان<sup>(1)</sup>.

### 3 - بنية الشخصية السيرية :

كشفت لنا الفقرة السابقة إن متن السيرة الشعبية، يتألف من سلسلة من الوحدات الحكائية المتعاقبة التي تمثل أفعال البطل، وأنها خاضعة لمنطق خاص ينتظم مكوناتها. وينبغي التأكيد هنا، أن تلك الوحدات، تكشف في الوقت نفسه، مجمل التطورات في شخصية البطل، فالوقوف على مراحل حياته، يفضي إلى إضاءة أمرين مترابطين، أولهما: بنية الشخصية السيرية، وثانيهما: بيان التطور الدلالي لمتن السيرة، كونه نتاجاً للأفعال المتتالية التي ينهض بها البطل. ويلزم القول إن كل مرحلة من المراحل التي يمر بها البطل، تتصف بميزات خاصة، تعبر دلاليًا عن طبيعة المهمة التي ينجزها، وإن الميزات المعبرة عن جميع المراحل التي يمر بها، تتضافر معاً لتمنح الشخصية السيرية صفاتها وخصائصها.

إن تتبع شخصية بطل السيرة الشعبية، تطوراً ودلالة، يكشف تواتراً في عدد من الثوابت، يمكن تنظيمها على النحو الآتي :

#### (أ) النبوءة :

تهيء النبوءة في السير الشعبية، لظهور البطل قبل ولادته، وتلمح، في الوقت نفسه، إلى الأعمال البطولية التي سيقوم بها. فالنبوءة، في سيرة الأميرة وفي سيرة سيف، وسيرة عترة وسيرة ببيرس والسيرة الهلالية تدشن لظهور البطل، ففي سيرة الأميرة ترد النبوءة بظهور عبد الوهاب، البطل المنقذ، من مصادر كثيرة، فالرسول يزور الخليفة المهدي في منامه،

---

(1) لقد بحثنا بالتفصيل خصائص الأبنية السردية للحدث، في الفصل الأول من كتابنا «البناء الفني لرواية الحرب في العراق» ص 25-81، ونحيل عليه للاطلاع مما يعني عن تكراره هنا.

ويخبره بأن عبد الوهاب هو من يطلب نصرتي وبه تسير في الدنيا كلمتي<sup>13</sup> وعنه يقول الخليفة المهدي نفسه، إنه سيكون «ترس قبر ابن عمي - 42:7» ويعني قبر الرسول، وكان جعفر الصادق، قد تنبأ أيضاً بأنه سيكون «ترس قبر النبي - 40:7»، أما داود بن محمد، مؤلف كتاب الفروسية، فتنبأ بظهوره وأنه سيكون «له شأن وأي شأن ولا يوجد مثله في هذا الزمان - 66-65:7». وطبقاً للنبوءة يوصي الخليفة المهدي، بأن يلقب عبد الوهاب بـ «ترس قبر رسول الله - 69:7». وفي سيرة سيف تكثر النبوءات بظهور سيف، فالوزير يثرب بنبيء الملك بأنه سيخلف ولداً ويكون من صلبه واسمه من اسمه، ويظهر دين الإسلام ويأمر الناس بعبادة الملك العلام - 13:1» بل إن سقرديون يعبر عن نبوءته بظهور سيف على النحو الآتي وهو يخاطب الملك أفرح «إني وجدت في الكتب العظيمة والملاحم القديمة أنه يظهر من نسل حام سودان ويسمون العبيد ويظهر من نسل سام ولد يقال له السيد اللبيد، ويظهر من نسله ولد يقال له التبع جار الغزال، ويظهر الأهل، ويظهر من نسلهم رجل يقال له سيف ذو يزن، ويكون أبوه من بلاد اليمن، وتصويره بحمراء الحبش الأرض وتلك الأرض والدمن، فيعظم ما تقاسي منه الحبشة والسودان والسحرة والرهبان، ويظهر له شأن وأي شأن، ويحكم على الإنس والجان، بسر سيف أصف بن برخيا، وزير نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام - 29:1». ويورد الأصمعي أن ظهور عنترة، ما كان إلا ضد الجاهلين المتجبرين لما أراد الله «هلاك أهل تجبرهم وتكبرهم أذلهم الله تعالى وقهرهم بأقل الأشياء عليه وأحقرهم لديه وكان ذلك غير عسير عليه وذلك بالعبد الموصوف بأنه حية بطن الواد الذكي الفؤاد الطيب الميлад، صاحب الواد عنترة بن شداد الذي كان في زمانه شرارة خرجت من زناد فقمع الله به الجباة في زمن الجاهلية حتى مهد الله الأرض قبل ظهور سيدنا محمد خير البرية - 5-4:1»، أما الملك زهير فإنه يتنبأ، بأنه سيكون «أعجوبة لجميع الناس، ويكره الظلم والفساد ويسلك طريق السداد - 89:2». أما سلسلة النبوءات حول ولادة الظاهر بيبرس وظهوره، فهي كثيرة فالإسماعيليون، يقولون له، لما يقبض لهم اللقاء به، «إن اسمك عندنا مذكور وصورتك في الكتاب مسطور، وأنت الذي دلت عليه الجفور وأنت صاحب الفتح المنصور، وقد رأينا لذلك علايم، وثبتوه لنا الرجال المقادم والليوث المكارم - 69:2». أما زوجة الشيخ يحيى الشماخ فتحلم بأن امرأة من الأشراف تزورها في المنام. وعليها حلقة خضراء، تحمل في يدها ولداً كأنه البدر. فلما تسألها من تكون ومن هذا الغلام، تجيبها: «أنا كريمة الدارين ها أنا أم الأيادي الطايلات، أنا غفيرة مصر من جميع الجهات من الأفات، أنا عمة الحسن والحسين من نسل سيد الكونين، وهذا نسبي وحسي،

(1) سيرة الأميرة 43:7 وسنجح على السير في المنن.

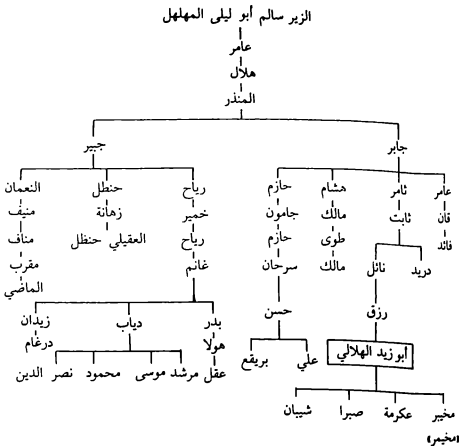
فقلت لها وأنا خجلة نعم الحسب ونعم النسب ولكن من هذا الغلام الذي في يدك اليمنى، فقالت اعلمي يا أم كريم الدين إن هذا محمود المكنى ببيرس وهو الذي تفتح على أيديه بلاد الكفار ومدابن أهل الأشرار وهو صاحب الفن والوقار، وتكون مصر في حكمه في غاية الافتخار، ويكتب اسمه على السواحل والأقطار، هذا الأمير ببيرس أبو الفتوحات والنصر ويسمى الظاهر وسوف يكون ملكاً وسلطاناً وتذل له رقاب الإنس والجنان - 3: 195هـ، كما أن الخضرا زوجة رزق، تمنى على شكل نبوءة، أن يكون لها وليد ويغلب الفرسان ويقهرهم - 39هـ ويكون فارساً يكر على فرسان البوادي ويعلو ذكره في سائر الأقطار، كما تعبر عن ذلك شعراً، ويولد لها، فعلاً أبو زيد الهلالي، طبقاً للأمنية - النبوءة.

### (ب) الأصول النبيلة:

تهدياً لبطل السيرة أصول نبيلة قبل ولادته، وإن كان لا يُعترف بها، إلا في مرحلة لاحقة من الأحداث. فالأميرة ذات الهمة تعلن قائلة «أنا فاطمة ابنة مظلوم ابن الصحاح ابن جندبة بن الحارث الكلابي، ملك ملوك بني كلاب ذو الحسب والنسب، صاحب القول الصواب والصدق في الضراب - 6: 28هـ وبيرس ذو جذور ملوكية نبيلة، يفصلها الراوي (6: 349-356) وهو «محمود ببيرس الدمشقي العجمي الخوارزمي ابن القان شاه جملك أحمد بن محمد بن مصطفى بن مرتضى بن سعيد بن رشيد بن إسماعيل بن إبراهيم بن آدم - 4: 216هـ. أما عنترة، فمن ناحية الأب تعود أصوله إلى نزار بن معد بن عدنان 1: 5 ومن ناحية الأم إلى النجاشي ملك الحبشة ونسبه إلى حام بن نوح 34: 402. ولا يتخفى الراوي بذلك، بل إنه يقدم لائحة مفصلة لنسب عنترة من ناحية الأم والأب، فيقول «هو عنتر بن شداد الذي فاق أهل زمانه وكانت أمه حبشية، وتقدم حديثها في هذه السيرة المروية، لأنهم لما سبوا من بلادها كانت من أولاد الملوك، وكان اسمها شامة لأن الملك النجاشي ابن خالتها، وقيل جدها، والذين سبوا سموها زبيبة وهي لها حسب متصل إلى حام بن نوح عليه السلام، فهذا نسب أمه، وأما أبوه ما كان إلا من أفخر العرب وكان سيداً منتخبا فهو شداد بن قراد بن راحة بن شرافة بن خزاعة بن تامة بن يفيض بن قيس بن عيلان بن أرفهان بن نزار بن معد بن عدنان بن مضر بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام - 38: 253هـ.

وتحتشد سيرة سيف بن ذي يزن بذكر أصوله الملكية وإرجاع نسبه إلى سام بن نوح. أما أصول أبي زيد فترجع إلى أبي ليلى المهلهل - 5. ويحسن للتدليل على مدى عنابة رواة السير الشعبية بالأنساب التي توصل الشخصية السيرية في التاريخ أن نصنع نسب بني هلال، لبان موقع أبي زيد فيه اعتماداً على ما جاء في سيرة بني هلال «تغرية بني هلال»،

فذلك، إنما يكشف عن انتماء البطل، إلى سلالة نبيلة من كل جهة، تمنحه حق البطولة والقيادة فيما بعد:



إن تأصيل نسب بطل السيرة قومياً وتاريخياً، ضرورة ملزمة في السير الشعبية فهو فضلاً عن كونه عربياً يرتفع بنسبه إلى أجداده العرب الأول، فإنه يرتبط دينياً وتاريخياً بسلالة الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم، حتى لو ثبت تاريخياً عدم كونه عربياً مثل الظاهر بيبرس، فالرواة، فيما يبدو، كانوا على دراية، وهم يؤصلون أنساب أبطال السير، أن الوجدان القومي، يرفض بطلاً غريباً عنه.

(ج) الانتساب:

يواجه بطل السيرة معضلتين أساسيتين، منذ بدء ظهوره، هما ولادته الغريبة وعدم تبني الأب له، إن الرواة يهينون ظروفاً غير طبيعية لولادة أبطال السير، فالأميرة ذات الهمة، تولد

أثى، لكن يتم إخفاء جنسها وتسمى وقومها من عشيرة طي، وترى هناك دون أن تعرف عن نسبها شيئاً 20:6، وولد سيف إثر وفاة أبيه، فتحمله قمرية أمه، وتلقيه في البراري تحت شجرة، للتخلص منه، حيث ترضعه غزالة 26:1، وينشأ دون أن يُعرف له أب ولا أم ولا اسم فيسمى بـ «وحش الفلاء» إلى أن يخبره الشيخ جباد باسمه وحقيقة نسه 61:1، أما أبو زيد الهلالي، فإن لونه الأسود على الرغم من انتساب أمه إلى الأشراف، يكون دافعاً لأن يتخلى أبوه عنه وعن أمه، إذ يطلقها، متمهماً إياها بالزنا، فتلجأ إلى بني الزحلان حيث يترى أبو زيد (= سلامة، بركات، مسعود) دون أن يعرف أباه وقومه 39-44، ويتكرر الأمر نفسه، بالنسبة لعنترة، إذ يرفض شداد إلحاقه به، لأنه يعتقد أنه ولد سفاح من غير عقد نكاح، لأن ذلك يؤثر في موقعه القبلي 2:126، كما أن بيبرس، يختطف ويلقى في حفرة جوار عين ماء 6:355 ويكبر دون أن يعرف قومه. ويلاحظ أن عدم التنبئ، قد يأتي بسبب من الأب: عنترة وأبو زيد، أو تحت وطأة ظروف خارجة عن إرادة الأب: سيف، بيبرس، الأميرة.

#### (د) الغربية .:

بسبب ما ورد ذكره في (ج) يعيش بطل السيرة غريباً، وتكون الغربية على نوعين، غربة عن مكان الولادة كما في حالة الأميرة وبيبرس وأبي زيد وسيف، وغربة عن القوم بسبب عدم قبولهم له كما في حالة عنترة.

#### (هـ) الاختبار:

بعد أن ي دشن الراوي سيرة البطل بما ورد في أ، ب، ج، د، يمهد أرضية جديدة، تمنح البطل قدرة، تحقيق ما ورد في أ، ب، وتذليل الصعاب التي واجهته في ج، د. فيوضع في «اختبار أولي»، ويجتازه، وينبغ في محيطه ويشد الأنظار حوله، فعنترة يلبس في كل يوم «قمطاً جديداً لأنه يقطعه ولو كان من الحديد، ولما أن صار له من العمر عامان بالتمام، صار يدرج ويلعب بين الخيام، ويمسك الأوتاد ويقلمها فتقع البيوت على أصحابها، ويعاقر مع الكلاب، ومن أذناها يمسخها ويختق صغارها ويقتلها، ويضرب الصبيان 1:77»، وفي الرابعة من عمره، يتصرف كأنه في العشرين، 1:79، وقد لاقى ذنباً هجم على غنمه، فضربه بعصاه بين عينيه، فطير مخه وقام «يقطع يديه ورجليه ورأسه من بين كتفيه، وعاد وهو يهيمهم ويدمدم ويزمجر، كأنه الأسد القصور، ويقول يا ويلك يا ميشوم الناصية لا تأكل إلا من أغنام عنتر، ما تعلم أنه همام غضنفر - 2:81 ويعود مساء وقد حمل رأس الذئب في مخلاة، ويمر عنترة باختبارات مماثلة وهو صغير السن، تنتهي بقتل العبد داجي 2:88. ويفوز بالحظوة لدى الملك زهير والأمير مالك وابنة عمه عبلة. أما الأميرة

فيكون اختبارها أكثر قسوة، إذ تربي عند طبي، ولما يغزو بنو كلاب طياً، وهي لا تعرف أنهم قومها، تبارز والدها دون أن تعرفه، وتأسره 20:6. وحالما تتعرف إليه فيما بعد تحرره من الأسر 27:6، وتقترب حالة الاختبار هذه كثيراً من حالة اختبار أبي زيد إذ يتعلم أبواب الحرب في خمس سنوات، ويقتل أبا الجود فيعهد إليه الملك الزحلان، أن يكون أميراً بعده، ويؤدي ذلك إلى إثارة رزق وهو لا يدري أن أبا زيد ابنه، كما أن الأخير لا يعرف أنه أبوه، فيتأرزان، فيجرح رزق، ويهم أبو زيد بقتله، لكن ابنة رزق، هي أخت أبو زيد ترجوه أن لا يفعل، ويأسره في مبارزة أخرى، ويقوده ذليلاً إلى بني زحلان، حيث يتم التعارف بينهما. ويعترف رزق بأبوة له 54-44. أما سيف الذي ينقذه صياد، ويوصله إلى الملك أفرح، وبمكائد متعددة من سقرديون، للتخلص منه، فإنه يمر بعدة اختبارات، تتوج بتحديه لـ «سعدون الزنجي» وأسره 58-49:1. أما بييرس فيتزوج اختباره بقتل سعيد الركيذار 105:2 وهو أحد الطغاة، فيجتاز اختبار الشجاعة والفروسية والقوة.

#### (و) الاعتراف بالبطل:

غالباً ما تفضي مرحلة «الاختبار الأولي» إلى الاعتراف بالبطل، فيلحق بأبيه أو قومه، ويعد فارساً. ف «سيف» يخطف بمكائنة عند الملك أفرح إثر اختباره مع سعدون الزنجي، كما أن أبا زيد يعود إلى بني هلال بعد أن يهزم أبيه، ويلحق شداد عنترة به ويقرب الملك الصالح، بييرس إليه حينما ينجح بالاختبار، كما تلحق ذات الهمة بقومها للسبب نفسه.

#### (ز) التكليف الأولي:

بعد أن يجتاز البطل الاختبار الأولي ويعترف به بطلاً، تنتدبه القبيلة أو المملكة فارساً لها ومدافعاً عنها ضد الأخطار التي تتعرض لها، فعترة يصيح فارس بني عبس وأبو زيد فارس بني هلال، والأميرة فارسة بني كلاب، والظاهر مدافعاً عن الملك الصالح، وسيف مدافعاً عن الملك أفرح.

#### (ح) المعارضة الضيقة:

إثر مرور البطل ب «و» و «ز» تبدأ دلائل معارضته بالظهور فثمة شخصيات في محيط البطل، تعارضه وتحاول أن تعرقل مسعاه في مهمته الفروسية، مثل المختطف الأقطع وعبود خان في سيرة سيف، وعقبه شيخ الضلال في سيرة الأميرة، والربيع بن زياد وعمارة بن زياد في سيرة عنترة، والوزير مسعود في سيرة بني هلال، وقمرستان وأبيك في سيرة الظاهر.

#### (ط) التكليف القومي - الديني:

يصبح البطل بعد سلسلة من التجارب الفروسية الناجحة، شخصية قومية - دينية

فسياف يقاتل الأبحاش عبدة زحل ويدشن لظهور الإسلام، وعترة يقاتل الفرس المجوس مرة، والأبحاش عبدة زحل مرة ثانية، واليهود مرة ثالثة، وأخيراً أقوام مشرقة في مناطق كثيرة، كما أن الأميرة وأولادها، ترابط في الثغور الإسلامية لمواجهة الروم عبدة الصلبان، ويحارب أبو زيد المجوس واليهود، وهنا يبدأ بطل السيرة بتطبيق مثله القومية والدينية على النحو الذي يريد، فيصبح بطلاً مشهوراً، وفارساً ذا صيت وموقع كبير، ويشير برسائله الدينية والاجتماعية والقومية.

#### (ي) المعارضة العامة:

بسبب من (ط) تظهر فئة الخصوم الكبرى، التي تهدف إلى القضاء على البطل، بشتى الوسائل، وغالباً ما يمثل ملوك الممالك المجاورة وفرسانها فئة الخصوم، مثل سيف أردد والحكيمين سقرديون وسقرديس في سيرة سيف، الملك لادون وكوشناوش في سيرة الأميرة، وبعض أكاسرة الفرس والملك الأسود في سيرة عترة، والزنانتي خليفة في الهلالية، وملوك الدول الصليبية وجوان عبد الصليب في سيرة الظاهر.

#### (ك) المعاوضة:

بمواجهة فئة الخصوم، يستعين البطل بفتة من المساعدين، يكونون على نوعين: فرسان وعيارون وشطار، ومثال النوع الأول عروة بن الورد، ومقري الوحش في سيرة عترة وسعدون الزنجي في سيرة سيف، وعبد الوهاب وظالم وأبو الهزاهز في سيرة الأميرة، ودياب وحسن في الهلالية، والإسماعيليون في سيرة الظاهر. أما النوع الثاني وقوامه !عيارون والشطار، فإنه يمثل إحدى أخصب الظواهر الدلالية، في السير الشعبية العربية، فالمساعدون مثل أبي محمد البطال في سيرة الأميرة، وجمال شيحة في سيرة الظاهر، وشيوب والخذروف في سيرة عترة، ومسابق العيار في سيرة سيف، يتبعون وسائل كثيرة لتضليل الخصوم، والإيقاع بهم، ويسرون السبل أمام البطل، لإنجاز مهامه الأساسية، ويكونون أحياناً وراء الدوافع والحوافز التي تجعل البطل، يغادر البؤرة المكانية.

#### (ل) الخوارق والسحر:

لا يكتفي البطل بالاعتماد على قواه الخاصة، بل يستعين أحياناً بقوى خارقة مثل الجن والسحرة، فسياف يعتمد على الجن مثل عيروض وعاقصة وأويس القافي والكيلكان والخيلجان وعفاشة وصاروخ الزئبقي والحكماء مثل أخميم الطالب وسيرين الطالب وباناس وبيسان وعاقلة، وعترة يسخر الجن له 59:50 وكذلك الأميرة 54:5-76 و 146:70، كما أن الأعمال السحرية تستأثر بأهمية في السيرة الهلالية 106-107، 215، وكثير من أعمال الظاهر

بيرس خارقة 2:120 وإلى جانب الاستعانة بمساعدين من الجن والسحرة، فإن بعض أبطال السيرة يستعينون بأدوات سحرية مثل سيف آصف بن برخيا عند سيف، وألّت الدمشقي عند الظاهر.

#### (م) الانتصار:

لا تكتمل رسالة البطل السيري، الذي تؤهله بطولته، لأن يكون صاحب رسالة إنسانية، دون القضاء على خصومه الرئيسيين، الذين يختلفون معه دينياً وقومياً. سيف يقتل سيف أاعد وحكماءه، وعنترة يقتل كثيراً من الملوك المعارضين وكذا الأمر بالنسبة للظاهر والأميرة ذات الهمة وأبي زيد. والبطل حيثما يفلح في القضاء على ملك، يحول رعيته إلى الإسلام ويترك نائباً له في المملكة، ويواصل فتوحاته وجهاده.

#### (ن) العزلة والموت:

بعد أن يفرغ البطل من أداء رسالته، ويخضع الجميع لإرادته، وتنتفي ضرورة وجوده، يموت وحيداً، مثل مقتل عنترة 52:183 ومقتل بيرس 49:330 وموت الأميرة 70:145 وموت سيف 17:66 ومقتل أبي زيد 215 - التخرية. ومثلما كانت ولادة البطل قد حدثت في ظروف غير ملائمة فإن موته يكون كذلك وغالباً ما يكون قاسياً، فابو زيد يكون مقتله على يد رفيقه وابن عمومه دياب، حينما يضربه بدبوس فيتناثر مخه، وعنترة يقتله سهم الأسد الرهيص الذي يشق مثانته، فيموت منتظياً حصانه، ومتكئاً على رمحه، أما مقتل الظاهر، فأكثر قسوة، إذ إن قلاوون يستدرجه لزيارته، ويفرجه على غرف بديعة، وحالما يبلغ الغرفة السابعة وهي الأخيرة حتى يدخلها ولا يدرى أن حيطانها متحركة، وفيها سفاويد من الحديد، فتتطبق عليه الجدران فيتمزق لحمه وعظامه ولا يبقى منه شيء. وحدهما الأميرة وسيف، يزهدان الحياة، ويعتزلان، ويموتان وحيدين على كبر.

#### (س) التورث:

لا تنتهي رسالة البطل الفكرية بموته، بل يخلفه أولاده، فالأميرة ترك الأمر لابنها عبد الوهاب، وهو يتركه لابنه ظالم، الذي يخلف ولدأ يدعو عبد الوهاب على اسم أبيه، ويخلف عنترة بعد موته، ابنته عنترة لتواصل رسالته، وسيف يترك أولاده يديرون مصر والممالك المجاورة، واليتامى يرثون أبطال الهلالية.

تكشف الثوابت الأساسية في سيرة البطل عن تواتر نسق من «الوحدات الدلالية» تتطابق بنية ودلالة مع نسق «الوحدات الحكائية» التي تؤلف متن السيرة. وهي تسم الشخصية السرية بسمات خاصة، وتغذي في الوقت نفسه، متن السيرة بسماته الدلالية، إذ



تتماثل أفعال البطل وصفاته مع مكونات المتن وخصائصه، الأمر الذي يجعل تلك الأفعال أجزاء مترابطة تمنح المتن سماته، وتجعل، في الوقت نفسه، ذلك المتن، إطاراً عاماً موجهاً، للنظام الذي يحكم تلك الأفعال.

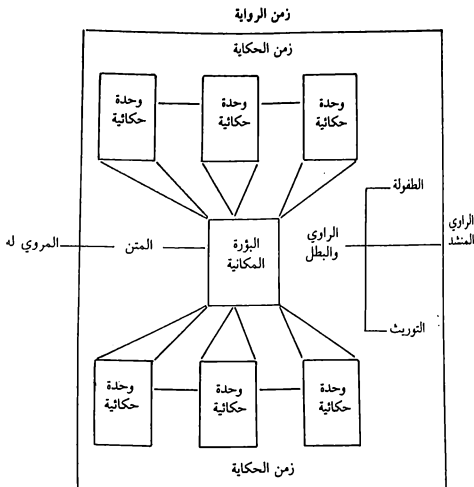
#### 4 - نسج البنية السردية :

إن الراوي المفارق لمرويّه، وهو ينسج المرويات السيرية، يقوم بمهمة ذات شقين متلازمين، أولهما: مهمته السردية في خلق سلسلة من الوحدات الحكائية المتعاقبة التي تتطابق دلاليّاً مع كل مرحلة من مراحل حياة البطل، وثانيهما: نسجه عالماً فنياً واسعاً يوظف أفعال جميع الشخصيات في المتن، وما يتطلبه من تحديد الفضاء الذي ينظم الوقائع والأحداث التي تكون لب المتن السردية. وفي الوقت الذي تغذي فيه الوحدات الحكائية، المتن، بأسباب وجوده، كونها الركائز التي ينهض عليها، فإنه يغذيها، بالفضاء الذي يحدد أبنيتها السردية، ومقاصدها الدلالية. وهذا التلازم بين المتن ومكوناته هو الذي يجعلهما نسيجاً متجانساً، يتصف بالتماسك والخضوع لأسباب واضحة، توجه مكونات المتن، بما يجعلها متطابقة وأهداف البطل في كل مرحلة من مراحل حياته. ولتوضيح ذلك، نصنع الترسمة الآتية الخاصة بنسج المتن في السيرة الشعبية. (أنظر الصفحة التالية).

تدعم ترسيمة متن السيرة الشعبية البحث بما يأتي :

إن الراوي، مكون يقع خارج المتن، فهو ينشد المروي حقيقة، ولكنه حالماً يفرغ من وصف طفولة البطل، يندمج في البنية السردية للمتن، ذلك أنه، سيرافق البطل في إنجاز الوحدات الحكائية المتعاقبة، ويقوم بمهمة بناء كل وحدة حكائية، وربطها بالوحدة التي تليها، ولذلك، فهو والبطل، يتلازمان سردياً في حركة محورية مركزها «البؤرة المكانية»، وحالماً ينتهي من نسج الوحدات الحكائية، ينفصل عن البنية السردية، ليصف مرحلة «التوريث»، ويتكون متن السيرة، من الوحدات الحكائية. مضافاً إليها، مرحلة الطفولة ومرحلة التوريث، ويقوم الراوي، بإرسال هذا المتن، إلى مروي له، يقع هو الآخر، خارج البنية السردية.

إن إشكالية موقع الراوي والمروي له في البنية السردية للسيرة الشعبية، إشكالية معقدة، تستدعي التريث، ذلك أن «السردية» تقر بأن مكونات البنية السردية، متلازمة، وتقع ضمن الخطاب، لكن السيرة، التي لا تشكل نوعاً قصصياً إلا بالإنشاد الحي الذي يقوم به منشد حقيقي، يوجه إنشاده إلى متلقين حقيقيين، مثله، تتصف بأنها، ما زالت مقيدة إلى مكونات خارج البنية السردية، بيد أن المنشد، الذي يقوم بمهمة الراوي المفارق لمرويّه،



سرعان ما يندمج، بعد أن يقدم السيرة للمتلقين، في البنية السردية، ويتخفى وراء الراوي، لكنه، لأسباب كثيرة، منها طبيعة المرويّات السيرية، وضخامة المتن، وحاجات التلقي، يفصل بين حين وآخر، عن البنية السردية، ويعلن عن حضوره، كأن يوقف الرواية إلى الليلة القادمة، أو يؤدي حركات إيمائية في بعض المواقف الحاسمة. ولقد حافظت المدونات السيرية على الأصول الشفاهية، رواية وتلقياً. ولا يتردد الراوي - المنشد من الإعلان في تضاعف السير المدونة، أنه سيؤجل الرواية إلى غد، لأن الليل قد مضى، ولا مجال للاسترسال في رواية الأحداث<sup>(1)</sup> وشأن موقع الراوي، فإن المروي له، يقع أيضاً خارج البنية

(1) بنظر على سيل المشال، سيرة سيف 75:2، 75:4، 88:7، 64:9، 79:11، 67:13، 56:14، 66:15، 68:16.

السردية، وتدلل على ذلك، صيغ الخطاب التي يلجأ إليها المنشد في حث المروي له، بأن يولي كامل اهتمامه إلى ما ينشد<sup>18</sup>. وعلى الرغم من ذلك، فإن المنشد والمتلقي، سرعان ما يتماهيان بالراوي والمروي له، ويصبحان جزءاً من البنية السردية، ولا يذكر بأمرهما، إلا عندما تتدافع الأحداث، أو ينصرم زمن الرواية فلا يكون أمام المنشد سوى خيار واحد، هو الإعلان عن انفصاله عما يروي، والطلب إلى المتلقين مغادرة المكان.

إن الإزدواجية في انتماء الراوي والمروي له في السير الشعبية، مبعثها خضوع هذا النوع القصصي إلى صيغ الإرسال الشفاهي زمنياً طويلاً، الأمر الذي جعل المدونات تحافظ على تلك الصيغ نفسها، وفيما يمكن القول، إن بعض أنواع القصص العربي، كالحكاية المخرافية، استكملت شروط بنيتها السردية، بما يجعلها تغذي مكوناتها السردية، دون الحاجة إلى الامتداد خارج تلك البنية المغلقة كما بينا في فحص علاقة الراوي بالمروي له فيها، فإن السيرة الشعبية التي انقرضت إنشاداً، ولكنها احتفظت بصيغه تدويناً، ما زالت، تنص في كثير من أجزائها على أنها تستمد بعض مكوناتها السردية من خارج بنيتها ولكن نسيج المتن يكتفٍ بذلك الامتداد، بما يجعله ينطوي داخل البنية الخاصة بتلك المرويات. وذلك يفضي إلى نتيجة مهمة، وهي أن المروي له كونه مكوناً خارجياً، يعيش في آنٍ واحد زمنين، أولهما، زمن إنشاد المروي، وثانيهما زمن أحداث المروي، مما يثير إشكالاً في أمر تلقي تلك المرويات، على مستوى الاستجابة الذاتية، وتأويل الأحداث، وهو الأمر الذي جعل المنشد - الراوي، يلجأ إلى مشاركة المتلقي في ذلك بأن يلحن بالبطل وقائع كثيرة، تنتمي إلى عصور لاحقة. فهو لا يستطيع، بوصفه كائناً حياً، أن يتخلص من مؤثرات زمنه، فلا يجد سبيلاً أمامه، غير إضافتها إلى زمن البطل الذي يتماهى معه كل ليلة.

لقد أدى هذا الأمر إلى نتيجتين أساسيتين، الأولى طول زمن الأحداث، الذي يبلغ أحياناً عدة قرون، كما في سيرة الأميرة ذات الهمة، والثانية، «التعدد الدلالي» الذي يضيفه الراوي على المرويات السيرية بما يجعلها تنطق، على نحو غير مباشر، بوقائع عصره، لا عصر البطل الذي يروي أفعاله.

---

(1) ينظر على سبيل المثال، سيرة الأميرة 3:6، 18:13.



الباب الرابع

---

المقامة: تشكل النوع والبنية السردية



#### 1 - المقامة: فضاء الدلالة:

يحيل الجذر اللغوي للمقامة على «المجلس» أو على «جماعة من الناس»<sup>(1)</sup>. ولما كانت مجالس الناس، تحتم وجود أحداث في موضوعات كثيرة، أصبحت الدلالة الاصطلاحية، للمقامة، لا تحيل على المجلس مباشرة، بل على الأحداث التي تلقى فيه<sup>(2)</sup>. وكانت تلك الأحداث، تعنى أول الأمر بقضايا الدين: من نصح وإرشاد ووعظ، وأمور اللغة، من ألفاظ ومرويات لغوية، ووقائع التاريخ: كأيام العرب وحروبهم وأخبار خلفائهم ولاتهم. قبل أن تنتظم في نمط من الأحداث التي تتميز بقواعد محددة سواء في شكل الإسناد أم تركيب المتن.

لم تعد المقامة، وقد استقامت نوعاً قصصياً، تقترب بـ «الحديث»، ذلك أنها أصبحت تحيل على وقائع متخيلة، مسندة إلى راوٍ، يقدمها، لا على سبيل التحقق من صدقها، شأن الوظيفة التي كان يقوم بها الخبر، بل على أنها نوع من القصص الذي يصدر عن موهبة أدبية، غابتها ابتداع قصة، وليس رواية واقعة، مما جعل المقامة، لتحقيق هذا الهدف، تقوم على راوٍ وهمي، يختلق متناً وهمياً. وقد وصف القلقشندي ذلك المتن، بأنه الأحذوثة من الكلام<sup>(3)</sup>، وواضح أنه يعني: حكاية.

إن وجود حكاية ما، يلزم وجود راوٍ لها، وبطل تشكّل مجموع أفعاله، نسيج تلك الحكاية. وقد ظلت المقامة أمينة على هذين المكونين السرديين اللذين صارا، ضمن بنية محددة، علامة دالة على هذا النوع القصصي. وكلما افتقرت المقامة إلى ذلك، فإنها كانت تتخلى عن الشروط التي تميّز نوعها.

(1) الصحاح والقاموس المحيط والمعجم الوسيط، مادة «قوم».

(2) شوقي ضيف، المقامة، القاهرة 8.

(3) صبح الأعشى 110:14.

لقد هيمنت على المقامة، خلال تاريخها الطويل، أغراض تقترن بكل عصر من العصور التي مرت بها، ففيما كانت أغراض الوعظ والإرشاد لصيقة بمراحل تكوّنها الأول، أصبحت أغراض الظرف والتطفيل والكديّة، وما تستدعيه تلك الأغراض، من شخصيات طفيلية وهامشية ومتماجئة، سمة من سمات موضوعات المقامة في عصور ازدهارها، ثم تنوعت الأغراض التي تعنى بها في تاريخها المتأخر، فصارت وسيلة للوصف والمدح والتعليم وغير ذلك.

لم تشكّل المقامة العربيّة بمعزل عن التطورات الأدبيّة التي شهدتها القرون الأربعة الأولى، إنما كانت تلك التطورات، والخاصة منها في مجال القصص هي المحضن الذي ترعرعت المقامة في وسطه، وذوّبت فيها بعض خصائصه وسماته، ولكنّ المقامة، كأى نوع مبتكر، وظفت ملامح الموروث القصصي الذي سبقها أو عاصرها توظيفاً جديداً، خضع فيه لشروطها، ولم تخضع هي له، بما جعلها تتصف، بصفات خاصة بها.

إنّ المناخ القصصي الذي شجع محاولات الابتكار والتجديد، وفتح الأفق لظهور المقامة، يتطلب وقفة خاصة، ترسم ملامحه العامة، وتؤشر أبرز نماذجه القصصيّة، فذلك، إنما يسלט الضوء على خلفيات فن المقامة، ويمهد لربط النتائج بأسبابها، دون أن يعنى مباشرة بقضيّة التأثير والتأثير، فما يهدف البحث إلى تحقيقه هنا، هو أن يعرض صورة المناخ الإخباري والقصصي، في العصر الذي احتضن ولادة المقامة، ويعوّم ما استقر من جهود إبداعية في مجال القصص، كان وجودها قد تزامن مع ظهور المقامة.

## 2 - تضاريس عصر قصصي:

إنّ الأمر الذي يمكن التنبّئ منه، أنّ بنية الخبر التقليدي في القرن الرابع من إسناد مركب، ومتن مقيّد بذلك الإسناد، قد عرضت لهزة خفيفة في المجالات التي لا ترتبط بعلم الدين. ومن ذلك سبيل المدونات في أخبار الظرف والمتماجنين والمكذّبين والتطفيلين والشطّار والعيّارين ممن وردت في تضاعيف كتب الأخبار، أو ما ورد منها في كتب قائمة برأسها. وتمثّل تلك الهزة، إما بتبسيط صورة الإسناد، أو في حقن المتون بوقائع، يصعب التنبّئ من صحة وقوعها. وقد شجع على ذلك، الاشتغال بالمرويات الخرافيّة والإسرائيليّة التي ازدهرت روايتها في هذا القرن. وبذلك، فقد شرعت أمام الخبر بوابة، كان الحذر يشوب فتحها من قبل، وتمثّل ذلك، بأنّ الخبر لم يعد يحيل على واقعة تاريخية، قدر عنايته الإحالة على واقعة فنية متخيّلة، وذلك في حقول لا علاقة لها بأدلة الأحكام، وعلى الرغم من ذلك، فإنّ إطار الإسناد، ظلّ موجهاً أساسياً، ينظم الفعالية الإخبارية في هذا العصر والعصور التي أعقبته.



إن صورة الإسناد البسيط، والمتن الذي يُختلق لأسباب فنيّة، بوصفهما مظهرين جديدين، قد تجلّيا، بأفضل أشكالهما، في فن المقامة. وعرفت أشكال متباينة لهما، في عدد وافر من الأخبار والحكايات، سنقف هنا على جانب منها.

أورد أحمد بن يوسف الكاتب (340 = 951) في كتابه «المكافأة» مجموعة كبيرة من الأخبار، أسند بعضها، إسناداً بسيطاً إلى رواة معاصرين له، وتخلّى في بعضها عن الإسناد، وعدها من مروياته الخاصة التي كان شاهداً عليها. وقسّم الأخبار، تبعاً للموضوعات التي أولاهها عنايته وهي: أخبار في المكافأة على الأعمال الحسنة، وأخرى في المكافأة على الأعمال القبيحة، وثالثة في حسن العقبي، وأكد قائلاً «إني أثبت في هذه الرسالة، أخباراً في المكافأة على الحسن والقبيح، تنعم الخاطر، وتقرب بغية الراغب، مما سمعناه ممن تقدمنا، وشاهدناه بعصرنا»<sup>(1)</sup> وتقسّم الأخبار عامة في هذا الكتاب، بأنّ متونها، لم تعد تهدف مباشرة إلى تقرير واقعة ما، إنما غدّيت، بمواقف ورؤى، تؤكد أنّ المؤلف، كان يبغى تقديم أخبار اعتبارية، في قضايا تخص أفعال الناس، وأعمالهم.

سلخ القاضي التنوخي (384 = 994) السنوات العشرين الأخيرة من عمره، في تصنيف مجموعة كبيرة من الأخبار والحكايات، وأودعها كتابين، أولهما «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» في أحد عشر جزءاً، وثانيهما «الفرج بعد الشدة» في ثلاثة أجزاء. وفيما يعدّ الكتاب الأول مورداً ثميناً لأخبار كثيرة في مختلف الأغراض والموضوعات، يعدّ الثاني، ذخيرة نادرة، للحكايات والأخبار الخاصة بالمأزق والكرب الذي يلحق المرء جرّاء شدّة يقع فيها، والفرح والفوز الذي يعقب تلك الشدّة.

إنّ التنوخي، كان يعي تماماً، وبصورة لا تقبل اللبس، أنه، كان يقدم نمطاً مبتكراً من الأخبار والحكايات «لا نظير له ولا شكل». فضلاً عن تأكيده أنه في ذلك، إنما كان يخرج على «السنن المعروفة في الأخبار» ولا نظن أنّ تلك السنن التي خرج عليها التنوخي، إلاّ البنية التقليدية للخبر التي شاعت قبله، وترسّخت في شتى حقول الأدب والمعرفة منذ قرون.

يصدّر التنوخي، كتاب النشوار بخطبة، يقول في طرف منها: «هذه ألفاظ تلقطها من أفواه الرجال، وما دار في المجالس، وأكثرها مما لا يكاد يتجاوز به الحفظ في الضمائر إلى التخليد في الدفاتر، وأظنها ما سبقت إلى كتب مثله، ولا تخليد بطون الصحف بشيء من جنسه وشكله. والعادة الجارية في مثله، أن يحفظ إذا سمع ليذاكر به، إذا جرى ما يشبهه

(1) أحمد بن يوسف الكاتب، المكافأة، تحقيق أحمد أمين وعلي الجارم، القاهرة 3.

ويقتضيه ، وعرض ما يوجهه ويستدعيه . ولعلّ قارئها والناظر فيها أن يستضعفها إذا وجدها خارجة عن السنن المعروفة في الأخبار، والطريق المألوف في الحكايات والأثار، الراتبة في الكتب، المتداولة بين أهل الأدب<sup>1</sup>. وحالما يفرغ من وصف الأخبار التي ظمّنها الشوار، حتى ينصرف إلى تأكيد فزادة عمله، فيقول: «إن هذه الأخبار جنس لم يسبق إلى كتبه، وإنما أنا تلقتُها من الأنواء دون الأوراق، ويخرج بذلك عن القصد والمراد، والغرض المطلوب في الاستقامة والسداد. إذ ليست الفائدة في التنوع، ولا المغزى التأليف، بل لعل كثيراً مما فيها لا نظير له ولا شكل، وهو حده جنس وأصل - 12:1» .

أما كتاب «الفرج بعد الشدة» الذي وصفه الثعالبي، بأنه «أسير من الأمثال، وأسرى من الخيال»<sup>2</sup>، والذي احتذى فيه التنوخي حذو المدائني وأبي الدنيا وأبي الحسن عمر بن القاضي فهو سفر لمنط فريد من الأخبار والحكايات، تصف حالة الشدة والمحنة التي يتعرض لها الإنسان، وما يعقب ذلك من فرج، ونسق الشدة والفرج يحكم الكتاب، ويوجهه توجيهاً صارماً، بدءاً من الأخبار المقتضية في صدر الكتاب، وصولاً إلى الحكايات الطويلة التي لا تندرج تحت وصف الخبر، إنما تتجاوزها إلى الحكاية التي تتضمن شخصيات ومواقف ووقائع.

لم يكن التنوخي قد صَفَّ هذا الكتاب، إلا لدافع خاص دفعه إلى ذلك، لما مرَّ به من شدة وفرج، ولذلك، فقد كان المؤلف مشدوداً إلى المناخ الذي كتب فيه، مما جعله يتصرف في الأخبار، ويضفي على مواقف الشدة كثيراً من سمات الحيرة والتردد، الأمر الذي يشحن الحكاية بسمة أدبية واضحة، وما كان يهدف إليه في ذلك، إنما «انشرح صدور ذوي الألباب، عندما يدهمهم من شدة ومصاب، إذ كنت قاسيت من ذلك، في محن دفعت إليها، مما يحنو بي على الممتحنين، ويحدوني على بذل الجهد في تفريج غموم المكروبين»<sup>3</sup>.

لا يمكن الآن تقدير الأثر الذي تركته صيغة الأخبار والحكايات الكثيرة التي صنفها التنوخي، في الأخبار القصصية التي ظهرت بعد ذلك، ولكن الذي يمكن حدسه، أنّ تلك الصيغة، التي تحررت إلى درجة ما، من قيد الإسناد المركب، وروّجت لمتون مختلفة الأغراض، وفي قوالب تنأى بعض الشيء عن القالب الضيق الذي تميز به الخبر التقليدي،

(1) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة 1:1.

(2) الثعالبي، ينيمة الدرر في محاسن أهل العصر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة 2:346.

(3) التنوخي، الفرج بعد الشدة، بيروت 1:52.

قد ساهمت، في إشاعة مناخ قصصي جديد، تمثل بنماذج مهمة، سنقف على بعضها، بغية وصف تضاريس الجهود القصصية التي عاصرت ظهور المقامة.

أنشأ أبو المطهر الأزدي (القرن الرابع = العاشر الميلادي) حكاية طويلة دعاهها «حكاية أبي القاسم البغدادي». ويمكن وصفها بأنها، عمل قصصي فريد من نوعه، فهو يختلف عن الخبر وقواعده التي عرفت وترسخت من قبل، ويختلف أيضاً عن الآثار القصصية التي أعقبته مثل رسالة التوابع والزوابع ورسالة الغفران. ذلك أن هذه الحكاية، التي يستغرق زمن السرد فيها، يوماً واحداً، وتصف رحلة راوٍ جوال، يقدم انطباعاته وآراءه ومشاهداته، حول تقاليد عصره، منتخباً للتمثيل على ذلك رجلاً ببغداً «كنت أعاشره برهة من الدهر، فينفق منه ألفاظ مستحسنة ومستحشنة، وعبارات أهل بلده مستفصحة ومستفضحة، فأثبتتها في خاطري لتكون كالذكرة في معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم، وكالأمودج المأخوذ من عاداتهم وكأنها قد نظمتهم في صورة واحدة، يقع تحتها نوعهم، وتشارك فيها أشخاص ذلك النوع على أحد واحد، بحيث لا يختلفون فيه إلا باختلاف المراتب، وتفاوت المنازل»<sup>(1)</sup>. أما هذا الأنموذج الذي انتخبه الأزدي، ممثلاً لأخلاق البغداديين في عصره، فإنما هو شخصية غريبة، متعددة الوجوه، متباينة المواقف، ولتترك له مهمة تقديم تلك الشخصية: وكان هذا الرجل المحلّي يعرف بأبي القسم أحمد بن علي التميمي البغدادي، شيخاً بلحية بيضاء، تلمع في حمرة وجه يكاد يقطر منه الخمر الصرف، وله عينان كأنه ينظر بهما من زجاج أخضر، تبصان كأنهما تدوران على زئبق، عياراً، نغاراً، زعاقاً، شهاقاً، ظفيلياً بابلياً، أديباً عجيباً رصافاً قصافاً، مداحاً، قداحاً، ظريفاً سخيفاً، نبيهاً سفيهاً...»<sup>(2)</sup> عاشر المقامرین والنباذین، وتخلّق بأخلاق المخانيث والقرّادين، ودرس علم الزراقین والمشعبدين - 3 وما أنّ يفرغ الأزدي من إيراد صفات بطل حكايته، وهي كثيرة، حتى يحتتم ذلك، قائلاً «هذه بعض أوصاف الشيخ، فاسمع الآن إلى أخباره، وما تجلوه من طيب إيزاره، تستمع شرح قصة خضت منها في فنون غريبة الألوان، وحديثاً كالدر ألفت منه بين الدر والمرجان - 4».

يستعين الأزدي بأسلوب السرد الذاتي، فنتتال الانطباعات والرؤى الذاتية حول المواقف والأحداث في الحكاية، وتتوالى المشاهد لوصف رحلة البطل في المدينة، ويتخلّى فيها عن الإسناد، ويستبد له بوصف مفتوح يهدف إلى عرض جولة أبي القاسم، في أماكن المجون واللهو، ومجالس التطفيل والغناء، وعلى الرغم من أن البطل هو المحور

(1) أبو المظهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، تحقيق آدم متز، هيدلبرج 1.

الذي تدور حوله الحكاية، كونها حكاية الشخصية، إلا أنها تقدم في مشاهدتها شخصيات ثانوية، تساعد في نسج الأحداث، وتسهم في شد الوقائع بعضها إلى بعض، وتتألف تلك الشخصيات من عدد من الجوارى والمغنيات والغلمان والمتطفلين، الأمر الذي جعل أماكن اللهو، مسرحاً لأحداث حكاية أبي القاسم، وجعلها تنبؤاً مكانها، بوصفها إحدى أكثر الحكايات خلابة في تاريخ الأدب العربي القديم. إذ لا يتحرج بطلها الشيخ من الإغراق في الوصف الحسي لكل ما يراه في المجالس التي يحضرها.

إنّ مكنن ضعف هذه الحكاية، يتمثل بأنّها، كانت إطاراً لحشد عدد كبير من المقطوعات الشعرية في موضوعات عدة، فضلاً عن وصف مفصل للملابس والعمائم والأفرشة والأطعمة والفواكه والخمور والمغنيات والجوارى والغلمان، الأمر الذي جعلها وصفاً لرحلة البطل في المدينة، أكثر مما هي نسيج من الوقائع والشخصيات، ولقد أكد المؤلف على نحو غير مباشر ذلك، حينما اختتم كتابه قائلاً:

«هذه حكاية أبي القسم البغدادي التميمي، وأحواله التي توضح لك إنه كان غرة الزمان، وعديل الشيطان، ومجمع المحاسن والمقايح، متجاوزاً الغاية والحد، متكاملًا في الهزل والجد، موفوراً من الأخلاق والنفاق، متخلفاً منها بأخلاق أهل العراق - 146».

أثران قصصيان بارزان، ظهرا أيضاً في هذا العصر، وجعلا من الرحلة، إطاراً يحكم أحداثهما، إذ يقوم فيهما البطل الجوال بوصف مشاهداته. وهذان الأثران هما «رسالة التوايح والزوايح» لابن شهيد الأندلسي (426 = 1034) و «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري (449 = 1057).

يتصل هذان الأثران، في كثير من وجوههما، بالموروث الديني، الخاص بمسرويات الإسراء والمعراج، ويستلهمان مفهوم الارتحال إلى عالم جديد، يختلف عن عالم البطل بحثاً وراء هدف ما، وفيما يختار ابن شهيد عالم الجن، يختار المعري الآخرة، وفيما يهدف الأول إلى الوقوف على سرّ شاعرية بعض الشعراء والأدباء باللقاء برثي كل منهم، يهدف الثاني إلى معرفة مصائبهم في الآخرة. ويقوم فيهما البطل، الذي ينتدب نفسه راوياً، بوصف فعل أنجزه أو شاهده.

يصطفي الراوي - البطل في رسالة التوايح والزوايح، تابعاً من الجن له، يدعى زهير بن نمير، يرافقه في ارتحاله حيث يذهب، ويؤكد الراوي المكنى بأبي عامر، أنه «متى ارتج علي، أو انقطع بي مسلّك، أو خاني أسلوب، أنشد الأبيات، فيمثل بي صاحبي، فأسير إلى ما أرغب، وأدرك بقريحتي ما أطلب، وتأكدت صحبتنا، وجرت قصص لولا أن

يطول الكتاب لذكرت أكثرها، لكنني ذاك بعضهما<sup>(1)</sup> وحالما يفرغ أبو عامر من هذه المقدمة، التي يوضح فيها علاقته بتابعه، حتى ينطلق وتابعه إلى وادي الجن، حيث توابع الشعراء، وفيه يقابلان توابع امرئ القيس، وطرفة بن العبد، وقيس بن الخطيم، وأبي تمام، والبحري، وأبي نواس، والمثنبي، ويُشدهم أبو عامر (= وقد يحيل على ابن شهيد لتطابق كنيتهما وكونهما شاعرين - كاتبين) مقطعات من قصائده، فيجيزونها له، ويعدونه شاعراً. وما يلبث أبو عامر، أن يتجه إلى حيث توابع الكتاب، مثل توابع الجاحظ وعبد الحميد وبديع الزمان وإسحاق بن حمام، وأمام كل منهم، يقرأ أبو عامر، بعضاً من رسائله الثرية، ويتجه بعد ذلك، إلى مجلس لنقاد الجن. ويختتم رحلته بالوصول إلى مكان خاص بحيوان الجن، فيروي لهم بعض أشعاره وشذرات من نثره، ليثبت أنه مبرز في حقل الشعر والنثر. وحالما ينتهي من تطوافه، ويثبت جدارته أمام توابع الشعراء والكتاب ونقاد الجن، حتى يعود برفقة تابعه إلى المكان الذي انطلق منه.

تنهج رسالة الغفران، نهج رسالة التوابع والزوابع، في كون راويها ابن القارح، شأنه شأن أبي عامر، يرحل إلى عالم غير عالمه، يكون هذه المرة، عالم الآخرة، وفيها يقوم، بمحاولة صعبة لدخول الجنة، ولا يفلح في ذلك، إلا بعد تدخل من الصحابة، وموافقة الرسول<sup>(2)</sup>، وتفتح مشاهد السرد، بعد ذلك، على وصف مفصل لمحتويات الجنة من أنهار وأشجار وولدان، الأمر الذي يحدد ملامح الفضاء الذي ستدور الأحداث فيه. وتمثل تلك الأحداث، بحضور ابن القارح مجالس شعراء وأدباء، خلدوا في الجنة، فيسألهم في شعرهم وأدبهم، ويجادلهم في أوجه روايته وإعرابه، ثم لا ينفك يورد وصفاً مثيراً لمحتويات الجنة، وتقود الرحلة الراوي في نهاية المطاف إلى النار، حيث هول العذاب والرعب الذي يثيره يوم الحشر، ويتفرج على إبليس، وقد كبل بالأغلال، وهو يُضرب بمقامع من الحديد، ويتقدم ابن القارح متوغلاً في النار، فيجد مجموعة من الشعراء يتعرضون للعذاب، فهذا صخر الذي تتعالى النار من هامته، وذاك بشار الضير الذي منح البصر في الآخرة، فكلما أغمض عينيه، فتحمها زبانية الجحيم بكلايب متوقدة من شدة النار، ولا يلبث ابن القارح أن يرى في النار، شعراء مثل عنترة والأخطل وغيرهما.

لقد وصف جولد سيهبر رسالة الغفران، بأنها والعمل الغزير الفكرة، العظيم الثروة إلى أقصى حد من الوجهة اللغوية<sup>(3)</sup>، ولا شك أن احتشاد الرسالة، بالأفكار، والمناقشات

- (1) ابن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، تحقيق بطرس البستاني، بيروت 90 ونص الرسالة ورد في كتاب الذخيرة لابن بسام ق 1 مج 1: 245-301.
- (2) أبو العلاء المغربي، رسالة الغفران، تحقيق على شلق بيروت 98.
- (3) جولد سيهبر، مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبد الحليم النجار، القاهرة 71.

اللغوية والأدبية، أضعف إلى حد كبير بنيتها السردية، ذلك أنه، على الرغم من أن رحلة الراوي، أظرت أحداث الرسالة، إلا أن الإغراق في شؤون اللغة، أفرغ الرسالة من قوة الحكاية، فنحلت إلى مشاهد متتالية، لا ينتظمها سوى الراوي الذي يقف على الأشياء، ويصفها، مشهداً بعد آخر. ولعل ما شفع لرسالة الغفران، ومنحها أهمية خاصة في هذا السياق، إن فضاء الآخرة، وما يفترضه من أحداث متخيلة، نفحها بقوة، سواء تعلق ذلك بغرابة المكان وجذته، وما يستدعيه من احتمالات تستمد وجودها من الموروث الديني حول الجنة والنار، أم بمحاولات الراوي المستميتة للولوج إلى هذا الفضاء الغريب، ووقوفه على أعمال الثواب والعقاب التي يلقاها البشر في الآخرة.

إن نظرة شاملة إلى البنية السردية، لرسالتي ابن شهيد وأبي العلاء، تكشف أنّ الرساليتين كانتا، قد حدثتا حذو حكاية أبي القاسم البغدادي، ليس في الغرض، إنما في استلهاً الرحلة، واستثمار الإمكانات التي توفرها، سواء أكانت رحلة في مدينة ما، أم وإد للجن، أم الآخرة. ذلك، أنّ تلك الآثار الأدبية الثلاثة، اعتمدت على راوية جوال، يخلق حكاية، لأهداف متباينة، يتخلى فيها عن الإسناد، لأنه يروي مشاهداته العيانية، ويرتب مشاهد السرد على التعاقب، دون أن يعنى بضرورات الحكاية، من صراع وذرورة واختلاف في مواقف الشخصيات، الأمر الذي جعل تلك الآثار، تنسم بضعف بين في بنيتها السردية. لكنها من ناحية ثانية - وهو ما يهتم هذا البحث بكشفه - إلى جوار الأعمال التي وقفنا عليها لأحمد بن يوسف الكاتب والتنوخي، بوصفها أمثلة ليس إلا، على الصورة الخصة والغنية للجهود القصصية التي تزامنت وعصر ظهور المقامة، قد نهضت بمهمة غاية في الخطورة، فقد خففت إلى درجة ما من هيمنة الإسناد المركب، - وإن لم تفلح في تقويضه - واستبدلته بإسناد بسيط، لا يهدف إلا إلى تأطير حكاية، تختلق لأغراض فنية واعتبارية.

في هذا المناخ القصصي، بزغت المقامة نوعاً قصصياً جديداً، ذوّبت فيها كثيراً من كشوفات العصر في مجال السرد، وفي مقدمة ذلك، اعتيادها على الرواية الجوال الذي يلازم بطلاً رحالة، وبوساطة المناقلة الشفاهية بينهما، للوقائع التي عاشها، يتكون متن المقامة، الذي من ميزاته الأساسية أنه يتضمن حكاية، مجبوكة حبكاً فنياً متماسكاً. فإلى تأكيد الريادة الإبداعية لفن المقامة، يتجه مسار البحث في الفقرة اللاحقة.

### 3- إشكالية الريادة الإبداعية :

كان أبو القاسم الحريري (446-516 = 1054-1122)، قد أقر بأنّ بديع الزمان الهمداني (358-398 = 968-1007) مبتدع فن المقامات، وأنه «سباق غايات، وصاحب آيات. وأنّ المتصدي بعده لإنشاء مقامة، ولو أوتي بلاغة قدامة، لا يغترف إلا من فضالته، ولا يسري

ذلك المسرى إلى بدلالته<sup>(1)</sup> وأكد، أنه يريد أن ينشيء مقامات، يتلو فيها «تلو البديع، وإن لم يدرك الضالع شأو الضليع»<sup>(2)</sup>. وجاراه في تأكيد ريادة الهمذاني، لفن المقامة، القلقشندي، بقوله، إن «أول من فتح باب عمل المقامات، علامة الدهر، وإمام الأدب، البديع الهمذاني»<sup>(3)</sup>.

إن الريادة الإبداعية، لا تقتصر مباشرة بالريادة الزمنية، ففيما تحيل الثانية إلى محاولات تندرج في سياق التاريخ، تحيل الأولى إلى الموهبة الخلاقة التي تفتتح نعتاً جديداً للتعبير، يكتسب قوته وديمومته من قدرته على تأسيس قواعد محددة في البناء، وفيما ترتبط الريادة الزمنية، بالمحاولات غير المتميزة فنياً لنمط من أنماط القول، تقتصر الريادة الإبداعية، بالمثال الذي اكتسب قوته المعرفية، ليكون نسيجاً يحتذى، وموجهاً أساسياً للجهود اللاحقة. ومن أجل تسليط الضوء على ريادة الهمذاني الإبداعية، وأهميتها في تاريخ فن المقامة، لا بد من الوقوف قليلاً على الجهود التي تحيل إلى الريادة الزمنية، لكي يتضح جهد الهمذاني.

لقد عرفت أربع طبقات من كتاب المقامات بين القرنين الثالث والسادس في الثانية يندرج الهمذاني، وفي الأخيرة الحريري. ويمثل الطبقة الأولى: النوري الصوفي (295 = 907) وابن بسّام (303 = 944)، والثانية: الهمذاني (398 = 1007) وابن نباتة السعدي (405 = 1014) والسلمي (413 = 1022). والثالثة: ابن بطلان (460 = 1067) وابن نايقا (485 = 1092). والرابعة: الغزالي (505 = 1111) والحريري (516 = 1122) والزمخشري (538 = 1143) والأشتركي (538 = 1143). وعلى الرغم من أن هذا المسرد التاريخي، يثبت أن المقامة عرفت قبل أكثر من قرن على ظهور الهمذاني، إلا أن الجهود السابقة، لم تظفر بأية أهمية تذكر، سوى حق سبق الزمن، مما يدل على أن إشارة الحريري، تكتسب أهميتها الخاصة، لأنها تؤثر إلى ريادة هذا الفن، ليس طبقاً لمعيار التاريخ، بل انطلاقاً من معيار الإبداع. الأمر الذي يوجب التأكيد، هنا، أن إضفاء أية أهمية على القدم التاريخي، في هذا الموضوع، لا معنى له، بما في ذلك تأكيد زكي مبارك، من أنه توصل «إلى أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات»، وإنما ابتكره ابن دريد<sup>(4)</sup>.

ليس من شأن هذا البحث، دحض آراء الآخرين، إنما من شأنه تأكيد فروضه بأدلة

(1) الحريري، مقامات الحريري، بيروت 13.

(2) م. ن 11.

(3) صحح الأعشى 110:14.

(4) زكي مبارك، الشرفني في القرن الرابع، بيروت 1:243.

وقرائن، ومناقشة الآراء الأخرى إذا لزم الأمر، ولما كان «الاكتشاف» الذي توصل إليه زكي مبارك، قد استأثر باهتمام الآخرين في سياق موضوع البحث في تاريخ المقامات فإن استنتاج النص الذي استند إليه مبارك، بموجب قراءة مغايرة له، تصحح ضرورة ملحّة.

استند مبارك في أمر ريادة ابن دريد على النص الأتي الذي أورده الحصري:

«لما رأى (= الهمذاني) أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدي، أغرب بأربعين حديثاً، وذكر أنه استنبطها من يتابع صدره، واستنسخها من معادن فكره، وأبداها للابصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر، في معارض أعجمية، وألفاظ حوشية، فجاء أكثر ما أظهر تنبوع قبوله للطباع، ولا ترفع له حججها الأسماع، وتوسع فيها، إذ صرف ألفاظها ومعانيها في وجهه مختلفة، وضروب متفرقة، عارضها بأربعمئة مقامة في الكدية، تذوب ظرفاً، وتقرظ حسناً، لا مناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى، وقف مناقلتها بين رجلين: سمى أحدهما عيسى بن هشام، والآخر أبا الفتح الإسكندري، وجعلهما يتهاديان الدر، ويتفانان السحر، في معان تضحك الحزين، وتحرك الرصين، يتطلع منها كل طرفية، ويوقف منها على كل لطيفة، وربما أفرد أحدهما بالحكاية، وخصّ أحدهما بالرواية»<sup>(1)</sup>.

إنَّ استنتاج نص الحصري لا بد أن يراعي الحقائق الآتية:

- 1 - إنَّ ابن دريد (223-321 = 837-933)، لم يكن سوى لغوي - إخباري، يعتمد على سلسلة الإسناد التقليدية في رواية الخبر، كما تدل على ذلك الأخبار المنسوبة إليه في كتاب الأمالي، لأبي علي القالي (356 = 966).
- 2 - إنَّ الحصري القيرواني (453 = 1061) متأخر كثيراً عن عصر ابن دريد كما إنه متأخر عن الهمذاني، مما يؤكد أن روايته لم تكن معاصرة للحدث الذي تقرره.
- 3 - إنَّ نص الحصري يسكت عن جهود كتاب سابقين للمقامات، عاصروا ابن دريد كالنوري الصوفي وابن بسام.
- 4 - إنه يقرر أنَّ أحاديث ابن دريد، من المرويات اللغوية، هدفها التعليم.
- 5 - إنه يميز بين مصطلحي «الحدث» و «المقامة».
- 6 - إنه لا يورد أي وجه من وجوه الشبه بينهما في الغرض والعدد والمناسبة.
- 7 - إنه يؤكد أنَّ مقامات الهمذاني، وقف على مناقلتها راوٍ وبطل، ولا تتضمن أحاديث ابن دريد شيئاً من ذلك. فما هي سوى أخبار مسندة.

(1) زهر الآداب 1: 273-274.



إن قراءة نص الحصري، في ضوء الحقائق أعلاه، لا تكشف أية علاقة بين الأحاديث والمقامات، فإذا وضعنا في الاعتبار، ثلاثة مكونات أساسية مشتركة بينهما وهي: صيغة الإسناد، وبنية المتن، والغرض نجدهما يختلفان، اختلافاً كلياً فيها، ففيما جاءت الأحاديث بإسناد مركب أمين على تقاليد الخبر، كما عرفت في الأحاديث النبوية والأخبار الأدبية والتاريخية، ويمتن لا ينطوي على بنية فنيّة محددة، كونه لا يعنى إلا بإيصال القصد على نحو مباشر، وبأغراض متعددة، تهدف إلى حصر الغريب والحوشي من الألفاظ، فإن المقامات، تختلف عن الأحاديث في كل ما ورد ذكره، فالإسناد البسيط الذي يؤطرها، لا يهدف إلى تقصي الحقيقة، إنما يبدشّن لظهور الحكاية، وتهيئة أسباب المناقلة السردية للمتن بين الراوي والبطل، واعتمدت على متن، قوامه حكاية، متماسكة البناء<sup>(1)</sup>، وطفى عليها غرض الكدية.

إن المضاهاة بين الأحاديث والمقامات، لا تدلل على ما ذهب إليه مبارك، من أن ابن دريد هو مبتكر فن المقامة، وأن البديع قد جراه في ذلك، إنما تقرر، أن كلا منهما، كان يعمل في حقل من حقول التعبير، يختلف عن الآخر، وفيما كان الأول، يهدف إلى إقرار حقائق لغوية، كي تندرج في سياق الوقائع التاريخية للمرويات اللغوية، كان الثاني، ينتدع نوعاً قصصياً جديداً يقض له، أن يستأثر بعناية اللاحقين، وأن يتصف بثبات في مكونات بنيته السردية، زمناً طويلاً. إلى درجة عدّ فيها «بذعة أدبية، تكاد من فرط تميزها عن أنماط الكتابة المعهودة، تكون ناجمة عن غير أصل...»<sup>(2)</sup> وأن صاحبها سواها على غير مثال، ونسجها على غير منوال<sup>(3)</sup>.

#### 4 - ثبات البنية التقليدية :

وصفت المقامات، بأنها «أوضح الأنواع وأكثرها تحديداً وتميزاً بين كافة أنواع الكتابة الثرية العربية في العصر الوسيط»<sup>(4)</sup> ومن المؤكد أن هذا الوصف، إنما اشتق، مما تميزت به المقامات، من جدّة في الصياغة، وابتكار في البنية، الأمر الذي يحيل على ظهور نوع قصصي، لم يكن معروفاً من قبل.

إن البنية المميزة للمقامة، كما وضع أسسها الهمداني، اتصفت بأنها، استندت إلى ركنين مهمين، أولهما: راوٍ ينهض بمهمة إخبارية محددة، وثانيهما: بطل ينجز مهمة

(1) سنقف على بنية الحكاية في الفقرة 4 الفصل 2 الباب 4.

(2) حمادي صمود، الوجه واللقب في تلازم التراث والحداثة، تونس 11-12.

(3) فدوى مالطي دوجلاس، بناء النص التراثي، بغداد 95.

واضحة، ومن خلاصة تفاعل الراوي والبطل، يتكون متن حكائي قوامه الرواية والحكاية، والعلاقة التي تربطهما. إن هذه البنية، التي ثبت الحريري، فيما بعد دعائمها في تاريخ الأدب العربي، ظلت زمناً طويلاً، توجّه بقوتها الجهود الإبداعية في فن المقامة، ومن المؤكد أن الحريري نفسه، قد عمل بتوجيه من تلك البنية، وأجهد نفسه في تقليدها كما سبق التأكيد من إقراره أنه كان يريد في مقاماته أن يتلو ما أبدعه الهمداني، ومن ثم يسطل الزعم القائل إنه كتب مقاماته، إثر لقائه شيخاً جوالاً من سروج<sup>(1)</sup>.

لقد حافظ الحريري، على نمط العلاقة التي أوجدها الهمداني بين الراوي والبطل، وجاراه في ذلك، مع عناية خاصة بالصياغات اللفظية التي استجدت في عصره، الأمر، الذي جعل انصرافه إلى التصنع والزخرفة، مأخذاً عليه، فقد وصف بروكلمان مقاماته، بأنها «شيء يبهر العيون، ويسحر القلوب لحظة كالألعاب النارية الجميلة، غير أنها عقيمة كتلك الألعاب، سواء بسواء»<sup>(2)</sup>. وقد جاراه آخرون في تأكيد ذلك<sup>(3)</sup>.

لقد أقر عدد من كتاب المقامة، بالأهمية الاستثنائية التي مثلها الحريري في تاريخ المقامة، بعد رائدها الهمداني، ومنهم ابن الصبقل الجزري (701 = 1301)، الذي وصفه بأنه «أوجد زمانه، وأرشد أوانه»، وإنه لذلك، لم يفلح في مجارته، وما كان إلا تابعاً مقلداً له، قائلاً «ما أنا ممن ينال شجعان أسجاعه، ويطاول ما زان أوزان اختراعه، ويعتلي أبكاره، ويقاوم ويجتلي أبكاره»<sup>(4)</sup>، وظلّ يستمرىء دوره مقلداً، واصفاً نفسه بالفرس الثاني في السباق، فيما كان الحريري الأول، تارة، وبأنه الجراد، فيما كان الحريري هو الصفر، تارة أخرى. وأفضى ذلك إلى أن يتبوأ الحريري، موقع الإمامة في هذا المضمار، حينما طغت أساليب التصنع في التعبير، وصارت مقاماته قبلة الهواة والمحترفين من كتاب المقامات، وقد أربت شروحه على الثلاثين بين القرنين السادس والثالث عشر الهجريين<sup>(5)</sup>.

لم يقتصر أمر ترسّم خطي الحريري على القدماء، بل ترسمها المحدثون أيضاً، ومن أكثرهم التزاماً بذلك اليازجي (1288 = 1871) الذي «بالغ في تقليده في الموضوع، وصوره

---

(1) المكي، نزهة الجليس ومنية الأديب أنيس، النجف 3:2، وشذرات الذهب 50:4 وكشف الظنون 1788:2.

(2) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي 144:5.

(3) أنيس المقدسي، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، بيروت 397 وأندريه ميكال، الأدب العربي 83.

(4) ابن الصبقل الجزري، المقامات الزينية، تحقيق عباس مصطفى الصالحي، بيروت 76.

(5) انظر قائمة الشروح في بروكلمان، تاريخ الأدب العربي 150-147:5.

الأشخاص وتصرفاتهم. كما نهج على صياغة المقامات الحبرية في التزام الأسلوب المسجع<sup>(1)</sup>.

إن النماذج الأربعة التي انتخبناها لتمثيل البنية التقليدية للمقامة العربية، وهي الهمداني والحريري وابن الصيقل الجزري واليازجي، ظلت ابتداء من القرن الرابع، تعمل في أفق محدد الأبعاد، محكوم بنظام صارم، أسبغ على المقامات، مع اختلاف عصورها، بنية ثابتة، مما جعل المقامات «تنطوي على ذاتها في شكل حلزوني»<sup>(2)</sup>، ولم تقوض تلك البنية - التي سنعتمدها موضوعاً للتحليل في الفصل القادم - إلى أن اختفى هذا النوع، ولكن الأمر الذي ينبغي الوقوف عليه، والبحث فيه هو أن تاريخ المقامة العربية، قد عرف منذ وقت مبكر، تياراً استفاد من المقومات الفنية للمقامة التقليدية، ونشأ على هامشها، واندرج في تاريخها، لكنه لم يخضع، خضوعاً تاماً لبنيته، إنما تحرر في طبيعة العلاقات التي تربط مكونات البنية السردية ونوعها. إن الوقوف على تشكل فن المقامة، بوصفه نوعاً أساسياً من أنواع القصص العربي، يقتضي التريث أمام ذلك التيار.

## 5 - محاولات تقويض البنية التقليدية :

في الوقت الذي وضع فيه الهمداني، أصول البنية التقليدية لفن المقامة، فإنه في عدد قليل من مقاماته<sup>(3)</sup>، لم يلتزم القواعد التي نظمت معظم مقاماته الأخرى، فقد تخلى في بعض المقامات، عن ثنائية الراوي والبطل، وهي من لوازم البنية التقليدية، واختفى أبو الفتح الاسكندري، فكان عيس بن هشام، يقوم أحياناً بمهمته، فيكون مرة راوية، ويكون مرة أخرى راوية وبطل.

إن خروج الهمداني المبكر، على البنية التي أرسى دعائمها، فتح الأفق، أمام معارضة شديدة لتلك البنية في القرون اللاحقة. وكانت أوجه الخروج تتعدد، من تغييب للبطل، إلى اندغامه في الراوي، إلى تخلي الراوي عن مهمته السردية، مما جعل عدداً لا بأس به من المقامات العربية، طوال عشرة قرون، تتحول إلى أخبار وصفية، تقتصر إلى خواص السرد القصصي، ناهيك عن افتقارها إلى الشروط الخاصة بالنوع الذي تنتمي إليه. كانت أوضح محاولات عدم الالتزام بقواعد المقامة، قد جاء بها ابن نايقا، إذ لم يلتزم

(1) فتكور الكك، بديعات الزمان، بيروت 126.

(2) م. ن. 201.

(3) وهي: الصيمرية والمغزلية والنهدية والبغدادية والغيلانية والتميمية والبشرية.

براهو محدد في مقاماته، وإن التزم ببطل واحد فيها هو اليشكري<sup>(1)</sup>، مما أفضى إلى بزور مظهر من المظاهر الجديدة، تمثل بإمكانية تعدد الرواة في المقامة. أما الغزالي، وهو معاصر لابن نايقا، فقد جاءت مقاماته، تقليداً للخبر العربي، ولم يكن معنياً، فيما يبدو بالانخراط الجدي في فن المقامة، بدلالة قوله، إنه في مقاماته هذه كان يهدف إلى جمع «الفاظ البلغاء، وقر الحكماء، وسير الملوك المتقدمين، وكلام الأولياء، والأدباء الراشدين، وأعيان فوائد الكتب، ومخترات ما نقله، ونثره أهل الأدب، ومحاسن أشعار القدماء والمحدثين، ومُلح أخبار الفضلاء والمتأدبين»<sup>(2)</sup>، الأمر الذي يؤكد أنّ مقامات الغزالي، ما هي إلّا مرويات إخبارية، لا تندرج في نوع المقامة، وهي تجاري أخبار الزهاد والأدباء في نصحهم الملوك والخلفاء والأمراء والولاة، والتي اصطاح عليها ابن قتيبة (276 = 889) بـ «المقامات» لا وصفاً فنياً لها، إنما دلالة على مجلس النصح والإرشاد<sup>(3)</sup>.

جاءت مقامات الزمخشري في القرن السادس، مثلاً جلياً، على الاستغناء عن البطل، واستبداله براهو يخاطب نفسه وعظماً، وكان الزمخشري يهدف فيها إلى مناجاة نفسه، إثر تجربة مرض قاسية، ولم يأل جهداً، كما يقول في «انتقاء ألفاظها، وإحكام أسجاعها، وتضويق نسجها، وإبداع نظمها، وإبداعها المعاني التي تزيد المستبصر في دين الله استبصاراً، والمعبر من أولي الألباب اعتباراً»<sup>(4)</sup> ولما كان الراوي أبو القاسم (= وهي كنية الزمخشري) يعظ ذاته، فقد غابت الحكاية، وتحول النص إلى مناجاة اعتبارية للنفس، تفتقر إلى مكونات البنية السردية للمقامة، وصار الإرسال يصدر عن الراوي، ويرسل إليه في الوقت نفسه، وهو ما يختلف والإرسال السردية في المقامة، الذي يتجه إلى مروى له غير الراوي والبطل.

يمكن عدّ مقامات ابن الجوزي (597 = 1200)، من التيار الذي لم يلتزم على نحو دقيق، بقواعد المقامة التقليدية، وإن راعى فيها بعض تلك القواعد أحياناً، فقد انتخب لمقاماته رواية بطلاً، ساء «أبا التقيوم» رمزاً للعقل، وجعل ظهور هذا الراوي مقترناً بظهور راوٍ مجهول يسبقه، يستعين بضمير المتكلم، ففي مقامة «في وصف قاص»، يقوم الراوي المجهول، في مجلس خاص، بوصف شخصية أبي التقيوم، فيطلب إليه مَنْ في المجلس، أن يكتب إليه بالحضور، فما كان من الأخير إلّا الحضور مسرعاً فينتخب له موضوعاً

(1) يوسف نور عوض، فن المقامات بين المشرق والمغرب، مكة المكرمة 167.

(2) الغزالي، مقامات العلماء بين يدي الخلفاء والأمراء، تحقيق محمد جاسم التميمي، بغداد 44.

(3) عيون الأخبار، 2: 333-343.

(4) الزمخشري، شرح مقامات الزمخشري، بيروت 12.

للمسامرة عن القصص، لأنها «أوفى الأقسام وأوفر الحصص»<sup>(1)</sup>، فيروي للحضور قصصاً دينية عن آدم ونوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وقارون وقوم سبأ وإبراهيم ويوسف وداود، وسليمان وعيسى وأصحاب الكهف، ويختتم سلسلة قصصه، بسيرة الرسول محمد، وللتوفيق بين عدد القصص، والزمن الذي تستغرقه روايتها، يلجأ الراوي إلى تقسيم المقامة، إلى خمسة أقسام، يستغرق كل قسم ليلة واحدة، وهو شكل مبتكر في المقامة العربية، لم تتوفر لنا بعد شواهد على وجوده في تاريخ المقامة إلا في مقامات ابن الجوزي، وهو يشبه إلى حد ما تركيب «ألف ليلة وليلة». سواء من جهة الراوي، أو المروري له، أو في تقطيع الحكاية، تبعاً لعدد الليالي الذي تستغرقه الرواية.

وتندرج في هذا السياق، مقامة للشاب الظريف (= شمس الدين بن عفيف التلمساني (687 = 1288) التي يرويها راوٍ واحد، وفيها ثلاثة أبطال، يقوم كل منهم، برواية حكايته للراوي<sup>(2)</sup>، وهو أمر لم يعرف من قبل، يناقض مقامات ابن نايقا الذي أوجد تعدداً في الرواة، والتزاماً بطل واحد. وتكاد «مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية»<sup>(3)</sup> لظهير الدين الكازروني (697 = 1298) تنحو المنحى ذاته، إذ يتناوب فيها الرواية شخصان هما: قاضي تبريز الذي يؤمل نفسه زيارة بغداد، ورجل آخر، لا يعلن عن اسمه، يصف له المدينة، وما لحق بها من دمار، وتفتقر المقامة إلى الحكاية، ولا تعدو سوى وصف مفصل للمدينة وما آلت إليه من خراب. وحذا ابن الوردي (749 = 1349) حذو سابقه، إذ جعل مقاماته وسيلة للتعبير عن قضايا متعددة، دونما عناية بالشخصية المركزية في المقامة<sup>(4)</sup>.

توالى محاولات الخروج عن البنية التقليدية للمقامة بعد ذلك، كما يلمس في مقامات القواس (886 = 1481) الذي أوجد عدة أبطال لمقاماته، والسيوطي (911 = 1505) الذي أحال مقاماته على نمط من المناظرات، دونما عناية ببطل أو راوٍ، إنما جعل نفسه محوراً لمناجاة ذاتية<sup>(5)</sup>، والخفاجي (1069 = 1658) الذي صرف همه لتقد الظواهر الاجتماعية السيئة، دون اهتمام بقواعد فن المقامة، وفي هذا التيار تدخل مقامات الكريدي

(1) ابن الجوزي، مقامات ابن الجوزي، تحقيق محمد نعش، القاهرة 14.

(2) التلمساني، المقامة، ملحقاً بديوان محمد بن يوسف الشيباني، تحقيق محمد سليم الأنسي، بيروت 13.

(3) الكازروني، مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية، تحقيق كوريس عواد وميخائيل عواد، مجلة المورد 1979/4، بغداد 428.

(4) فن المقامات بين المشرق والمغرب 245.

(5) محمد رشدي حسن، أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة، القاهرة 49.









## 1 - بنية الاستهلال السردى :

ينبغي طرح السؤال الآتي: من الراوي في المقامة العربية؟ إنَّ الذهن لينصرف، إبان الإجابة على هذا السؤال إلى أولئك الرواة المعروفين الذين يظهرون في مستهل المقامات، مثل عيسى بن هشام في مقامات الهمداني، والحاترث بن همام في مقامات الحريري وأبي التقويم في مقامات ابن الجوزي والقاسم بن جريال في مقامات الجزري وسهيل بن عباد في مقامات اليازجي، وغيرهم كثير في الرحلة التي أربت على ألف عام من تاريخ المقامة العربية، وذلك لأن هؤلاء يقدمون أبطالاً معروفين مثل أبي الفتح الاسكندري وأبي زيد السروجي أبي نصر المصري وميمون بن خزام وغيرهم. ولكنَّ إجابة مثله هذه، ستكون غير صحيحة، لأنها أهملت التحقق من صواب الأمر.

إنَّ الرواة المذكورين، ما هم في حقيقة الأمر إلا رواة من الدرجة الثانية، يتقدمهم في جميع المقامات العربية التي التزمت بنية المقامة، رواة مجهولون، وإليه يجب أن تعزى رواية المقامات، وعلى نقيض أولئك الرواة المعروفين الذين يتكفلون بمتابعة بطل المقامة، فإنَّ هؤلاء الرواة المجهولين يتخفون خلف ضرائر غائبة أو متكلمة، ويختفون تماماً حالما تنتهي جملة الاستهلال في المقامة، تاركين أمر الرواية لغيرهم، ولكنَّ ندرة المعلومات عنهم، وتحفظهم المنقطع النظر عن الاعلان عن أنفسهم علناً، وتكتمهم وإيجازهم، جعل الأذهان تنصرف، إلى أولئك الرواة المعروفين، لتنسب إليهم مهمة ليست لهم، إنهم باختصار يروون عن أبطال المقامات، أما هؤلاء الرواة فيروون عنهم، ولذلك فهم يمثلون رواة من الدرجة الأولى أمام المروي له.

ولتوضيح ذلك، سنقف على جل الاستهلال في بعض نصوص المقامات، ونسأل بعد ذلك من يروي؟

تكون جملة الاستهلال الآتية «قال عيسى بن هشام» مفتتحاً لمقامة واحدة عند الهمداني، وجملة «حدثني عيسى بن هشام» مفتتحاً لمقامتين، وتستأثر ثابن وأربعون مقامة بجملة «حدثنا عيسى بن هشام» مفتتحاً لها. وتكون في مقامات الحريري، جملة الاستهلال الآتية «قال

الحارث بن همام» مفتتحاً لقامة واحدة أيضاً وتتوزع المقامات الأخرى على الصيغ الآتية: «حدث الحارث بن همام» و «حكى الحارث بن همام» و «روى الحارث بن همام» و «أخبر الحارث بن همام». أما مقامات ابن الصيقل الجزري فتتوزع بالتساوي على الصيغ الأربع الآتية: «حكى القاسم بن جريال» و «حدث القاسم بن جريال» و «أخبر القاسم بن جريال» و «روى القاسم بن جريال» بحيث تشكل تلك الصيغ نسقاً متعاقباً، تتكرر كل صيغة بعد الصيغ الثلاث الأخرى. ويقرّد أمر الاستهلال في المقامات العربية الأخرى على هذا النحو أو ما يشابهه. ولنعد السؤال الآن، بعد أو توفرت لدينا معطيات كافية للجواب، من الذي ينطق بجملة الاستهلال هذه؟ هل هم أولئك الرواة الذين ذكرناهم؟ الجواب، كلا، فصيغ الاستهلال، سواء أ جاءت بصيغة المفرد أم الجمع، المتكلم أم الغائب، إنما تستند إلى رواية نجهل عنهم كل شيء، وفي مقدمة ذلك نجهل أسماؤهم، وما صيغ الاستهلال التي ذكرناها إلا أقتنة يطلون على المروي له من ورائها، ثم سرعان ما يخفون، بعد أن يتيقنوا أنّ الرواة المعروفين سيقومون بمهمتهم على خير ما يرام، إذ يمكن عد جملة الاستهلال إيداناً للرواة المعروفين بالبدا بالرواية، فهم حالاً بيدأون، إثر انتهاء جملة الاستهلال. وعليه، يمكن التأكيد، أن من يؤطر المقامة سريداً هو راوٍ مجهول، وداخل مستوى روايته، يظهر راوٍ معلوم، يقوم هو الآخر برواية أفعال البطل، وأحياناً، بعد هذه السلسلة المتعاقبة من الرواية، يقوم البطل، برواية أفعاله كما في المقامة الكوفية للحريري، حيث تنتهي سلسلة الرواة بأبي زيد السروجي وهو يروي للحارث بن همام ما جرى له، وهنا سظهر - كما سيوضح - ثلاثة مستويات من السرد.

إنّ جملة الاستهلال القصيرة، لا تعطي تصوراً عن هذا الراوي المجهول الذي يتخفى في ثناياها، كما لا تكشف أبداً عن رؤيته للعالم الفني الذي يدشن لظهوره، وهو يتجنب أي تعليق أو ملاحظة بشأن الراوي الذي سيتكفل بمهمة الرواية بعده، ولا شأن له بالبطل وأفعاله، هذا ما يمكن قوله حول غياب رؤية هذا الراوي، أما دوره في البنية السردية، فيتمثل بأنه البوابة التي من خلالها تمر المقامة إلى المتلقي، وهكذا أصبح جزءاً أساسياً من بنية المقامة. إذ لا يمكن تصور وجود مقامة دون واحدة من جملة الاستهلال التي ذكرناها فهي العلامة الدالة التي اقترنت بالبنية التقليدية للمقامة العربية، وصارت تعرف بها.

تنتهي صيغ الاستهلال إلى الماضي، كما أنّ الجملة الأولى على لسان الراوي المعروف تأتي بصيغة الماضي أيضاً، وهي تهدف إلى كشف واقعة حصلت في الماضي، وهذا يكشف أنّ ثمة ثلاثة مستويات زمنية في بنية السرد، إذ تندرج كلّ رواية في سياق رواية أخرى، ونورد الأمثلة الآتية، كيما نخلص إلى بيان آليّة عمل الراوي من الدرجة الأولى الذي يمثل مستوى أول من مستويات الراوي المفارق لمرويّه.

1 - ورد ما يأتي في المقامة البخارية للهمذاني:  
«حدثنا عيسى بن هشام، قال: أحلني جامع بخارى يوماً وقد انتظمت مع رفقة في سمط  
الثرى...»<sup>(1)</sup>

2 - وورد ما يأتي في المقامة الحليّة للحريري:  
«روى الحارث بن همام، قال: نزع بي إلى حلب، شوق غلب، وطلب ياله من طلب،  
وكنت يومئذ خفيف الحاذ، حثيث الفاذا...»<sup>(2)</sup>.

3 - وورد ما يأتي في مقامة شمس الخلافة للوهرائي:  
«حدثنا عيسى بن حماد الصقلي، قال: لما إختل في صقلية الإسلام، وضعف بها دين  
محمد عليه السلام، هاجرت إلى الشام بأهلي، وجعلت جلقً محط رحلي...»<sup>(3)</sup>.

4 - وورد ما يلي في المقامة الواسطية لابن الصيقل الجزري:  
«حكى القاسم بن جريال، قال: اتخذت مدة من الدهر الأدهم، والعصر المحلوك  
الأسحم، بالحبشة داراً...»<sup>(4)</sup>.

5 - وورد في مقامة «الكواكب الدرية، في المناقب البدرية» للقلقشندي، ما يأتي «حكى  
النائر بن نظام، قال: لم أزل من قبل أن يبلغ برید عمري مركز التكليف، ويتفرق جمع  
خاطري بالكلف بعد التأليف...»<sup>(5)</sup>.

6 - وورد في مقامة لابن شرف ما يأتي:  
«حدثني الجرجاني، قال: كان فتى بجرجان من أبناء الأقبال، قد جمع إلى النهاية في  
الجمال الغاية في الجمال»<sup>(6)</sup>.

7 - وورد في المقامة «الممشية» للشدياق ما يأتي.  
«حدّس الهارس بن هشام، قال: كنت سمعت كثيراً عن النساء حتى كدت أمي  
بالنساء»<sup>(7)</sup>.

8 - وورد في المقامة «المعانيّة» للسنوسي (1318 = 1900) ما يأتي:  
«أخبرنا أبو المحاسن ابن بسام، أنه خرج في بعض الأعوام، لحج بيت الله الحرام»<sup>(8)</sup>.

(1) الهمذاني، شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،  
بيروت 95.

(2) مقامات الحريري 401.

(3) الوهرائي، منامات الوهرائي ومقاماته ورسائله، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش، القاهرة 97.

(4) المقامات الزينية 411.

(5) صبح الأعشى 112:14.

(6) ابن بسام، الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، ليبيا، ق 212:1:4.

(7) عماد الصلح، اعترافات الشدياق في كتاب الساق على الساق، بيروت 453.

(8) محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشونفي، تونس 251:2.

تسمى النماذج التي أوردناها إلى غمطين من كتاب المقامات، أولهما، عرف بانصرافه إلى هذا الفن، وإجادته له، كالهمداني والحريري وابن الصيقل الجزري. وثانيهما، عرف في مجالات أدبية غير المقامة، لكنّه أولى هذا الفن بعض اهتمامه، كالوهراني والقلقشندي وابن شرف والسنوسي والشدياق، وما ذلك، إلّا لنبين أنّ بنية الاستهلال السردية في النمط التقليدي تخضع لنسق ثابت ومهيمن، لم يتغير مع الزمن، وسواء أكان الاستهلال، يعتمد على صيغة الأفراد أو الجمع أم صيغة الغائب أو المتكلم، فإنّ الأفعال «حدث، روى، حكى، أخبره» تنتمي إلى الماضي، وتحمل في طياتها صوت راوٍ ينبعث منه، موجهاً روايته إلى مروى له غائب، لا يعرف أمره. وهذا يؤكد أنّ الاستهلال السردية، إطار لا غنى عنه، ينظم عملية الرواية والتلقي معاً. وهو في الوقت الذي يُجبل على راوٍ مجهول، فإنه يلمح أيضاً إلى مروى له مجهول، يقع في نفس مستواه في البنية السردية للمقامة. إن تركيب الاستهلال، يكشف ما يلي:

1- إنّ الاستهلال السردية ما هو إلّا نوع من الإسناد المركب الذي انحدر من تقاليد الإسناد في فن الخبر، ولكنه غير في صورة ذلك الإسناد، سواء بالتخلص من بعض حلقاته، أم في استبدالها بضمائر، تحيل عليها، لتوافق البنية الفنية الجديدة.

2- إنّ الرواية الثانية المنسوبة لراوٍ معلوم، تندرج ضمن رواية أولى منسوبة لراوٍ مجهول.

3- إنّ الاستهلال السردية يتضمن تعدداً في مستويات الرواية.

إنّ صيغة الاستهلال السردية التقليدية في المقامة «حدثنا... قال». التي رسخ وجودها الهمداني، تكشف أنّ الراوي ينسب إليه حق رواية ما قال به راوٍ آخر، وفيها يغيب الراوي المجهول، يظهر ذلك الراوي بوصفه شاهداً على الوقائع والأحداث التي يروها، وإليه، تبعاً لذلك، تبنى مهمة تشكيل بنية الحكاية، بما فيها من حدث وشخصية وفضاء يحتويها.

إنّ صيغة الاستهلال، تفتح أفق توقيع لنمط من الوقائع التي تقرن بشخصية محددة الصفات، محددة الأفعال.

لقد كشف التحليل عن دور الراوي المجهول الذي يشرع بوابة الرواية أمام الراوي المعروف، فإلى ذلك الراوي يتجه اهتمام الفقرة اللاحقة.

## 2- الراوي المفارق لمروية وبناء العالم الفني :

لقد حظي رواة المقامة العربية، بأهمية (استثنائية)، جعلتهم أعلاماً في تاريخ الأدب

العربي، وانصب الاهتمام، بطبيعة الحال، على أولئك الرواة المعروفين، مثل عيسى بن هشام والحرث بن همام. واتجه إلى البحث في أمر المطابقة بينهم وبين مؤلفي المقامات حيناً، وفي كونهم نماذج تحيل على أفراد أو فئات في عصر من العصور حيناً آخر، ولم يتجه الاهتمام إلى أدوارهم في البنية السردية للمقامة، إنما نظر إليهم، كما نظر إلى أبطال المقامات مثل أبي الفتح الاسكندري وأبي زيد السروجي، بوصفهم نماذج حية، عاشت في أزمان معروفة.

إن تصوراً مثل هذا، يجب أن يقصيه التحليل الفني الذي يعنى بسردية المقامة، ويتجاوزه إلى اعتبار أولئك الرواة، وسائل فنية تنهض بمهمة نسج الحكاية، وتمدنا المقامات العربية نفسها، بشواهد كافية تؤكد أن الرواة، كانوا، من اصطناع نخيلة مؤلفي المقامات. وأهم وجدوا لأسباب تتعلق بفن المقامة.

يقول الحريري، في وصفه لعيسى بن هشام وأبي الفتح الاسكندري، إنهما «كلاهما مجهول لا يُعرف، ونكرة لا تُعرَف»<sup>(1)</sup>. ويؤكد، في هذا المجال، أن كل ما تضمنته مقاماته «فخاطري أبو عذره، ومقتضب حلوه ومره»<sup>(2)</sup>. يريد بذلك أنه من ابتداعه ومن نتاج خاطره، ويجاريه في هذا الموقف ابن الصيقل الجزري الذي يؤكد أنه خلق مقاماته ابتداءً، وأن ما ورد فيها، «فانا فتاح مدن جلّه وقلّه، وسفاح مزن وبله وظلّه»<sup>(3)</sup>، ولم يقتصر الأمر على الحريري وابن الصيقل الجزري، بل، جاوزهما إلى المحدثين، الذين يقرون أن رواة مقاماتهم وأبطالها، ينتمون إلى عمل المخيلة، وليس الواقع، شأن اليازجي، الذي يصف رواية مقاماته وبطلها، بأنها «كلاهما هي بن يي، مجهول النسبة والبلاده»<sup>(4)</sup>. فإذا كان الأمر كذلك، بدلالة الشواهد التي أوردناها، فإن البحث في أمر إحالة الرواة على أشخاص خارج البنية السردية للمقامة، لا جدوى منه، وما يلزم العناية به، هو البحث في أمر الراوي، بوصفه مكوناً سردياً من مكونات بنية المقامة.

يدشن لظهور الراوي المعروف، من خلال الفعل «قال» أو «حدث» أو «حكى» أو «أخبر»، وحالما يظهر ذلك الراوي، حتى يتكفل بمهمة ترتيب مكونات العالم الفني للمقامة. فيستعيد واقعة شهدها، ويركز اهتمامه حول شخصية مركزية، تكون محوراً للوقائع، تتسم بأنها شخصية تتجنب الكشف عن نفسها، ولا يفصح الراوي أمرها إلا بعد الانتهاء من المهمة التي تقوم بها وذلك في لحظة «التعرّف».

(1) مقامات الحريري 11.

(2) م. ن 13.

(3) المقامات الزينية 79.

(4) اليازجي، مجمع البحرين، بيروت 10.

هذا هو الإطار العام الذي يحكم دور الراوي، وضمنه ترتب وظائفه الأخرى في نسج بنية المقامة. بما يجعله المهيم الأول في كل ما تنطوي عليه البنية السردية لها.

إن كشف دور الراوي في بناء المقامة، يستدعي تتبعاً دقيقاً لمظاهر ذلك الدور، سواء أتعلق الأمر، بتحديد معالم الفضاء الذي يرسمه للأحداث، أم في متابعة أمر بطل المقامة، وليبيان ذلك الدور، انتخبنا مقامة قصيرة للهمداني، وهي المقامة «القرديّة»<sup>(1)</sup>، لتكون موضوعاً للتحليل، الذي نهدف منه، تسليط الضوء على دور الراوي في تشكيل العالم الفني للمقامة. وسنعمل على إبراز أجزاء متتالية من المقامة، والوقوف على كل جزء، بما يسهل الكشف عن دور الراوي عيسى بن هشام في بناء هذه المقامة، الأمر الذي يمكن تعميمه في مقامات أخرى.

«حدثنا عيسى بن هشام، قال: بينا أنا بمدينة السلام، قافلاً من البلد الحرام، أميس ميس الرحلة، على شاطئ الدجلة، أتأمل تلك الطرائف، وأتقصي تلك الزخارف».

لقد فصلنا القول في الاستهلال السردى، في الفقرة السابقة، ولا حاجة لإعادته ثانية هنا، فهو، كما يتضح، يبدش لظهور الراوي، الذي يستعمل ضمير المتكلم المسند إلى فعل ماضٍ، وهذه صيغة مهيمنة في المقامة العربية، ويتميز استخدام ضمير المتكلم، بأنه، يُسهّم في تجنب أي وصف مجرد للأشياء والموجودات التي ستظهر لاحقاً في المقامة، إنما يولي انطباعات الراوي، ورؤيته الذاتية، ومواقفه الشخصية، اهتماماً خاصاً، ومن خلال ذلك، تندفق الفعالية الإخبارية لتستعيد ما جرى في زمن مضى، فالراوي الذي هو أشبه برحلة جوال، لا تحده حدود مكانية، يثبت حالاً في المكان الذي ينتخه المؤلف للمقامة، وغالباً ما يظهر وقد قفل راجعاً من مكان، أو وصل توّأ إليه، أو هو في سفر وقد أنهكه التجوال فأَمَّ مكاناً ما طلباً للراحة، ويحدد مكانه بدقة، كما ويحدد سبب وجوده في هذا المكان، وشأن عيسى بن هشام في هذه المقامة، فإن الراوي يتحدّث مباشرة، مستعملاً جملاً قصيرة مكثفة، تهدف إلى كشف موقعه وحاله، فهو هنا، يتجول في بغداد، وقد عاد من رحلة حج إلى مكة، فيقوم بنزهة في المدينة، كأنه يراها أول مرة، متبخرّاً في مشيته، على ضفاف دجلة، شأن نبات البقل الذي يثبت على ضفاف الأنهار، ويزداد نمواً بسرعة، وهو في تأمل لكل جديد طريف في المدينة، ولَمَّا كان تأمل الراوي يمتلظ بالبحث عمّا يسليّه من غرائب الأمور، فإن هذه الفقرة، ترسم ملامح صورة لراوي يصف عياناً ما يرى، وتخلق في الوقت نفسه أفق توقع لحدث غريب، ما دام الراوي يبحث عن غرائب الأمور وطريفها، وعليه، فإن ما تخبر به الفقرة، ما هو إلا متواليّة مترابطة من الأخبار، ترسم صورة لشخص، عاد من رحلة، وأقام في المدينة، وخرج باحثاً عمّا يسليّه من الأحداث الغريبة.

(1) شرح مقامات الهمداني 111-112.

«إذ انتهيت إلى حلقة رجال مزدحمين يلوي الطرب أعناقهم، ويشئ الضحك أشداقهم، فساقني الحرص إلى ما ساقهم».

بعد أن يفرغ الراوية من رسم الجوّ العام الذي هو فيه، ويبيء الأذهان لحدث ما، يبدأ من هذه الفقرة بالانقصار على الواقعة التي أمامه، ولكنه ما زال غير معني بالتفاصيل الدقيقة، التي ستكون محط عنايته في فقرات لاحقة. ينتهي الأمر بالراوي إلى حلقة رجال مزدحمين يضحكون دون أن يعرف سبباً لذلك، مما يزيد فضوله لكشف سرّ تكالب حلقة الرجال هذه، وهنا، يزيد انفتاح أفق التوقع عند المتلقي، الذي سيكون شأنه الآن شأن الراوي، لا يدري بالضبط ما يحدث وسط تلك الحلقة من الرجال، والفضول غالباً ما يدفع الراوي في المقامة إلى كشف سرّ ما يرى، وقد لا تكون الحلقة حلقة متفرجين، فهي تتعدد حسب الموقف، «حتى وقتت بسماع صوت رجل دون مرأى وجهه لشدة المهجمة وفرط الزحمة».

إنّ الوصف الذاتي المترج بالهدف الإخباري عن الحال والمكان، يتجه إلى التخصيص، بعد أن فرغ من وصف مكان الحدث، وتندرج فيه سلسلة الوقائع حسب طبيعة وقوعها، فبسبب الزحام الذي يمنح الراوي من مشاهدة ما يحصل وسط حلقة الرجال، تقوم حاسة السمع بأداء وظيفة الاكتشاف قبل حصول المعاينة. ولكنه اكتشاف ناقص، فإتفاح العين بكشفه، أكثر مما تفعله الأذن، ولكن لا حيلة للراوي في هذه اللحظة سوى الاعتداد على إذنه، في كشف جلية الأمر، إلى أن يتم له ذلك بحاسة البصر، فإذا وقفنا على صورة الحشد المتحلّق حول شيء مجهول أمامه، نرى أنّ الراوي ما زال يعمّق الإحساس بوساطة الوصف، إلى أنّ ما يجعل الرجال على تلك الصورة من التدافع، إنّ هو إلّا أمر غريب، وعليه، فإنّ الفقرة تغني ما قبلها، وتنتفتح على ما بعدها «فإذا هو قرّاد يرقص قرده، ويضحك من عنده» وحالما يفلح في اختراق حلقة الرجال، يكتشف أنّ ثمة رجلاً يرقص قرداً، وأن ذلك هو السبب الذي دعا الرجال إلى التزاحم حوله، وقد يعنى الراوي بوصف هذه الحال، ولكنه هنا، لا يتوقف أمامها طويلاً، لأن هدفه ليس وصف هذه الواقعة بالذات، بل تأثيرها فيه.

«فرقصت رقص المرحّج، وسرت سير الأعرج، فوق رقاب الناس، يلفظني عاتق هذا لسرة ذلك، حتى افتترشت لحية رجلين، وقعدت بعد الأين، وقد أشرقتي الخجل بريقه، وأرهقني المكان بضيقه».

يلاحظ أنّ الراوي هنا، يعنى تماماً بالأثر الذي تركه فيه ترقيص القرّاد لقرده، إلى درجة يرقص فيها دون أن يسيطر على مشاعره، فكأنه راقص محترف هزّه الطرب، فجعله يتمايل ميمناً ويساراً لشدة تأثير الموقف مما جعله، يقفز فوق رقاب الناس دون وعي، فيتقاذفه هذا صوب ذاك في حركة غير واعية، فيجد نفسه أمام القرّاد وقد افتترش لحية رجلين جلسا خلفه، وقد هزّه

التعب والأعياء، بل وداهمه الخجل حتى وكأنه غصّ فيه، لأنه أتى عملاً غير واع في طرده وانفعاله، وفي تدافعه فوق رقاب الناس، وهو مما لا يليق به، هذا فضلاً عن ضيق المكان الذي كان يزيده إرهاباً وتعباً.

إنّ الصورة الساخرة التي يرسمها الراوي لنفسه، ولحلقة الرجال، تبلغ ذروتها في هذه الفقرة. وهي تدلل على مدى تكالب أشخاص هذا المشهد على القَرَاد، الذي لم يعن الراوي به مباشرة حتى هذه اللحظة، لكنه رسم بدقة واقتدار المشهد المحيط به، مما سيفتح أفق توقع آخر، يتشكل فيه سؤال مهم، وهو من يكون هذا القَرَاد الماهر، الذي يستأثر بعناية الناس على النحو الذي وصفه الراوي؟.

«فلما فرغ القَرَاد من شغله، وانتفض المجلس عن أهله، قمت وقد كسائي الدهش حلته، ووقفت لأرى صورته، فإذا هو والله أبو الفتح الاسكندري».

إنّ ذروة المقامة، تكون لحظة التعرف إلى البطل المتخفي، فالراوي يتعلّق بالقَرَاد الذي يكون محطاً لإعجاب المتفرجين، وما أن يدفعه فضوله لأن يتعرف إليه، حتى يكشف أنه معروف لديه، وقد احتال على المتفرجين، وظهر بهيئة قَرَاد، بعد أن كان من قبل يتقمص في كل موقف صورة مختلفة - ولن نتوقف كثيراً إزاء لحظة التعرف في المقامة، لأننا سنعود إليها في أثناء الحديث عن بنية الحكاية - ووسط ذهول الراوي، وخيبة أمه، وتعجبه من تحولات أبي الفتح الاسكندري المستمرة، يسأله لائئاً:

«فقلت ما هذه الدناءة وبحك، فأشدد يقول:

الذنب للأيام لا لي فاعتب على صرف الليالي  
بالحمق أدركت المنى ورفلت في حلال الجمال»

إنّ خيبة أمل الراوي بصديقه أبي الفتح، الذي كان قد تعرف إليه في مواقف سابقة، تدفعه لأن يصف فعلته بالدناءة، وأنه يستحقّ شديد اللوم عليها، إذ لا يليق بفصيح ومثقف مثله أن يلجأ إلى هذه المهنة ليعتاش منها، فيكون جواب أبي الفتح أكثر قسوة من سؤال عيسى بن هشام، فهو في عصر لا يقدر شأن أفراد، فلجأ إلى مهنة القردة، واللوم يجب أن لا يوجه إليه بل إلى المصائب والمحن، وشدائد الدهر التي ساقته إلى ذلك، ليس هذا حسب، بل، إنه لولا تحامق أبي الفتح، وادعائه الجهل، ما كان له أن يصل إلى ما هو عليه، فالزمن الذي يعيش فيه لا يسعف إلا الحمقى.

لو ألقينا مجدداً نظرة كلية إلى الدور الذي تكفل به عيسى بن هشام في المقامة «القردية» وهو دور يكاد يتطابق مع أدواره في معظم المقامات المهمذانية، بل وأدوار الرواة عامة في



المقامات التي التزمت البنية التقليدية للمقامة، نجد، أنه، هو دون غيره، من تكفل بإنجاز جميع المهام الأساسية بما فيها رسم الفضاء، والمشهد، والواقعة، والبطل، وفي تشكيل نسق الحكاية المتتابع، فضلاً عن مهمة الوصف والتعليق التي زينت المقامة عبر منظور ذاتي يقدم الأحداث بعين الراوي، لا سمعه، فهو لم يسمع الواقعة لبروبها، إنما شاهدها وتكفل بمهمة تقديمها، كما ترسبت في ذاكرته ووعيه، وقد جعل الوقائع تتنامى شيئاً فشيئاً أمامه، لأنه جزء منها، وحشدها لتلقي الضوء على بطل المقامة، ولتكون لحظة التعرف ذروة تكشف عن موقفين متباينين بين الراوي والبطل.

ليس هذا حسب، بل إن أسلوب السرد الذاتي، وهو الأسلوب المهيمن في المقامة العربية، ساعد كثيراً الراوي على إضفاء أهمية على انطباعاته ورؤيته الخاصة للعالم الفني للمقامة، لأنه جزء منه، وبذلك فالراوي في المقامة عنصر مهم، بل من أهم العناصر المكونة للبنية السردية فيها، فبدونه، تتخلخل بنية المقامة، وتتحول إلى وصف مجرد، أو إلى مجموعة أخبار، غير محكمة ببنية تنتظمها، وتوجه عمل المكونات السردية فيها.

### 3 - البطل راوياً:

لقد بحثنا في الفقرتين السابقتين مستويين من مستويات السرد في المقامة، أولهما عزوانه إلى راوٍ مجهول، وثانيهما إلى راوٍ معلوم، وانتقل الآن إلى مستوى ثالث من مستويات السرد فيها، وفيه لا يقتصر الأمر على راوٍ ينقل إلى مروى له، بواسطة راوٍ آخر، بل إن البطل المركزي في المقامة هو الذي ينهض بمهمة الرواية إلى جانب بطولته للحكاية. وغني عن التأكيد القول هنا، إن رواية البطل لواقعة هو عنصر مشارك في حدوثها، تمر عبر وسيطين هما الراوي المعلوم أولاً، ثم المجهول ثانياً، وبعبارة أخرى فإن البطل يروي ما جرى له، إلى راوٍ معلوم، يقوم برواية ذلك إلى راوٍ مجهول، فيقوم الأخير بروايتها إلى مروى له مجهول، وعبر سلسلة الرواية المتصلة، يصل صوت البطل إلى المتلقي.

صحيح أن الراوي المعلوم، هو الراوي المهيمن في المقامة العربية، ولكننا لانعدم، إذا تصفحنا نصوص المقامات، وجود أمثلة كثيرة على البطل - الراوي، وعلينا الآن أن نورد معطيات تدلل على ذلك، على أن نقف بعد ذلك على دور البطل - الراوي في صياغة عالم المقامة.

ورد في المقامة الجرجانية للهمذاني ما يلي:

«حدثنا عيسى بن هشام قال:

بينما نحن بجرجان، في مجمع لنا نتحدث وما فينا إلا منا، إذ وقف علينا رجل ليس

بالطويل المتمدد، ولا القصير المتردد، كث العثون، يتلوه صغار في أطمار، فافتتح الكلام بالسلام، وتحية الإسلام، فولانا جميلاً، وأوليناه جزياً، فقال:

يا قوم إني امرؤ من أهل الاسكندرية، من الثغور الأموية نمّتي سليم ورحبت بي عبس، جبت الأفاق، وتقصّيت العراق، وجلت البدو والحضر وداري ربيعة ومضر. . . الخ<sup>(1)</sup>.

وفي المقامة «المضيرة» يرد مثال مشابه أيضاً، إذ يبدأ أبو الفتح الاسكندري، واصفاً دعوة أحد التجار له لتناول «المضيرة» وذلك بعد أن ينحسر دور عيسى بن هشام، إذ يقول: «دعاني بعض التجار إلى مضيرة وأنا ببغداد، ولزمني ملازمة الغريم، والكلب لأصحاب الرقيم، إلى أن أجبته إليها، وقمنا فجعل طول الطريق يثني على زوجته. . . الخ<sup>(2)</sup>».

وفي المقامات الزينية لابن الصيقل الجزري، يرد المثال الآتي في المقامة «الحلبيّة»، إذ يتولى الرواية أبو علي المصري، بعد أن ينسحب القاسم بن جريال الدمشقي، فيقول: «إني من أشمخ شنخوب (= من أعلى نسب) وأبذخ شؤبوب، وأفصح فصيلة، وأفصح وصيلة (= أرض معمورة) لم أزل رفيع العماد، وسيع الغماد (= كثير السياحة)، مبيض المخارق، مقرظ المرافق، أعطي الطارق، وأمتطي النمارق، وأنادم الشارق، وأصادم البيارق. . . الخ<sup>(3)</sup>».

كما وترد أمثلة على ذلك في مقامات الحريري، منها، ما ورد في المقامة الكوفية، إذ يداهم أبو زيد السروجي، مجلساً في الكوفة، في الهزيع الأخير من الليل، وفيه الحارث بن همام، ويخنلق حكاية، يرويها بنفسه، لخداعهم بأنه فقير ولا يملك شيئاً، ولا يستطيع أن يسترد ولده لفقره، فيقول مخاطباً مجلس السمر «لقد بلوت من العجائب ما لم يره الراؤون، ولا رواه الراوون، وإن من أعجبها ما عاينته الليلة قبيل انتيابكم، ومصيري إلى بنايكم، فاستخبرناه عن طرفة مرأه، في مسرح مسراه، فقال: إن مرامي الغربية، لفظنتني إلى هذه التربة، وأنا ذو مجاعة وبوسى، وجراب كفؤاد أم موسى، فنهلمت حين سجا الدجي، على ما مربي من الوجى، لارتاد مضيئاً، أو اقتاد رغيئاً، فساقني حادي السغب (= الجوع)، والقضاء المكنى أبا العجب، إلى أن وقفت على باب دار. . . الخ<sup>(4)</sup>».

(1) شرح مقامات الهمداني ص 56.

(2) شرح مقامات الهمداني 124-123.

(3) المقامات الزينية 325-326.

(4) مقامات الحريري 45.

ويرد مثال مشابه أيضاً في المقامة «الفرضية»<sup>(1)</sup> إذ يتكفل أبو زيد السروجي برواية ما جرى له، ولكن أوضح الأمثلة، على قيام البطل بدور الراوي يرد في المقامة «الحرامية» التي هي أول مقامة أنشأها الحريري، إذ يلتقط البطل الرواية عن الحارث بن همام، دونما فاصلة تتيح للأول، تحديد معالم بنية المقامة:

«روى الحارث بن همام عن أبي زيد السروجي، قال: ما زلت منذ رحلت عنسي (= ناقتي القوية) وارتحلت عن عرسي وغرسي، أحنُّ إلى عيان البصرة، حنين المظلوم إلى النصرة...»<sup>(2)</sup>.

تدل المعطيات التي أوردنا بعضها على الدور الذي ينهض به البطل، بوصفه راوياً، إلى جانب بطولته للحكاية. فهو يقوم بعد أن يُمنح من الراوي المعلوم، حق الرواية، بوصف حاله، والظروف التي أجبرته على الوصول إلى هذه المدينة أو تلك، أو ممارسة هذه الحرفة أو تلك، وعلينا قبل تأشير المتغيرات التي تطرأ على بنية المقامة، عندما يكون بطلها راوياً لأحداثها، أن نقول، إن البطل في هذا الدور، غالباً ما يختلق حكاية غريبة، أو يورد طرفة عجيبة، أو يتعمق في وصف حالة الضيق والفقر التي هو عليها، ليخلق تعاطفاً وجدانياً مع المروي له، هادفاً من وراء ذلك إلى زيادة الكسب، وثمن المكافأة بواسطة تضليل المروي له، بأن ما يقوله حقيقة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فثمة تعاقب ضمني بين الراوي والمروي له، وهو ما يشكل ظاهرة مهيمنة في السرد العربي عامة، والمقامة خاصة، يتمثل في أن ثمن المكافأة يتحدد في ضوء غرابة الحكاية، وقد تكون المكافأة مادية أو تكون معنوية كإبداء الإعجاب بالحكاية، والاطراء على الراوي، إذ كلما أغرب الراوي بحكايته، أفضى ذلك إلى زيادة مكافأته، سواء أكان المتلقي فرداً أم جماعة، وفي المقامة، غالباً ما يكون المروي له جماعة من العامة في الطرق أو الساحات أو المساجد أو القوافل، أو خاصة في سمر ليلي. وقد يكون المروي له فرداً كان يكون قاضياً أو والياً يقوم بطل المقامة بتضليله بأنه مغبون جراء أمر ما، فيزيد الأول عطيته له، بسبب وصفه الطريف والغريب لضيق حاله.

إن الاختلاق بغية تضليل المروي له، وهو ما يفضي إلى الفوز بعتبة جيدة، أحد أبرز الأسباب التي تدفع البطل ليكون راوياً، وسواء أكانت المكافأة مرضية له أم لا، - وغالباً ما تكون كذلك - فإن البطل الراوي يقتخر بأنه أفلح في تضليل محدثيه، ولكن ليس بإرادته، إنما بإرادة عليا، قضت أن يكون المضلل هو الفائز بالمكافأة، وليس ذلك الذي يتبع الطريق

(1) مقامات الحريري 126.

(2) م. ن ص 424.

السوي في الحصول عليها، ويتبع كل ذلك اتفاق ضمني آخر، بين البطل الراوي، والراوي المعلوم، وهو أن الأخير حينما يكتشف حيلة الأول، لا يفضح سلوكه، وإن كان يلومه، فثمة عرف يحكم الطرفين: الخداع والتكتم عليه، إلى درجة يمكن القول معها، إن الراوي لوقام مرة بفضح أمر البطل المحتال، لانتفت الحاجة إلى الحكاية، لأن البطل الراوي في كل مرة، يقوم بالدور نفسه، وبهيات مختلفة، وعلينا أن نتخيل خيبة أمل البطل، إذا عرف أن المتلقين يعلمون مسبقاً أنه يحتال عليهم، فضلاً عن رد فعلهم غير المحسوب فإن أبسط ما يمكن تصوره، هو انفضاض دائرة المتلقين، وبقاء البطل الراوي وحيداً، فإذا كان التصور يقود إلى هذه النتيجة المتوقعة، فلمن سيروي البطل، هل سيروي حكاية مختلفة لنفسه؟، إن ذلك في المقامة أمر مستحيل فلا بد من وجود مجلس (= مقام)، وكل هذا يفسر لنا الأسباب الكامنة وراء احترام التعاقد الضمني بين البطل والراوي في عدم البوح بالحقيقة، إن أقل ما تقضي إليه عملية البوح، هو تفويض علاقة التراسل بين المتلقين والبطل، ومعروف أنه على تلك العلاقة نشأت البنية السردية للمقامة، وبانتفاضها، ينتقض الراوي والمروي له، وتحلّ بنية المقامة بوصفها نوعاً مميزاً.

إنّ بنية المقامة، عندما يكون البطل راوياً، تختلف عنها عندما يكون بطلاً فقط، ولا يقتصر الاختلاف على ضمور دور الراوي المعروف، وغيابه عن الجزء الأعظم من المقامة، بل يشمل الاختلاف، رؤية الراوي لمكونات الحدث، كما يشمل بنية الحكاية.

إنّ استبدال الراوي الذي كان يتكفل بتقديم بطل تُشكّل مجموع أفعاله حكاية براو هو ذلك البطل الذي يقوم بتشكيل الحكاية، أمر غاية في الأهمية في موضوع البنية السردية للمقامة، إذ إنّ الأحداث تعرض بوساطة وعي مغاير، ورؤية لا تفصلها عن تلك الأحداث أية مسافة، وهكذا فأول تغيير يحصل، أنّ الراوي في هذه الحالة يتماهى بأفعاله، فيتحول السرد من مستوى إلى آخر، ويستبدل الراوي المفارق لمرويّه، براو متماهٍ بمرويّه، وهذا التحول، يؤثّر في تشكيل الأحداث، مما يؤدي إلى تغيير بنية الحكاية.

معلوم في البنية التقليدية للمقامة، وعندما يكون الراوي مفارقاً لمرويّه، أن الأحداث تندرج في سلسلة تعاقب، ابتداء من ظهور الراوي في مكان ما، وصولاً إلى لحظة التعرّف إلى البطل، الذي يعتمد في كل مرة إلى تمويه نفسه، كيلا يكتشف، فالتعرّف هو الذروة التي تبلغها الحكاية في المقامة وما يعقبها من لوم، فهو مرحلة أفول أهمية الحكاية في البنية السردية، مما يستدعي إنهاء المقامة، أما في المقامة التي يكون بطلها راوياً لأحداثها فإنّ التعرّف يحصل قبل الحكاية، وعليه تنعدم ضرورة وجود حكاية، تكون ذروتها لحظة تعرّف بين الراوي والبطل. ويصار، حالما يلتقي الراوي بالبطل إلى اتفاق، وهو أن يروي البطل

حكاية ما، أو يقوم بعلم من الراوي بتقمص دور ما، يدر عليه مالأ، ولا يكون فعله هذا، منظوياً على بنية حكاية. فقد يكون وعظماً أو وصية أو اظهاراً لبراعة لغوية أو حلاً للغز أو ما شابه ذلك، وهكذا، فالتعرّف لا يكون ذورة للحكاية، كما يمنحها بنية فنية، إنما يكون في بدء المقامة، وغالباً ما يكون على سبيل الصدفة، وبمبادرة من الراوي البطل إلى مجلس أو منزل فيه الراوي المعلوم.

إنّ مستويات السرد الثلاثة التي وصفناها، تمثل ثلاثة قشور تحيط بالحكاية، ويلزم الأمر هنا، أن يتجه البحث في الفقرة الآتية إلى ذلك اللب الكامن بين القشور، إلى الحكاية.

#### 4 - التعرّف وبنية الحكاية :

إنّ الإشارة المبكرة التي أوردتها الحصري، للتفريق بين الرواية والحكاية في مقامات الهمذاني، عندما ميّز بين عيسى بن هشام وأبي الفتح الاسكندري وأكد أن الهمذاني وأفرد أحدهما بالحكاية، وخصّ أحدهما بالرواية<sup>(1)</sup>، هي إشارة مهمة في سياق تشكّل المقامة، لأنها لم تقف عند رصد تلك الظاهرة في مقامات الهمذاني بل، هي تصلح لوصف المقامات اللاحقة. فضلاً - وهذا ما يهمننا الآن - عن إنها قرنت الحكاية بالشخصية المركزية في المقامة.

إنّ كون الحكاية تتشكل مما يقوم به البطل من أفعال، أمر مهم في إضفاء ميزة خاصة على هذه الحكاية، فعلاً، إنّ ما أعطى الحكاية في المقامة طابعها المميّز، إنها في الغالب فعل يصنعه شخص ما، وظل هذا الشخص هو المحور الذي يستقطب الأحداث حوله، وتنجذب إليه الوقائع على الرغم من وجود شخصيات هامشية يوردها الراوي لملء الفضاء الذي تقع فيه الحكاية، مثل زيد ابن البطل في مقامات الحريري والغلام، الذي يلازم الرواية في مقامات البازجي، وغيرهما ممن يستوجب أمر المسامرة حضوره وغالباً ما يكون الراوي الذي يقوم فيما بعد برواية الواقعة التي جمعتها بالبطل، هو أكثر الشخصيات انجذاباً تجاه شخصية البطل.

إلى إشارة الحصري التي فرّقت بين ركنين من أركان المكونات السردية في فن المقامة العربية، علينا أن نضيف إشارة أخرى أكثر أهمية فيما نبحت الآن فيه وأعني بنية الحكاية، والإشارة لابن الأثير (637 = 1239) ويقول فيها:

---

(1) زهر الآداب 1: 274.

وإن المقامات مدارها جميعاً على حكاية تخرج إلى مخلص»<sup>(1)</sup>.

صحيح أن ابن الأثير، في سياق بحثه، كان يهدف إلى ذم فن المقامة، والحط من شأنه، مقارنة بالمكاتبات التي يرى «إنها بحر لا ساحل له، لأن المعاني تتجدد فيها، بتجدد الأيام، وهي متجددة على عدد الأنفس»<sup>(2)</sup>، ولكن ذمها لها، إنما يكشف عن حقيقتين أساسيتين، يعزى إلى ابن الأثير فضل إثارتهما وهما: إن بنية المقامة ثابتة ومحددة، وإن تلك البنية لا تسمح للمؤلف بأن يغيّر في علاقات العناصر الفنية فهو أسير قيد البنية، على نقيض كاتب الرسائل الذي يمزج عباب بحر لا ساحل له.

وإذا دلّ هذا على شيء، فإنما يدل على هيمنة بنية هذا النوع القصصي كما قررها الرواد الأول، فقد ظلت تلك البنية تمارس حضورها، سواء في تحولها إلى منهج محاط بقيود النوع القصصي، أم توجيه العناصر الفنيّة المكونة لها، على نحو لا يخرق نظام البنية الثابتة، التي يجب أن نصلح عليها الآن بـ «البنية الأصل». وإذا كنا قد وقفنا من قبل على الرواية بوصفها أحد المكونين السرديين الأساسيين في المقامة، فإننا سنبحث هنا في الحكاية بوصفها المكون الأساسي الآخر في المقامة.

إن «المخلص» الذي عناه ابن الأثير في وصفه للحكاية، هو «التعرّف» الحاصل بين الراوية والبطل، حيث تقفل المقامة، إلا من شكوى يطلقها البطل شعراً في الغالب، ويعقبها فراقهما، وينبغي هنا أن نورد نماذج من صيغ التعرّف بين الراوي والبطل، قبل أن نتصرف إلى أهمية التعرّف في بنية الحكاية.

يرد التعرّف في مقامات الهمداني، بالصور الآتية، عندما يواجه الراوي، البطل: «فإذا والله شيخنا أبو الفتح الاسكندري» أو «فإذا هو والله أبو الفتح» ونادراً ما يكون التعرّف بالصورة الآتية «ألسنت بأبي الفتح الاسكندري؟» أو «إن هذا الرجل هو الاسكندري» وقد يعرف الاسكندري نفسه شعراً للراوية في مقامات أخرى مثل «الجاحظية» و «المجاعة» و «المارسانية» و «العلمية» وغيرها. ويرد في مقامات الحريري بصور، منها «فإذا هو شيخنا السروجي» أو «هذا أبو زيد» أو «فإذا هو أبو زيد» ولا تخلو المقامات من أن يكون التعرّف فيها شعراً على لسان أبي زيد السروجي، كما ورد مثلاً في المقامات «المعريّة» و «البغدادية» و «المكية». وأخيراً نمثل على صيغ التعرّف بما ورد في المقامات الزينية مثل «الفتيت أبا نصر المصري» و «فإذا به شيخنا المصري» و «فعلمت أنه أبو نصر» أو «أيقنت

(1) المثل السائر 8:1.

(2) المثل السائر 9:8-1.

أنه المصري». إن الإيحاء بالدهشة والتعجب، وعدم التوقع، أمر شبه ملازم لصيغ التعبير عن موقف التعرف، وهو ما يدل على أن البطل يفاجأ باللقاء غير المتوقع بينه وبين البطل الذي كان قد تعرّف إليه في موقف سابق بهيئات مختلفة، وعلى نقيض المفاجأة التي تدهش الراوي، فإن المتلقي يعرف أن الموقف سيفضي إلى التعرف حتماً، وهكذا، في الوقت الذي تتوفر لدى المتلقي إمكانية حدس تطور الأحداث قبل حصولها في المقامة، بما فيها موقف التعرف، فإن الراوي، يبدو في كل مقامة، جاهلاً بما ينتظره، وهو ما يفضي في بعض الأحيان، لأن يكون ضحية خداع ونضليل البطل، فيعمل موقف التعرف على إزالة الضرر الذي لحق بالراوي، عندما يعرف أن المخادع، صاحب قديم معروف جيداً لديه.

إن كون البطل هو البؤرة التي تنجذب وقائع الحكاية إليها، يرتب أمراً مهماً هو أن أي واقعة، طال وقوف الراوي عليها أم قصر، تتحدد قيمتها في البنية السردية في ضوء علاقتها بالبطل، ومقدار كونه مساهماً في صنعها، ويتضح ذلك، بصورة عامة، في أن القسم المخصص لوصف رحلات الراوي، أو وجوده في أماكن متعددة، وهي تتعدد بحسب تعدد المقامات، يفقد كثيراً العناصر التي تسهم في تشكيل حكاية ما، فهذا القسم، غالباً ما يعنى بكشف انطباعات الراوي، والفضاء العام بدلالته المكانية والزمانية للحدث، ولكن أهميته في البنية السردية تعود إلى أنه يمثل معطًى محدداً، ويؤطر ما سيحدث، ويعد انتهاء هذا القسم، تبدأ عناصر السرد بالتصافر لتشكيل المتن الحكائي.

إن لحظة ظهور البطل في المشهد، ترتب على الراوي أن يجعل كل الأفعال ترتبط به، سواء تلك التي يقوم البطل بها، أم تلك التي يتضمنها المشهد العام. بما فيها الشخصيات التي يروي البطل لها ما جرى له من غرائب الأمور. وفي جميع الأحوال، فإن ما يحدد بنية الحكاية، ويتحكم في إضفاء ميزة خاصة عليها، هو العلاقة بين الراوي والبطل، بوصف الأخير صاحب فعل، والأول راوية له.

وعلىنا أن لا ننظر أن الراوي حرّ في طرائق تشكيل حكاية البطل، بل هو محدد بقضية طالما ألمح إليها البحث من قبل وهي موقف «التعرف»، فثمة بنية خاصة، لنوعين أساسيين في طرائق تكوين الحكاية، يحددها موقف التعرف في تسلسل الأحداث، والموقفان اللذان يمثلان التعرف يكون أحدهما في خاتمة الحكاية وهو الغالب، ويكون الآخر سابقاً لظهور الحكاية في سياق البنية السردية، وقد استأثر بمكانة دون مكانة الموقف الأول.

إذا وضعنا جانباً مقامات لا تنطوي على موقف تعرف عند الهمذاني، كون الراوي هو البطل فيها<sup>(1)</sup>، فإن المقامات الباقية، وعددها سبع وثلاثون، تنوزع إلى قسمين، سبع يحصل

(1) وهي: الغيلانية، الأهوازية، البغدادية، المغزلية، النهديّة، الناجمية، الخلفية، الصيمرية، الشعرية، =

التعرف فيها أولاً<sup>١١</sup>، أي قبل تشكيل الحكاية التي يقوم بها أبو الفتح الاسكندري . وثلاثون يحصل التعرف فيها، بعد أن يفرغ البطل من حكايته . وفي مقامات الحريري ، يظهر موقف التعرف في المقامات جميعها، وهي بدورها تنقسم إلى قسمين ، أولهما وعدده ست عشرة . يحصل التعرف فيها أولاً<sup>١٢</sup>، والآخر وعدده أربع وثلاثون ، يؤجل موقف التعرف فيها إلى ما بعد الحكاية التي يفرغ منها أبو زيد السروجي .

وفي المقامات الزينية ، نجد أن المقامة الأولى فقط وهي «البغدادية» لا يرد فيها ذكر لموقف التعرف ، أما المقامات التسع والأربعون فتتوزع إلى عشرين يحصل التعرف فيها أولاً<sup>١٣</sup>، وتسع وعشرين يقع التعرف فيها بعد أن ينتهي أبو علي المصري من حكايته .

ولبيان أهمية موقف التعرف في بنية الحكاية ، ينبغي علينا أن ندخل المعطيات المذكورة في جدول إحصائي ، لتتكشف لنا أولاً مدى أهمية هذه الظاهرة الفنيّة ، في المقامات عامة ، ومدى استنثار التعرف ببناء الرواة ، والموقع الذي يكون فيه التعرف ضمن البنية السردية للمقامة ، وأخيراً نسبة كل حالة إلى عدد المقامات التي احتوت على هذا الموقف .

جدول يبيّن نسب تواتر التعرف في المقامة العربية

المقامات	عدها	مقامات فيها تعرف	مقامات لا تعرف فيها	التعرف قبل	نسبة التعرف بعد	نسبة
الهمدانية	51	37	14	7	30	81%
الحريرية	50	50	X	16	34	68%
الزينية	50	49	1	20	29	59%
المجموع	151	136	15	43	93	68%

= الصفرة ، التميعة ، البشيرة الرصافية ، الخرية .

- (1) وهي : البصرية ، الموصلية ، المضيرية ، الشرازية ، الأرمية ، الوصية ، الدينارية .
- (2) وهي : الحلوانية ، الكوفية ، الاسكندرية ، القرضية ، السنجارية ، النصيبية ، الرقطاء ، الوبرية ، الطيبية ، المروية ، العمانية ، التبريزية ، البكرية ، الحرامية ، الساسانية ، البصرية .
- (3) وهي : السنجارية ، العمادة الأبلية ، الشانخية ، الرسعنية ، النسابورية ، الزوندية ، الماردية ، المصرية ، الدجيلية ، الشرازية الجميلة ، الأدمية ، البصرية ، الحصبة ، الحموية ، الحنفية الكيشية ، الدمشقية ، الحصكفية الرقطاء ، الجمالية الجوبية ، الجزيرية ، اليمنية .



يغذي هذا الجدول الإحصائي التحليل بالحقائق الآتية:

- 1 - إنَّ الاستغناء عن موقف التعرّف ظهر بصورة محدودة في مقامات الهمداني .
  - 2 - إنَّ موقف التعرّف أصبح ركناً أساسياً في البنية السردية للمقامة العربية بعد الهمداني، مما يدل على رسوخ البنية الأصل .
  - 3 - إنَّ نسبة موقف التعرّف قبل ظهور الحكاية المنسوبة إلى البطل بدأت تزداد، ازدياداً ظاهراً على النحو الآتي 19%، 32%، 41% عند كل من الهمداني والحريري وابن الصيقل الجزري على التوالي .
  - 4 - إنَّ نسبة موقف التعرّف بعد ظهور الحكاية المنسوبة إلى البطل، بدأت تقل بصورة جليّة وعلى النحو الآتي 81%، 68%، 59% عند كل من الهمداني والحريري وابن الصيقل الجزري .
  - 5 - وعلى الرغم من الحقائق التي وردت في (3) و (4)، فإن موقف التعرّف بعد، كما يتجلى في المعطيات السابقة، ظل يستأثر بمكانة الهيمنة وهي 68% مقابل 32% .
  - 6 - إنَّ التعرف سواء أقدّم أم تأخر، هو مظهر أساسي وثابت من مظاهر البنية السردية، وقد تضمّنته 136 مقامةً من 151 أخضعت للتحليل هنا، مما يدل على أنّ نسبة تواتر التعرف هي 90% في المقامات موضوع التحليل، وهي المقامات التي أسهمت، بشكل أساسي في صياغة المقامة العربية .
- أما وقد وقفنا على موقف التعرّف، بوصفه أحد أبرز مظاهر البنية السردية في المقامة العربية، فيلزم الآن، أن نستطلع أثر هذا المظهر في بنية الحكاية، مبتدئين بتجليات موقف التعرّف بعد أن تنتهي حكاية البطل، لنكشف سمات الحكاية في هذه الحالة .
- ينفتح العالم الفني في المقامة، إثر انسحاب الراوي المجهول، وأول العناصر بارزة الأهمية التي يكشف عنها ذلك العالم، هو الراوي المعلوم، الذي يبدأ بزرع مكونات الحكاية في العالم الفني، وعلينا أن نحدد المقصود هنا بـ «العالم الفني»، إنه، الفضاء الذي تجري فيه الأحداث التي هي أفعال تُسند إلى شخصية مركزية، فضلاً عن الأفعال المكتملة التي تعزى إلى أشخاص لهم مركز ثانوي في ذلك الفضاء ومن سمات الفضاء في المقامة، أنه يحيل على مكان وزمان محددين، وإن كانا ليس واقعيين، على الرغم من الأدلة التي يضعها الراوي لكون المكان واقعياً . إنَّ البحث في أمر المطابقة بين المكان الفني المشار إليه في المقامة، لا يفضي إلى نتيجة تسهم في إغناء البحث في فن المقامة، لأن الأمكنة فيها، ما هي في حقيقة الأمر، إلّا جزء من مستلزمات الفضاء الذي بدونه، لا يمكن أن تنظم الحكاية ضمن إطار محدد، كي نتاح للراوي مهمة القيام بتقديم الحكاية، وما يقال عن المكان، يقال عن الزمان أيضاً، وعليه فإن هذين العنصرين اللذين يتضافرهما يتشكل











## (1)

يمثل القرآن المركز الفاعل في الثقافة العربية - الإسلامية، ذلك إنه مصدر الرؤية الدينية للوجود، ومنبع الأحكام، والخطاب المتعالى بنسيجه الدلالي وتركيبه اللغوي، ولبه الحديث النبوي، الذي يكتسب وجوده وأهميته، كونه مفصلاً لذلك المجمل، فالعلاقة بينهما، علاقة حاشية بمتن، وكلاهما يصدر عن رؤية واحدة، ويهدفان إلى تأسيس نظام فكري واحد. وكما انطوى القرآن على رؤية ثابتة للوجود، استكشفت ما مضى وما سيأتي، كان الحديث، بوصفه حاشية على متن، ينطوي على الرؤية ذاتها، وأدى ذلك إلى أن (مركزية الوحي) ممثلة بالقرآن والحديث، قد استندت إلى قوة خاصة بها: هي التصور الديني للوجود، وحلّت مكان التثت الذي كان يضرب جذوره في كل مكان، وأقصت معطيات الضياع السابقة، وأسست مركزيتها الدينية التي صار العالم، منذ الأزل وإلى الأبد، بالنسبة لها، كتاباً مفتوحاً، لا ينطوي على شيء مجهول، وتطلب ذلك، أن تعيد إنتاج معطيات الماضي حسب رؤيتها، وأن تضع ضوابط محددة لما سيظهر لاحقاً، ومن بين ما عملت على صياغته، صياغةً جديدةً، الموروث الثقافي الذي يكوّن نسيج الذاكرة العربية، ومنها إن القرآن قد صحح التصور المتوارث عن الماضي، وأورد أخبار الأمم السابقة، بما يجعلها عاملاً مساعداً في ترسيخ تصوّره للعالم، ومن ثم أرسى قواعد أخلاقية، تعمل على ضبط ما سيكون موجوداً، سواء في الأحكام، أم في مكونات البنية الثقافية للمجتمع، وأصبح كل شيء، محكوماً بتلك المركزية، ويعيش لا بسبب من خصائصه، بل من كونه يتنفس ضمن إطارها.

كان القرآن، قد أوجد تراتباً في درجات اللفظ والمعنى، ولمّا كان لفظه ومعناه متعاليين، كونهما يصدران عن ذات إلهية، ويوحيان وحياً، أصبح خطاباً من الدرجة الأولى، دلالة ونظماً، وذلك لأنّ العلم الإلهي، هو العلم الأول، ولمّا كان الحديث، حاشية على ذلك الخطاب، فقد عُدّ خطاباً من الدرجة الثانية، لأن معناه يصدر عن مصدر الخطاب

الأول، وإن كان لفظه نسياً، وهكذا، فهو يتصل به، اتصالاً وثيقاً، وإن كان دونه في المنزلة. وافضى هذا إلى إقصاء خطابات البنية الثقافية، القائمة آنذاك، من شعر ونثر، وتقويض مصادرهما الإلهامية، وأعيد توظيفها لخدمة المركزية الدينية، وأصبحت، منطقياً، خطابات من الدرجة الثالثة في سلم الأهمية، أما إذا أرادت تلك الخطابات ذات المصدر البشري، أن تؤسس كيانها الذاتي، بمعزل عن مركزية الوحي، فلا يمكن تصور أي مكان لها في نظام تلك المركزية، وعليه، فلا مكان أبداً، للخطاب السردى الذي كان يُعنى بالمغيب من الوعي الاجتماعي، وأعني به القصص الشعبي والخرافي، ذلك لأنه يتشكل، بصورة عامة، في منأى عن هيمنة تلك المركزية، ويعنى بأحلام العامة، الذين هم، حسب التصور الفقهى، مجاميع من الغوغاء والرعاع والبُله ما يدل على هذا، أن الشعر والنثر، الذي اقترن بالخاصة، كان يكتسب أهميته لا من خصائصه الأدبية، بل بما يقدم من خدمة للمركزية الدينية، ليس ذلك حسب، بل إن علوم اللسان والتاريخ، لا قيمة لها، إن لم توظف في ذلك، سواء باستعمالها وسائل في الوصف، أم أدوات للتحليل والتفسير، ويعود هذا إلى أن العلوم والآداب جميعها، لا قيمة لها، إن لم تندرج في خدمة العلم الإلهي.

ورد عن الرسول قوله «العلم ثلاثة، فما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة، وسنة قائمة، وفريضة عادلة»<sup>(1)</sup> وذلك يعني أن العلم، هو: القرآن والحديث وأحكامهما، وما سوى ذلك فهو (فضل)، أما هذا (الفضل) فيكشفه حديث آخر، يرويه، أبو هريرة (59 = 678) يقول فيه: إن الرسول دخل المسجد، فرأى جمعاً من الناس على رجل، فقال: «ما هذا؟ قالوا يا رسول الله رجل علامة، قال وما العلامة؟ قالوا أعلم الناس بأنساب العرب وأعلم الناس بعبية، وأعلم الناس بشعر، وأعلم الناس بما اختلف فيه العرب، فقال رسول الله ﷺ: هذا علم لا ينفع وجهل لا يضره»<sup>(2)</sup> وقد أطرّد موقف الرسول هذا، في أن علوماً مثل التاريخ واللغة والأدب وغيرها، غير نافعة، إلا إذا خدمت الدين. وثمة من يرى أن العلوم ثلاثة، أولها للدين وهي الطب والنجوم، وثانيها للدنيا والآخرة وهي علوم القرآن والحديث والفقه، وآخرها «علم لا للدنيا، ولا للآخرة» وهو «علم الشعر والشغل به»<sup>(3)</sup>. الشعر هنا، يحيل بطبيعة الأمر على الفن الذي لا ينهض على مثال، والذي يصدر عن ملكة مجهولة، فهو مضرٌ لقائله وسامعه في الدنيا والآخرة. أما علوم اللسان، فلا نفع لها، إلا باعتبارها وسائل يستعان بها، لأنها (علوم لا تتراد لنفسها بل لغيرها) وإنفاق الزمان كما يقول

(1) جامع بيان العلم 23:2.

(2) قوت القلوب 1:194 وجامع بيان العلم 23:2.

(3) جامع بيان العلم 40:2.



ابن الجوزي في تحصيلها غلط، ولا بد من الانصراف إلى ما هو «أنفع وأعلى في الرتبة كالفقه والحديث»<sup>(1)</sup>.

كانت أهمية أي علم تتحدد في أنّ موضوعه مستمد من المركزية الدينية، فإذا انفصل عنها، فقد موضوعه، ومن ثم فقد أهميته، لأنه عُدّ الأواصر التي تربطه إلى المركز، الأمر الذي يفسّر، الأسباب الكامنة وراء أسبقية ظهور علوم القرآن تاريخياً، ذلك أنها كانت تستمد وجودها منه، أما ما ينطوي تحت (الإبداع)، فكان ينظر إليه، بوصفه (بدعة)، وكان القصص في أول الأمر، يلتزم الدقة والتقصي، ويقوم بمهمة الوعظ والتذكير، فلما نأى عن ذلك، ليؤسس كيانه، صار (بدعة) وأصبح «ترهات الأباطيل»، و«هذيانات ذات معان غريبة»<sup>(2)</sup>.

## (2)

لم يقتصر دور مركزية الوحي في الثقافة العربية الإسلامية، على إلغاء أهمية العلوم التي لا تنفص في دوائرها، بل كرّست ثنائية النطق/السمع التي كرّست المشافهة.

صحيح أن القرآن قد قدّم رؤية كتابيّة للكون، تعتمد ثنائية القلم/اللوح المحفوظ ومنح سمة الديمومة للكتابة، وجعل الكون تاجاً للخطاب الإلهي، لكن تلك الرؤية، لم تتحول إلى ممارسة بل على نقيض ذلك، فإن، ثنائية النطق/السمع، التي دعم وجودها الرسول، هي التي استأثرت بالاهتمام، وقد استندت هذه الدعوة إلى معنى كلام الله الذي دون لفظه، وصارت الكتابة، وسيلة لحفظ الألفاظ الدالة على المعاني المتعالية فيه، ولم تتحول إلى فعالية إنشائية خاصة، تعبر عن عالمها، بل كانت تحيل باستمرار على لفظ، وأدى ذلك إلى عدّ الصوت هو الأصل، وما الكتابة إلّا علامة دالة عليه، ولا أهمية لوجودها، إلّا بوصفها مقيدة لذلك الصوت، ولم تفهم الكتابة إلا بهذا المعنى، فالجاحظ لا يراها إلّا على أنها «مفزع إلى موضع استذكاره» فهي تخلد الأخبار في بطونها، حسب، وتحميها من الضياع والسيان لا غير، لأن «فهمك لمعاني كلام الناس، ينقطع قبل انقطاع فهم عين الصوت مجرداً، وأبعد فهمك لصوت صاحبك ومعاملك والمعاون لك، ما كان صياحاً صرفاً، وصوتاً مصمتاً ونداءً خالصاً، ولا يكون ذلك إلّا وهو بعيد من المفاهمة، وعطل من الدلالة، فجعل اللفظ لأقرب الحاجات، والصوت لأنفس من ذلك قليلاً، والكتاب للنزاح

(1) تليس إبليس 126.

(2) البدء والتاريخ 4:1 والمثل السائر 57:1.

من الحاجات»<sup>(1)</sup>. إن التفكير الذي انصب حول كون اللفظ أصلاً، والحرف وسيلة للحفاظ عليه، ظلّ مهيمناً لزمان طويل في الثقافة العربية، فالبيروني، في القرن الخامس الهجري، يصدر عن الموقف ذاته، الذي انطلق منه الأوائل في تحديد وظيفة الكتابة، بأنها تقييد للمنطوق، فيقول «إن اللسان مترجم للسامع عما يريد القائل، فلذلك قُصّر على راهن الزمان الشبيه بالآن، وأتى كان يتيسر نقل الخبر من ماضي الزمان إلى مستأنفه على الألسنة، وخاصة عند تطاول الأزمنة، لولا ما أنتجته قوة النطق في الإنسان من إبداع الخط الذي يسري في الأمكنة سري الرياح، ومن الأزمنة إلى الأزمنة سريان الأرواح»<sup>(2)</sup>.

كانت الأخبار الشفاهية، تعتمد على ثنائية النطق/السمع، وبوساطة الصوت، يترجم المتحدث للسامع ما يريد، ثم يذوب الصوت، ولا تبقى سوى ظلاله في الذاكرة، لأنه معبّر عن «راهن الزمان» وهدفه «الإبلاغ»، لمن جهل الخبر، أما الكتابة فتنتقل من موقع آخر، إنها تخلق واقعتها الخاصة، وتعلل وتحلل الوقائع، وتهدف إلى خلق علاقات عضوية بين عناصر الخطاب. إن كتابة من هذا النمط، تبتعد عن كونها وسيلة لتقييد اللفظ، لم تعرفها الثقافة العربية. ولما كانت المشافهة تفترض متحدثاً وحديشاً، فإن المدونات اللاحقة، حافظت على هذه الثنائية، وصار اللفظ المدوّن، يحيل إلى المتحدث الأصل، وليس إلى المدوّن، وعليه، فالتدوين لم يعمل إلا على تثبيت صورة من صور المشافهة، لا تحيل الكتابة فيها إلا على الكلام الشفاهي الذي ينتمي إلى واقع تاريخي خارج الكتابة. وفي هذا السياق، فإن التدوين الذي بدأ في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، واستمر أكثر من قرن<sup>(3)</sup> لم يقم في حقيقة الأمر، إلا بحفظ الكلام المروي الذي كان يتداول مشافهة قبل ذلك بمدة طويلة، ولم يستطع وقف ظاهرة المشافهة، إنما عمل على تثبيت مشهد من مشاهدنا في الزمان. ومثلما كان الكلام يستدعي إسناداً، كان نظام الإسناد ذاته قد ظهر في المدونات

(1) الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون 48-47:1.

(2) في تحقيق ما للهند من مقولة 132.

(3) اختلف بشأن تدوين الآثار عند العرب، فمن قائل إنها بدأت على نطاق محدود جداً في زمن الرسول والخلفاء الراشدين، الطبقات الكبير 2: ق 123:2، و125 وقواد سزكين، تاريخ التراث العربي 1:254-255 ومن قائل. إنها بدأت في عهد عمر بن عبد العزيز (99-101 هـ - 717-719 م) معرفة علوم الحديث ص: يد، والاعلان بالنويع لمن ذم التاريخ 6:5-6، والتاريخ الكبير 7:2 ومحاضرة الأوائل 101 ومقدمة تحفة الأحوذني 1:33، وصحيح البخاري 1:14، ولكن التدوين كعمل منهجي بدأ بعد عام 120 هـ، انظر قوت القلوب 2:37 وكشف الظنون 1:34 و 637 والتاريخ الكبير 7:2 ومحاضرة الأوائل 102 واستكمل مقوماته العامة حوالي منتصف القرن الثاني، الذهبي، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والاعلام 5:6 والسيوطي، تاريخ الخلفاء 261 ومقدمة تحفة الأحوذني 1:25 ومصباح السعادة 3:14، وبدأت تظهر المدونات المعروفة في الحديث في القرن الثالث الهجري.

سواء أكانت من الأحاديث النبوية، أم الأخبار المختلفة. ولما كانت المشافهة أصلاً، صار التدوين يحيل عليها، وبقيت ثنائية الراوي/المروي، التي انحدرت من المشافهة، ثابتة، لا يمكن تغييرها، كون الراوي يحيل على شخص تاريخي، والمروي يحيل على واقعة حقيقية، وهذه البنية هي الأصل الذي تحكم في تدوين الأخبار، ثم امتد إلى القصص الذي كان يتكوّن في هذا الإطار، الأمر الذي جعل المرويات السردية العربية، تتميز بظهور كامل لثنائية الراوي والمروي، المتحدّرة من ثنائية السند/المتن.

### (3)

أدت المشافهة، ونظام الإسناد، إلى ظهور قسمين أساسيين في أي كلام، شفاهاً كان أم مدوناً. يحيل القسم الأول على سلسلة من رواة الكلام، ويحيل الثاني على متن الكلام، ولما كان القسم الأول يتألف من عدد غير محدد من الرواة ينقل فيه اللاحق عن السابق ما بلغه، أفضى ذلك إلى وجود عدد من الرواة، يتمثل دورهم في نقل متن الكلام، دون أن يكون لهم أثر في عملية الإرسال التي تستدعي توفر راوٍ ومروي ومروي له، ويظهر هؤلاء الرواة غالباً بين الراوي الأول الذي يفترض أنه شهد الواقعة، وبين الراوي الأخير الذي يرويها. وواضح أنّ جميع أولئك الرواة بما فيهم الأخير الذي بواسطته يتحقق الإرسال كاملاً، لا علاقة مباشرة لهم بما يروي، سوى كونهم حلقات ترتابط فيما بينها لإيصال المروي.

إنّ تلك الصورة، كانت معروفة في الحديث النبوي، والمرويات أو المدونات التاريخية والأدبية، وهي الصورة ذاتها التي ظهرت في المرويات السردية العربية. وظهر بون، بين الراوي وما يروي، ولم تتأسس علاقة مباشرة بين الراوي والمروي في السرد العربي عامة، إلا ذلك الأثر الذي ظلّ الرواة المتعاقبون، يحتفظون به، للعلاقة التي تربط الراوي الأول بما يروي، أما الرواة الذين ينتظمون في رتب لاحقة عليه، فتبدو العلاقة واهنة بينهم وبين ما يروون ذلك أنهم يروون متوناً قديمة تنتسب إلى رواة سبقوهم كثيراً في الزمان. ولم يبق لهم سوى ترك انطباعاتهم الشخصية ومواقفهم والمؤثرات التي تفرضها البنية الثقافية لزمان الرواية على المروي.

إنّ هذا الوصف لعلاقة الراوي بالمروي في السرد العربي، لا يلغي أمراً أساسياً آخر، وهو عدم وجود ضوابط تمنع الراوي من اختلاق بعض الأحداث والوقائع تبعاً لحالة المتلقي، وبخاصة في المرويات الشعبية، إذ يتحرر الراوي من قيد الدقة في النقل والإسناد، ويلجأ إلى ابتداء أحداث جديدة، أو إجراء تحوير في أخرى، استجابة لأحوال

الذين يروى لهم. ولكنّ المسافة ظلت كبيرة بين الراوي والمروي، مهما اختلق من أحداث. وإذا لجأ الراوي إلى إلغاء المسافة تماماً بينه وما يروى، فإنه يفقد صفة كونه راوياً، ويبدأ ينسب إلى نفسه المتن الذي يرويّه، الأمر الذي لا يقبله المتلقون، الذين يفترضون صدق الراوي لما يروي. وهو ما يفسر الأسباب التي يلجأ إليها رواة المرويات الشعبية في التخفي وراء أعلام من الرواة المشهورين - في السير الشعبية خاصة - .

إنّ غياب العلاقة المباشرة بين الراوي والمروي في السرد العربي، أدى إلى ظهور (الراوي المفارق لمرويّه) الذي يعدّ سمة بارزة من سمات المرويات السردية العربية، فإليه تعزى مهمة تشكيل البنى السردية فيها.

#### (4)

كشفت الأنواع القصصية التي وقفنا عليها: الخرافة والسير الشعبية والمقامة، عن طبيعة العلاقة بين الراوي والمروي. وتستمد تلك العلاقة خصائصها من نوع الموجهات الخارجية للسرد العربيّ التي تفصل بين الراوي والمروي، شأن الفصل الذي أقامته بين القاص والقصة، فكلاهما: الراوي والقاص يتحدد وظائفهما بإيراد خبر على الوجه الذي قيل فيه، والإتيان به من قصّه أي من مصدره<sup>(1)</sup>، فالراوي، كما يقول الجاحظ، حامل لمحمول، شأن الجمل الذي ينقل الأحمال، وهو أمر تقرره مصادر اللغة العربيّة دون استثناء<sup>(2)</sup>، ويؤكد الجاحظ أنّ (الرواية) لم تكن معروفة قبل الإسلام، فهي تنتمي إلى «أسماء حدثت ولم تكن»<sup>(3)</sup>، الأمر الذي يقرر أنّ الدوافع التي فرضت الرواية، هي دوافع إسلامية، تتعلق برواية الحديث، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل، إن مصطلح (المؤلف)، كما يقول، جب، يحيل على ذلك الأديب الذي، يتمثل دوره في جمع مادة إخبارية لا تنتسب إليه مباشرة<sup>(4)</sup>، وما (التأليف) إلّا جمع ما تفرق، ووصل بعضه ببعض<sup>(5)</sup>، وعليه يمكن القول، إنه لا توجد علاقة انتساب بين القاص والراوي والمؤلف وبين ما يقص ويروي ويؤلف إلّا على سبيل تتبع أمر الخبر أو حملّه أو جمعه. وفي كل ذلك، كان الراوي، شأنه شأن القاص والمؤلف، يتكفل بأداء مهمة إخبارية محددة، وليس له أن يتتدع شيئاً جديداً. وإلا اتهم بالابتداع الذي لا ينهض على أصل.

(1) اللسان، وأساس البلاغة، والصحاح، مادة (نقص).

(2) الجاحظ، الحيوان 1: 133، واللسان وأساس البلاغة والصحاح: مادة (روى).

(3) الحيوان 1: 130.

(4) صلاح الدين المنجد، المتتقى من دراسات المستشرقين، القاهرة 134.

(5) اللسان، والصحاح، مادة (ألف).

ضمن إطار هذا الفضاء الدلالي، الذي يؤكد على فصل المروي عن روايته، نشأت المرويات السردية العربية، فتلقت مؤثرات ذلك الفضاء في البنية السردية لها بما جعل الانفصال بين الراوي ومروياته أمراً ظاهراً بيناً.

إن الراوي في الخرافة والسيرة الشعبية والمقامة، يتطلع من عل إلى مجموعة من الأخبار والوقائع الغريبة عنه، ويعمل على تنسيق أجزائها، وتنظيم مادتها، وترتيب فقراتها، وبذلك، فهو، ينهض بمهمة تشكيل بنية تلك المرويات.

إن السردية، لا تقر بوجود راوٍ، لا ينتمي إلى البنية السردية التي يكوّنها ولكنها، لا تنفي أمر البحث في الأصول التي تحدّر الراوي عنها، وقد كشف لنا التحليل أنّ الراوي في المرويات السردية العربية، انحدر من الموروث الإخباري، وعمل بتوجيه من ذلك الموروث، بإشكالياته الشفاهية والدينية التي كانت موجهاً مؤثراً في تشكّل تلك المرويات وأبنيتها.

لقد تجلت وظائف الراوي في الأنواع القصصية العربية، بأنه مرسل لمروي، ينطوي على بنية محددة، تبعاً لنوعه، إلى مروي له، يوازيه في الرتبة، وكلما تعددت مستويات الرواية، لزم التعدد في مستويات المروي له. ولقد أمكن كشف ثلاثة مستويات من العلاقة بين الراوي والمروي له، هي:

1 - إنّ الراوي في الحكاية الخرافية، يتنظم في علاقة محكمة بمستويات متعددة، تندرج من الإطار الواسع الذي يحتويها - كما مثلنا على ذلك في الوقوف على خرافة شهرزاد - مروراً بمستويات دون ذلك الإطار، وصولاً إلى رواية الشخصية التي يعزى إليها الفعل. وإنّ هذا التدرج المنتظم في مستويات الرواية، يقابله، وعلى غراه. تدرج يحكم المروي له. فالإرسال السردى، يتم بين فئة الرواة وبين الفئة التي توازيها من المروي له. ولا يمكن أن يختل نظام تلك العلاقة. وقد أظهر التحليل ثلاثة أنواع من صيغ الإرسال، تبعاً لتعدد الرواة وهي:

أ - تعدد في الرواة مع بقاء المروي له مفرداً.

ب - تعدد في المروي له مع بقاء الراوي مفرداً.

ج - تعدد في الرواة والمروي له.

وغني عن البيان القول، إنّ تعدد الرواة يقتضي تنوعاً في الرؤى ووجهات النظر. ذلك أنّ منظور كل راوٍ يختلف عن الآخر، وفيما يمكن التأكيد هنا، أنّ صيغة الإرسال الأخيرة، تتمثل بإرسال (حزمة) من الرؤى إلى عدد من المروي لهم، فإنّ الصيغتين الأولى والثانية،

تتناقض فيهما علاقات الإرسال، ففي الأولى تتجه (حزمة) من الروى إلى مروى له مفرد فيما تتجه في الثانية رؤية واحدة إلى مجموعة من المروى لهم.

وكل ذلك، لا يقوض نظام الإرسال بين الفئات، لأن ذلك النظام يخضع لرتبة الراوي والمروى له، وليس لاسمه. مما يسهل أمر تنقلهم بين مستويات الرواية والتلقي تبعاً لضرورات الإرسال التي تقتضيها البنية السردية للحكاية الخرافية. فضلاً عن الإمكانيات التي تتيحها تلك البنية في استبدال مواقع الراوي والمروى له، واستبدال أدوارهم.

2 - إن الراوي في السيرة الشعبية، يتوزع انتماؤه بين موقعين: أولهما خارج البنية السردية، بوصفه منشداً للمروي، وثانيهما داخل البنية السردية، كونه عنصراً مكوناً فيها. ويوازيه في ذلك، مروى له، يتسم بالسمة نفسها. وخصايصة الازدواج في انتماء الراوي، ترجع إلى خضوع مرويات السيرة إلى المشافهة، إلى حد يصل الأمر فيه، أن الراوي ما زال يتصف بصفات المنشد، على الرغم من تدوين تلك المرويات.

3 - إن الراوي في المقامة، ينظم في مستويات متدرجة، تبدأ من راوٍ مجهول، يليه معلوم، فالراوي البطل الذي يتدب نفسه للرواية أحياناً، ويوازيه في ذلك، مروى له يتلقى منه، يكون جزءاً من البنية السردية. وتمنح المقامة، شأن الحكاية الخرافية، إمكانية أن يكون المروى له راوياً. وتكشف بنية الاستهلال السردية في المقامة، أن الراوي الذي يقيم بمهمة الإرسال السردية، كان في الأصل مروياً له، قبل أن يستبدل موقعه، ويتحول إلى راوٍ.

إن علاقة الراوي بالمروى له، تخضع مباشرة لعملية الإرسال والتلقي إذ إن صيغ الإرسال تحدد رتب الرواة، فيما تحدد صيغ التلقي رتب المروى لهم، أما المروى، بوصفه مادة الإرسال السردية، فينبغي دراسة بنيته، سواء ما تعلق منها بالعناصر المكونة لها، أم بالإنجاز السردية كله، الذي يكون متن المروى، بما ينطوي عليه من حكاية، تستدعي وجود شخصيات وأحداث وفضاء زمني ومكاني يحتويهما.

إن الأحداث التي يكون نسجها متن المروى، تنتظم فيما بينها، في علاقة تخضع لمعيار الزمن، الذي يرتب تعاقبها، وقد كشف لنا تحليل مرويات الحكاية الخرافية، والسيرة الشعبية والمقامة، عن الأنساق الآتية في البناء، حسب الأنواع القصصية المذكورة:

1 - إن بنية الحكاية الخرافية، شديدة التعقيد، لأن الفعل الذي يكون لب الحكاية، يُخرق كلما ظهرت شخصية جديدة في سياق الأحداث، وتتأتى شدة التعقيد من تعدد مظاهر الإلهام والاستباق، واندرج حكايات دخيلة في سياق الحكاية الأصلية، فضلاً عن تعدد

الرواة الذي يفضي إلى تعدد في الحكايات، وتوالد مستمر فيها، بما يجعلها لا تخضع لنسق متتابع، الأمر الذي جعل ميزة تداخل الأحداث سمة مميزة لها.

2- إن بنية السيرة الشعبية، تتكون من سلسلة طويلة من الوحدات الحكائية المتعاقبة، التي تمثل أفعال البطل، وهي تنظم في نمطين: وحدات حكائية بسيطة التركيب، تخضع لبناء متتابع في تشكيل مكوناتها، ووحدات حكائية مركبة، تكون الوحدة الحكائية فيها إطاراً لعدد من الوحدات الحكائية الصغيرة، وتتسم الوحدات المركبة بتداخل مكوناتها، وتعقد أحداثها، مما جعلها تتصف بأنها ذات بناء متداخل.

3- إن بنية الحكاية في المقامة، تخضع لنسق التتابع، وتعد لحظة التعرف مظهراً مهيماً من مظاهرها الفنية، ويؤثر هذا المظهر في بنية الحكاية، تأثيراً مباشراً، فإذا جاءت لحظة التعرف، إثر انتهاء البطل من مهمته، تكون بنية الحكاية منسقة ومتناسكة، وتنتهي بنهاية يفترق فيها الراوي عن البطل، أما إذا جاءت لحظة التعرف، قبل شروع البطل بمهمته، فإن ملامح الحكاية تتغير، وتفقد تماسكها، ويتحول فعل البطل إلى مشهد جامد، لا حركة فيه، سوى وصف مجرد لخطبة أو موعظة يقوم بها البطل.

إن نظرة كلية إلى بنية المروي في السرد العربي، تكشف أنه ينظم في نسقي التتابع والتداخل، وذلك يعود إلى خواص النوع من جهة، وإلى علاقة الراوي ببناء الأحداث من جهة أخرى.

نخلص، إثر معاينة علاقة الراوي بالمروي له وتوصيفها، كما كشفها التحليل الذي خصص لها، إلى أن المروي لا يرتبط بالراوي إلا على سبيل الإرسال، ولا يرتبط بالمروي له، إلا على سبيل التلقي فالمروي الذي هو مادة ذلك الإرسال، لا ينتسب إبداعياً إلى أي من مكوني البنية السردية الآخرين، وإن كنا لا نعدم وجود استثناء، وقفنا عليه في دراسة تلك المكونات في الحكاية الخرافية والسيرة الشعبية والمقامة، إذ يقوم البطل بالرواية أو يتحول إلى مروي له.

- \* أوسبنسكي (= بوريس)  
 باحث روسي، معني بالدراسات السردية، وأستاذ في جامعة موسكو، ومن أشهر كتبه «شعرية التأليف: بنية النص الفني ونمذجة الشكل الفني» الذي صدر بالروسية عام 1970 وترجم إلى الإنجليزية عام 1973.
- \* أيكو (= امبرتو)  
 باحث وروائي إيطالي، يعمل في حقل السيميولوجيا، من أشهر كتبه «نظرية السيميولوجيا» و«السيميولوجيا وفلسفة اللغة» 1988، وصدرت له روايتان «اسم الورد» و«بندول فوكو».
- \* باختين (= ميخائيل) 1895-1975  
 باحث روسي، أصدر الكتب الآتية «الماركسية وعلم اللغة»، «قضايا شعرية دستوفسكي» 1929، «الملحمة والرواية» 1965، «أثار فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية في العصور الوسطى وعصر النهضة» 1965.
- \* بارت (= رولان) 1915-1980  
 باحث فرنسي، وعالم في السيميولوجيا، صدرت له كتب كثيرة، منها «درجة الصفر للكتابة» 1953، «أساطير» 1957، «حوار مع راسين» 1963، «دراسات نقدية» 1964، «عناصر السيميولوجيا» 1965، «امبراطورية العلامات» 1970، «شذرات من خطاب عاشق» 1977، «الغرفة المضيفة» 1980.
- \* برنس (= جيرالد)  
 باحث متخصص في السردية، من بحوثه المهمة «مقدمة في دراسة المروي له» 1973، و«قواعد القصص: مدخل» 1973.
- \* بروب (= فلاديمير) 1895 - 1970  
 باحث روسي مهتم بالموروث الشعبي، وعضو جماعة الشكلانيين الروسي، صدرت له الكتب الآتية

أعدّ هذا الكشاف الموجز، بأسماء الباحثين في الدراسات السردية، ممن ورد ذكرهم في مدخل البحث، من مصادر مختلفة، ورد ذكر بعضها في المدخل المذكور، قد استقيت المعلومات الخاصة بجهودهم الفكرية من كتبهم، أو من المراجع التي عنت بهم، وأثرنا ذكر بعض كتبهم المهمة، التي تلقي ضوءاً على طبيعة اهتماماتهم.



\*مورفولوجية الخرافة» 1928، «الجزور التاريخية للحكاية العجيبة» 1946، «الشعر الملحمي الروسي» 1955، «الأعياد الفلاحية الروسية» و«أديب في ضوء الفلكلور».

\* بريمون (= كلود)

باحث فرنسي، أشهر كتبه «منطق السرد» 1973، وله بحوث أخرى منها «منطق الإمكانات السردية» و«رسالة السرد».

\* تودروف (= تزفتيان) 1939

باحث بلغاري، يكتب بالفرنسية، ويقوم في فرنسا منذ أوائل الستينات، ترجم نصوص الشكلانيين الروس إلى الفرنسية، وصدرت تحت عنوان «نظرية الأدب» 1965 من كتبه «الأدب والدلالة» 1967 و«نظرية الرمز» 1977 و«أنواع القول» و«الرمزية والتأويل» 1977 و«الشعرية» 1978 و«نقد النقد» و«ميخائيل باختين المبدأ الجوارحي» 1981 و«أخلاقيات التاريخ» 1991.

\* جاتمان (= سيمور)

باحث أمريكي من كتبه «مقالات حول لغة الأدب» 1967، «الأسلوب الأدبي: مناقشة» 1971، و«القصة والخطاب: البنية السردية للرواية والفلم» 1978.

\* جنيت (جيرار) 1930

باحث فرنسي، صدر له كتاب في ثلاثة أجزاء بعنوان «أشكال» وقد نشر الجزء الأخير منه، تحت عنوان «خطاب السرد» وله كتب أخرى منها «مدخل إلى معمار النص» 1979 و«أطراس» 1982.

\* «انداز (= آلن)

باحث مهتم بالموروثات الشعبية، طبق مفاهيم اللسانيات الحديثة على الحكايات الشعبية، من كتبه «مورفولوجية الحكايات الشعبية الهندية في أمريكا الشمالية» 1964.

\* راغلن (= لورد)

باحث مهتم بالحكايات الأسطورية والخرافية، استنبط سمات البطل الأسطوري في كتابه «البطل» 1936.

\* ستروس (= كلود ليفي)

باحث فرنسي في حقل الأنثروبولوجيا والديانات المقارنة وعلم الأعراق، من كتبه «البنات الأولية للقراءة» 1949 و«الجنس البشري والتاريخ» 1952، و«المدارات الحزينة» 1955، «الأنثروبولوجيا البنيوية» 1958، «الفكر البري» 1962 و«أساطير» 1964-1971.

\* شولز (= روبرت)

باحث يعمل في حقل السردية والنقد الأدبي من كتبه «طبيعة السرد» و«البنيوية في الأدب».

\* غريماس (= الجيرداس جوليان) 1917

باحث فرنسي في علم الدلالة والسردية، صدرت له كتب منها «علم الدلالة البنيوي» 1966، «بحوث في شعرية الدلالة» 1972، «سيميائية السرد والنص» 1973، «العلامة، اللغة، الثقافة» 1971.

\* فاوول (= روج)

باحث في حقل السردية واللسانيات والنقد الأدبي من كتبه «الأسلوب والبنية في الأدب»، «معجم

المصطلحات النقدية الحديثة» 1973، و«اللسانيات والرواية» 1977.

\* فراي (نورثروب)

باحث كندي يعنى بالأدب الأسطورية، من كتبه، «تشریح النقد» 1957 و«خرافات الهوية: دراسات في الأسطورة الشعرية» 1963، «سلطات الخيال» 196 و«الدرب الضيق: بحوث حول السياق الاجتماعي للنقد الأدبي» 1971 و«البنية العنيدة أبحاث حول النقد والمجتمع» 1970، «الشفرة، العظيمة: التوراة والأدب» 1982.

\* فردمان (= نورمان)

باحث في السردية والنقد الأدبي، من بحوثه المعروفة «وجهة النظر في الرواية: تطور المفهوم النقدي» 1967.

\* كوستيفا (= جوليا)

باحثة بلغارية، مقيمة في فرنسا، وتكتب في حقول الدلالة والتأويل، من كتبها «أبحاث في تحليل المعاني» 1969، «النص الروائي» 1970 و«ثورة اللغة الشعرية» 1974، «رحلة العلامات» 1975، «تعددية الكلمة» 1977، «الحقيقة المجنونة» 1977، «حكم الرعب» 1980.

\* كلر (= جوناثان)

باحث يعمل في حقل الدراسات البنيوية والتفكيك، من كتبه «الشعرية البنيوية» 1977، و«حول التفكيك: النظرية والنقد بعد البنيوية» 1986.

## كشاف مصادر البحث ومراجعته

### أولاً: المصادر المعرفية

#### 1- المصادر الدينية

##### أ - القرآن الكريم

ب - علوم الدين (= تفسير + حديث + فقه + علم الكلام + دراسات قرآنية).

الأمدي (= سيف الدين أبو الحسن)

- منتهى السؤل في علم الأصول (القاهرة: مطبعة صبيح، د.ت).

الأشعري (= أبو الحسن علي بن إساعيل)

- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة:

مكتبة النهضة، 1950).

ابن تيمية (= تقي الدين أحمد)

- رفع الملام عن الأئمة الاعلام، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبوع على هامش الأنصاف

للمرداوي (القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، 1985).

ابن جماعة (= أبو إسحاق إبراهيم)

- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (حيدر آباد: المطبعة العثمانية 1353 هـ).

#### إشارة

آثرنا بغية كشف الأصول التي اشتقت منها مادة البحث، تصنف المصادر حسب موضوعاتها، بدءاً بالمصادر المعرفية، بما فيها كتب علوم الدين والتاريخ والأدب والأمثال، مروراً بالمعجمات والفهارس ودوائر المعارف، وصولاً إلى النصوص الأدبية، حسب الأنواع القصصية التي وقفنا عليها من خرافة وسيرة ومقامة. وأضفنا إلى المصادر قائمة بمراجع البحث، عربية ومترجمة وأجنبية. وقد عملنا على تبويب كشاف المصادر والمراجع، بما يسهل الاطلاع على طبيعة المادة التي غدت البحث، سواء في تحديد الأطر العامة له، أم التون السردية التي كانت موضوعاً للتحليل الفني فيه.

- ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن)  
- تلبس إبليس، تحقيق محمد منير الدمشقي (القاهرة: مطبعة النهضة، 1928).  
- كتاب الفصاص والمذكرين، تحقيق مارلين سوارتز (بيروت: دار المشرق، 1971).  
ابن حزم (أبو محمد علي الأندلسي)  
- الإحكام في أصول الأحكام (القاهرة: مطبعة الإمام، د.ت).  
- التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، تحقيق إحسان عباس (بيروت د.م، 1959).  
ابن حنبل (أبو عبد الله أحمد بن محمد)  
- مسند أحمد (د.م، د.ت).  
ابن الصلاح (= تقي الدين عثمان)  
- مقدمة ابن الصلاح، تحقيق عائشة عبد الرحمن (القاهرة، دار الكتب، 1974).  
ابن عقيل (= أبو الوفاء علي بن محمد)  
- كتاب الفتون، تحقيق جورج مقدسي (بيروت: دار المشرق، 1971).  
ابن القيسراني (أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي)  
- كتاب السباع، تحقيق أبو الوفاء المراغي (القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1970).  
ابن كثير (= عماد الدين أبو الفداء)  
- فضائل القرآن، ذيل تفسير القرآن العظيم (بيروت: دار الأندلس، 1966).  
- نهاية البداية في الفتن والملاحم، تحقيق محمد أبو عيبة (الرياض، مكتبة النصر، 1968).  
ابن ماجة (= محمد بن يزيد)  
- السنن، (القاهرة: د.ت).  
أبو الحسين البصري (= محمد بن علي)  
- المعتمد في أصول الفقه، تحقيق محمد حميد الله (دمشق: المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، 1965).  
أبو داود (= سليمان السجستاني)  
- سنن أبي داود (القاهرة: مطبعة الحلبي، 1952).  
أبو طالب المكي (= محمد بن علي)  
- قوت القلوب (القاهرة: المطبعة المصرية، 1932).  
الباقلاني (= أبو بكر محمد بن الطيب)  
- إعجاز القرآن، تحقيق أحمد صقر (القاهرة: دار المعارف، 1963).  
- التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، تحقيق محمود محمد الخضير ومحمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف، 1947).  
البخاري (= أبو عبد الله محمد بن إسماعيل)  
- الصحيح (بيروت: دار القلم، 1987).

- البخاري (= عبد العزيز)  
 - كشف الأسرار (مكتب الصنائع، 1307 هـ).  
 البستي (= أبو عبد الله بن رشيد)  
 - إفادة الصحيح بالتعريف بالجامع الصحيح، تحقيق محمد بن الحبيب الحوجبة، (تونس: الدار التونسية، د.ت.).  
 البستي (= محمد بن حيان)  
 - كتاب المجروحين من المحدثين، تحقيق عزيز بك القادري (حيدر آباد: المطبعة العزيرية، 1970).  
 البيروني (= أبو الريحان محمد بن أحمد)  
 - في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة (حيدر آباد: المطبعة العثمانية، 1958).  
 البيهقي (= أبو بكر أحمد بن الحسين)  
 - معرفة السنن والآثار، تحقيق أحمد صقر (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1969).  
 التميمي (= أبو منصور عبد القادر بن طاهر)  
 - أصول الدين (استانبول، مطبعة الدولة، 1928).  
 الجريري (= أبو الفرج معاني بن زكريا)  
 - المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، تحقيق محمد مرسي الحولي (بيروت: عالم الكتب، 1981).  
 الخطاب (= بيروت: أبو عبد الله محمد)  
 - مواهب الجليل لشرح مختصر خليل (بيروت: دار الكتاب اللبناني، د.ت.).  
 الخطيب البغدادي (= أبو بكر أحمد بن ثابت)  
 - تقييد العلم، تحقيق يوسف العث (دمشق: المطبعة الكاثوليكية، 1949).  
 - شرف أصحاب الحديث، تحقيق محمد سعيد خطيب أوغلي (أنقرة: دار إحياء السنة النبوية، 1971).  
 - الكفاية في علم الرواية (حيدر آباد: 1938).  
 الرازي (= فخر الدين محمد بن عمر)  
 - المباحث الشرقية في علم الإلهيات والطبيعات (طهران: مكتب الأسد، 1966).  
 الرماني (= أبو الحسن) والخطابي (= أبو سليمان) والجرجاني (عبد القاهر)  
 - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام (القاهرة: دار المعارف، 1968).  
 الزمخشري (= أبو القاسم جار الله)  
 - الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (القاهرة: مطبعة الحلبي، 1968).

- السخاوي (= شمس الدين محمد بن عبد الرحمن)  
 - فتح المنيث، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان (القاهرة: مطبعة العاصمة، 1969).  
 السهروردي (= أبو حفص عمرو بن محمد)  
 - عوارف المعارف، مطبوع على هامش إحياء علوم الدين للغزالي (القاهرة: المكتبة التجارية، د.ت.).  
 السيوطي (= جلال الدين عبد الرحمن)  
 - الاتقان في العلوم القرآن (القاهرة: مطبعة الحلبي، 1940).  
 الشافعي (= أبو جعفر محمد بن إدريس)  
 - الأم (القاهرة: مطبعة الكبرى، 1321 هـ).  
 - الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة: المطبعة الحلبي، 1940).  
 الطبري (= أبو جعفر محمد بن حريز)  
 - جامع البيان في تفسير القرآن (بيروت: دار المعرفة، 1972).  
 الطحاوي (= أبو جعفر أحمد بن محمد)  
 - مشكلة الآثار (الهند: 1333 هـ).  
 الغزالي (= أبو حامد محمد)  
 - إحياء علوم الدين (القاهرة: المطبعة التجارية، د.ت.).  
 - الإيماء على إشكالات الإحياء، مطبوع على هامش إحياء علوم الدين.  
 - فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، تحقيق سليمان دنيا (القاهرة: دار إحياء الكتب، 1961).  
 - المستصفى من علم الأصول، تحقيق محمد حسن هيتو (دمشق، 1970).  
 القاضي عبد الجبار (= أبو الحسن بن محمد)  
 - المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق أمين الخولي (القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد، 1960).  
 الكرمانى (= أحمد حميد الدين)  
 - راحة العقل، تحقيق مصطفى غالب (بيروت: دار الأندلس، 1967).  
 المباركفوري (= أبو العلي عبد الرحمن)  
 - مقدمة تحفة الأحوذى، تحقيق عبد الرحمن بن عثمان القاهرة: مطبعة الفجالة، 1967).  
 المرادوي (= علاء الدين بن الحسن).  
 - الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، تحقيق محمد حامد الفقي (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، 1958).  
 مسلم (= أبو الحسن بن الحجاج)  
 - الصحيح (القاهرة: مطبعة الحلبي، د.ت.).  
 النعمان بن حيون (= القاضي النعمان)  
 - أساس التأويل، تحقيق عارف تامر (بيروت: دار الثقافة، 1960).

- النعمري (= ابن عبد البر)
- هجة المجالس وأنس المجالس وشخذ الذاهن والمهاجس، تحقيق محمد مرسي الخولي (القاهرة: الدار الوطنية المصرية للتأليف والترجمة، د.ت).
  - جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحله (القاهرة: المطبعة المنيرية، د.ت).
- النووي (= أبو زكريا محيي الدين)
- شرح صحيح مسلم (القاهرة: المطبعة المصرية، د.ت)
  - المجموع: شرح المذهب (القاهرة: مطبعة العاصمة، د.ت).
- النيسابوري (= أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم)
- معرفة علوم الحديث، تحقيق معظم حسين (حيدر آباد: المطبعة العثمانية، 1966).
- النيسابوري (= نظام الدين الحسن بن محمد)
- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، مطبوع على هامش جامع البيان للطبري.
- المروزي (= علي بن سلطان محمد)
- مرقاة المفاتيح (باكستان: مكتبة امداد - ملتان، 1966).
- الهندي (علي المتقي علاء الدين)
- كنز العمال في السنن والأقوال (حيدر آباد: المطبعة العثمانية، 1958).

## 2 - المصادر التاريخية:

- ابن الأثير (= أبو الحسن علي بن أبي الكرم)
- الكامل في التاريخ (بيروت: دار الفكر، 1978).
- ابن أبياس (= محمد بن أحمد)
- بدائع الزهور في وقائع الدهور (بغداد: مكتبة التحرير، 1990).
- ابن الجوزي (= أبو الفرج عبد الرحمن)
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (حيدر آباد: المطبعة العثمانية، 1357 هـ).
- ابن خلدون (= عبد الرحمن بن محمد)
- كتاب العبر ودبوان المبتدأ والخبر (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1968).
  - المقدمة (بيروت: دار الفكر، د.ت).
- ابن عساكر (= أبو القاسم علي هبة الله)
- التاريخ الكبير، ترتيب عبد القادر أفندي (روضة الشام، 1330 هـ).
- الجبوتي (= عبد الرحمن)
- عجائب الآثار في الترجمة والأخبار (بيروت: دار الجبل: 1978).
- الجرهمي (= عبيد بن شرية)
- أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها - ملحق بكتاب التيجان لوهب بن منبه - (حيدر آباد: 1347 هـ).

- السخاوي (= شمس الدين محمد بن عبد الرحمن)  
 - الاعلان بالتبويب لمن ذم التاريخ، تحقيق فرانز روزنتال (بغداد: مطبعة العاني، 1963).  
 السيوطي (= جلال الدين عبد الرحمن)  
 - تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد عي الدين عبد الحميد (القاهرة: مطبعة المدني، 1964).  
 - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1968).  
 الطبري (= أبو جعفر محمد بن جرير)  
 - تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، 1987).  
 المسعودي (= أبو الحسن بن علي)  
 - أخبار الزمان (بيروت: دار الأندلس، 1966).  
 - مرجع الذهب ومعادن الجوهر (بيروت: دار الأندلس، 1973).  
 المقدسي (= مطهر بن طاهر)  
 - البدء والتاريخ، تحقيق كليمان هوار (باريس، 1899).  
 المقرئزي (= نفي الدين أحمد بن علي)  
 - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (بيروت: الساحل الجنوبي، 1959).

### ٣ - المصادر الأدبية (أدب + لغة + بلاغة + نقد)

- الأبشي (= شهاب الدين محمد)  
 - المستطرف من كل فن مستظرف (د.م: دار الفكر، د.ت).  
 الأصمباني (= أبو قاسم بن محمد الراغب)  
 - محاضرات الأدباء في محاورات الشعراء والبلغاء (بيروت: مكتبة الحياة، د.ت).  
 الأصفهاني (= أبو الفرج)  
 - الأغاني (بيروت: دار الفكر، 1986).  
 ابن الأثير (= أبو الفتح ضياء الدين نصر الله)  
 - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: مطبعة الحلبي، 1939).  
 ابن بسّام الشتريني (= أبو الحسن علي)  
 - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس (ليبيا - تونس: الشركة العربية للكتاب، 1979).  
 ابن رشي (= أبو علي الحسن القيرواني)  
 - العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الجبل، 1972).  
 ابن الصائغ (= عبد الرحمن يوسف)  
 - تحفة أولي الألباب في صناعة الخط والكتاب، تحقيق هلال ناجي (تونس: دار بو سلامة، 1967).



- ابن قتيبة (= أبو محمد عبد الله بن مسلم)  
 - الشعر والشعراء (بيروت: دار العلم للملايين).  
 - عيون الأخبار (القاهرة: دار الكتب، 1928).  
 - المعارف، تحقيق ثروت عكاشة (القاهرة: دار الكتب، 1960).  
 ابن المدير (= إبراهيم)  
 - الرسالة العذراء، تحقيق زكي مبارك (القاهرة: دار الكتب، 1931).  
 الشعالي (= أبو منصور عبد الملك)  
 - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: مطبعة السعادة، 1956).  
 الصولي (= أبو بكر محمد بن يحيى)  
 - كتاب الأوراق: أخبار الرازي بالله والمتقي لله، تحقيق ج. هيورث، دن (بيروت: دار المسيرة، 1979).  
 الجاحظ (= أبو عثمان عمرو بن بحر)  
 - البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي (بيروت: دار صعب د.ت).  
 - الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، (القاهرة: مطبعة الحلبي، د.ت).  
 - رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت).  
 الجرجاني (= عبد القاهر)  
 - أسرار البلاغة، تحقيق هـ. ريتز (استانبول: مطبعة وزارة المعارف، 1954).  
 - دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمد عبده (بيروت: دار المعرفة، 1978).  
 الجرجاني (= عبد العزيز)  
 - الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي الجاوي (القاهرة: مطبعة الحلبي، د.ت).  
 الحصري (= أبو إسحاق إبراهيم)  
 - زهر الآداب وثمر الألباب، ضبط زكي مبارك، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: مطبعة السعادة، 1953).  
 الحموي (= ابن حجة)  
 - ثمرات الأوراق في المحاضرات، مطبوعة على هامش المستطرف للأبيشي.  
 السكاكي (= أبو يعقوب يوسف بن بكر)  
 - مفتاح العلوم، تحقيق أكرم عثمان يوسف (بغداد: مطبعة الرسالة، 1982).  
 القرطاجني (= أبو الحسن حازم)  
 - منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد بن الحبيب الخوجه (تونس: دار الكتب الشرقية، 1966).  
 القلشندي (= أبو العباس أحمد بن علي)  
 - صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة: المطبعة الأميرية، د.ت).  
 الكلاعي (= أبو القاسم محمد)  
 - أحكام صنعة الكلام، تحقيق محمد رضوان الداية (بيروت: دار الثقافة، 1966).

- المقرّي (= أحمد بن محمد)  
 - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، 1968).  
 المكي (= العباس بن علي بن نور الدين)  
 - نزعة المجلس ومنية الأديب الأنيس (النجف الأشرف: المطبعة الحيدرية، 1967).  
 النويري (= شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)  
 - نهاية الأرب في فنون الأدب (القاهرة: دار الكتب، 1949).  
 الوشاء (= أبو الطيب محمد بن إسحاق)  
 - العوشى (بيروت: دار صادر، 1965).

#### 4 - كتب الأمثال

- ابن عاصم (= المفضل بن سلمة)  
 - الفاختة، تحقيق عبد العليم الطحاوي (القاهرة: وزارة الإرشاد القومي، 1960).  
 الثعالبي (= أبو منصور عبد الملك)  
 - التمثيل أو المحاضرة، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو (القاهرة: دار الكتب العربية، 1961).  
 - ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (القاهرة: المطبعة الظاهرية، 1908).  
 الزمخشري (= أبو القاسم جار الله)  
 - المستقصى من أمثال العرب، تحقيق محمد عبد المعيد خان، (حيدر آباد: المطبعة العثمانية، 1962).  
 الميداني (= أبو الفضل أحمد بن محمد)  
 - مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: مطبعة السعادة، 1959).

#### 5 - كتب في موضوعات مختلفة

- السكرتاري (= علاء الدين علي)  
 - محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر (القاهرة: المطبعة الشرقية، 1311 هـ).  
 السنوسي (= محمد)  
 - الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوفي (تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1981).  
 العسكري (= أبو هلال الحسن بن سهل)  
 - الأوائل، تحقيق محمد السيد الوكيل (المدينة المنورة. د.ت).  
 علي بن أبي طالب (= الإمام)  
 - نهج البلاغة، شرح محمد عبده (بيروت: مؤسسة الأعلى، د.ت).  
 الغزالي (= أبو حامد محمد)  
 - معيار العلم في فن المنطق (بيروت: دار الأندلس، 1978).

## ثانياً: المعجمات والفهارس ودوائر المعارف:

- ابن خير الأشيبلي (= أبو بكر محمد)  
- فهرسة ما رواه عن شيوخته، تحقيق فرانشكة قدارة زيدين (بيروت: دار الأفاق الجديدة، 1979).
- ابن منظور (= أبو الفضل جمال الدين)  
- لسان العرب (بيروت: دار صادر، د.ت.).
- ابن النديم (= محمد بن إسحاق)  
- الفهرست، تحقيق رضا تجدد (طهران: 1971).
- البستاني (= بطرس)  
- دائرة المعارف (طهران: مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان، د.ت.).
- التهانوي (= محمد علي الفاروقي)  
- كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق لطفي عبد البديع (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 1972).
- الجوهري (= إسماعيل عبد حماد)  
- الصحاح، إعداد نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي (بيروت: دار الحضارة العربية، 1974).
- حاجي خليفة (= مصطفى بن عبد الله)  
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، (بغداد: مطبعة المثنى، د.ت.).
- الزمخشري (أبو القاسم جار الله)  
- أساس البلاغة (بيروت: دار صادر، 1965).
- طاش كبري زادة (= أحمد بن مصطفى)  
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة (حيدرآباد: المطبعة العثمانية، 1977).
- الفيروز آبادي (= مجد الدين محمد بن يعقوب)  
- القاموس المحيط (بيروت: دار الجيل، د.ت. 9).
- مصطفى (= إبراهيم)، الزيات (= أحمد حسن)، عبد القادر، = حامد، النجار (= محمد علي)  
- المعجم الوسيط (طهران المكتبة العلمية، د.ت.).
- دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة محمد ثابت الفندي وآخرون (طهران: مطبعة جهان، د.ت.).

## ثالثاً: النصوص:

### 1 - الخرافات والأسمار:

- ابن ظفر (= أبو عبد الله محمد الطقلي)  
- السلوانات في مسامرة الخلفاء والسادات، تحرير أحمد بن عبد المجيد (القاهرة: دار الثقافة، 1978).

- ابن المقفع (= عبد الله)  
 - كليلة ودمنة (تونس: دار بو سلامة، 1977).  
 المنجد (= صلاح الدين)  
 - عروس العرايس (بيروت: مؤسسة التراث العربي، 1959).  
 مهدي (= محسن)  
 - كتاب ألف ليلة وليلة من أصول العربية الأولى (لیدن: بريل، 1984).  
 - ألف ليلة وليلة، 4 ج (بيروت: المكتبة الثقافية، 1979).  
 - الحكايات العجيبة والأخبار الغربية، تحقيق هنس ويسر (بيروت: دار الكتاب العربي، 1956).  
 - مائة ليلة وليلة، دراسة وتحقيق محمود طرشونة (ليبيا - تونس: الدار العربية للكتاب، 1979).  
 - الأسفار الخمسة - بنجاتترا - ترجمة عبد الحميد يونس (الكويت: مطبعة الحكومة، د.ت.).

## 2 - السير:

### أ - سيرة الرسول:

- ابن سيد الناس (= أبو الفتح محمد بن محمد)  
 - عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير (القاهرة: مكتبة القدس، 1356 هـ).  
 ابن هشام (= أبو محمد بن عبد الملك)  
 - السيرة النبوية (بيروت: دار الجليل، 1975).  
 الحلبي (= علي بن برهان الدين)  
 - إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (القاهرة: مطبعة الاستقامة، 1962).  
 دحلان (= أحمد زيني)  
 - السيرة النبوية والآثار المحمدية، مطبوع على هامش إنسان العيون.  
 السهيلي (= عبد الرحمن)  
 - الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، تحقيق عبد الرحمن الوكيل (القاهرة: مطبعة النصر، د.ت.).  
 الواقدي (= محمد بن عمر)  
 - المغازي، تحقيق مارسدن جونز (مطبعة جامعة أكسفورد، 1966).

### ب - التراجم:

- ابن أبي أصيبعة (= موفق الدين أبو العباس)  
 - عيون الأنباء في طبقات الأطباء (بيروت: دار الفكر، 1987).

- ابن الأثير (= أبو الحسن علي بن أبي الكرم)  
 - أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم البناء ومحمد أحمد عاشور  
 (القاهرة: دار الشعب، د.ت).
- ابن خلكان (= أبو العباس شمس الدين أحمد)  
 - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، د.ت).
- ابن سعد (= محمد بن سعد)  
 - الطبقات الكبير، تحقيق ادوارد سخو (لندن: مطبعة بريل، 1322-1347 هـ).
- ابن سلام (محمد الجمحي)  
 - طبقات فحول الشعراء، شرح محمود محمد شاكر (القاهرة، مطبعة المدني، د.ت).
- ابن العماد (= أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي)  
 - شذرات الذهب في أخبار من ذهب (بيروت: المكتب التجاري، د.ت).
- الخطيب البغدادي (= أبو بكر أحمد بن ثابت)  
 - تاريخ بغداد (بيروت: دار الفكر، د.ت).
- الذهبي (= شمس الدين محمد بن أحمد)  
 - تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام (مكتبة القدس، 1369 هـ).  
 - العبر في خبر من غير، تحقيق صلاح الدين المنجد (الكويت: دائرة المطبوعات والنشر،  
 1960).
- سير الأعلام النبلاء (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ت).
- السبكي (= تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب)  
 - طبقات الشافعية الكبرى، القاهرة ك المطبعة الحسينية، د.ت).
- السلمي (= أبو عبد الرحمن)  
 - طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شرية (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1969).
- السيوطي (= جلال الدين عبد الرحمن)  
 - طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمد عبد الرحمن (بيروت ك مطبعة الاستقلال الكبرى،  
 1973).
- الصفدي (= صلاح الدين خليل بن أيبك)  
 - الوافي بالوفيات، تحقيق هلموت ريتز (ألمانيا، فيسبادن: دار نشر شتاينر، 1962).
- العسقلاني (= أحمد بن علي بن حجي)  
 - تقريب التهذيب لخاتمة الحفاظ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف (بيروت: دار  
 المعرفة، 1975).
- الفقفي (= جمال الدين أبي الحسن علي)  
 - أنباء الرواة على أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار الكتب  
 المصرية، 1950).
- تاريخ الحكماء (بغداد: مكتبة البثني - القاهرة: مكتبة الخانجي).

النوي (= أبو زكريا محيي الدين)  
- تهذيب الأسماء واللغات (د. م، د. ت).

#### ج - السير الموضوعية:

ابن الجوزي (= أبو الفرج عبد الرحمن)  
- سيرة عمر بن الخطاب (د. ت، د. م).  
ابن شداد (= بهاء الدين)  
- سيرة صلاح الدين - السيرة الحلبية، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة: مطبعة الخانجي، 1962).  
أبو فراس (= شهاب الدين المنيفي):  
- مناقب المولى سنان راشد الدين، تحقيق مصطفى غالب (بيروت، دار اليقظة العربية، 1967).

البدري العيني (= محمود بن أحمد)  
- الروض العاطر في سيرة الملك الظاهر ططره تحقيق هانس أرنست (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1962).  
البليوي (= أبو عبد الله بن محمد المدني)  
- سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي (دمشق: المكتبة العربية، د. ت).  
الجوزي (= أبو علي منصور)  
- سيرة الأستاذ جؤذر، تحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة (القاهرة: مطبعة الاعتماد، د. ت).

#### د - السير الذاتية:

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)  
- التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، تحقيق محمد بن تاويت، (القاهرة: مطبعة التأليف والترجمة، 1951).  
ابن طفيل (= أبو بكر محمد)  
- حي بن يقظان، تحقيق ودراسة فاروق سعد (بيروت: دار الأفاق الجديدة، 1978).  
الصلح (= عماد)  
- اعترافات الشدياق في كتاب الساق على الساق (بيروت: دار الرائد العربي، 1982).  
الغزالي (أبو حامد محمد)  
- المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، تحقيق جميل صليبا وكامل عياد (دمشق مطبعة الجامعة، 1956).  
هـ - السير الشعبية:

- سيرة الأميرة ذات الهمة 70 ج (مصر: مطبعة شوقي، د. ت).

- سيرة بني هلال (بيروت المكتبة الثقافية د.ت).
- تغريبة بني هلال (بيروت: المكتبة الثقافية د.ت).
- سيرة سيف بن ذي يزن 17 ج (القاهرة: المطبعة الكبرى، 1294 هـ).
- سيرة الظاهر بيبرس 50 ج (القاهرة: طبع عبد الحميد حنفي، د.ت).
- سيرة عترة بن شداد 55 ج (القاهرة: المكتبة العلمية الحديثة، د.ت).

### 3 - المقامات :

- ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن)
- مقامات ابن الجوزي، تحقيق محمد نغش (القاهرة: دار فوزي للطباعة، 1980).
- التلمساني (= شمس الدين عفيف)
- المقامة، تحقيق محمد سليم الأنسي، ملحقه بديوان محمد بن يوسف شهاب الدين الشيباني (بيروت: المطبعة الأدبية، 1310).
- الجزري (= ابن الصيقل)
- المقامات الزينية، تحقيق عباس مصطفى الصالحي (بيروت: دار المسيرة، 1980).
- الحريري (= أبو القاسم بن علي)
- مقامات الحريري (بيروت: دار صادر، 1965).
- الزمخشري (= أبو القاسم جار الله)
- شرح مقامات الزمخشري (بيروت: مكتبة الثقافة العربية، 1312 هـ).
- السويدي (= أبو البركات جمال الدين عبد الله)
- مقامة الأمثال السائرة (القاهرة: مطبعة النيل، د.ت).
- الشريشي (= أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن)
- شرح مقامات الحريري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة، 1969).
- الغزالي (= أبو حامد محمد)
- مقامات العلماء بين يدي الخلفاء والأمراء، تحقيق محمد جاسم الحديشي (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1988).
- الكازروني (= ظهير الدين)
- مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية، تحقيق كوركيس عواد وميخائيل عواد، مجلة المورد (بغداد - 1979) العدد 4 ص 428.
- الهمذاني (= بديع الزمان)
- شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الكتب العلمية، 1979).
- وجدي (= محمد فريد)
- الوجديات، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1982).

- الورغي (= محمد بن أحمد)  
 - مقامات الورغي ورسائله، تحقيق عبد العزيز الفيضاني (تونس الدار التونسية للنشر، 1972).  
 الوهرائي (= ركن الدين محمد بن محرز)  
 - مقامات الوهرائي ورسائله، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نفش (القاهرة: دار الكتاب العربي، 1968).  
 البازجي (= ناصيف)  
 - مجمع البحرين (بيروت: دار صادر، 1961).

#### 4 - نصوص قصصية وإخبارية أخرى:

- ابن الجوزي (= أبو الفرج عبد الرحمن)  
 - ذم الهوى، تحقيق مصطفى عبد الواحد (القاهرة: مطبعة السعادة، 1962).  
 - صيد الخاطر، نشر محمد أمين الخانجي (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1927).  
 ابن شهيد الأندلسي (= أبو عامر أحمد)  
 - رسالة التوايح والزوايح، تحقيق البستاني (بيروت: دار صادر، 1967).  
 ابن يوسف الكاتب (= أبو جعفر أحمد)  
 - المكافأة، تحقيق أحمد أمين وعلي الجارم (القاهرة: المطبعة الأميرية، 1941).  
 أبو المطهر الأزدي (= محمد بن أحمد)  
 - حكاية أبو القاسم البغدادي، نشر آدم متز (هيدلبرج: مطبعة كارل ونتر، 1902).  
 التنوخي (= أبو القاسم علي المحسن بن علي)  
 - الفرج بعد الشدة (بيروت: دار صادر، 1978).  
 - مشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالحي (د. م، 1971).  
 التوحيد (= أبو حيان)  
 - الإمتاع والمؤانسة، ضبط وشرح أحمد أمين وأحمد الزين (بيروت: مكتبة الحياة، د. ت).  
 الثعلبي (= ابن إسحاق أحمد بن محمد)  
 - قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس (القاهرة: المطبعة البهية، 1301 هـ).  
 المعري (= أبو العلاء)  
 - رسالة الغفران، تحقيق علي شلق (بيروت: دار القلم، 1975).

### رابعاً: المراجع

#### 1 - المراجع العربية:

- إبراهيم (= عبد الله)  
 - البناء الفني لرواية الحرب في العراق: دراسة لنظم السرد والبناء في الرواية العراقية



- المعاصرة (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1988).
- التفكيك: الأصول والمقولات (الدار البيضاء: دار عيون، 1990).
- إبراهيم (= نبيلة)
- سيرة الأميرة ذات الهمة: دراسة مقارنة (الرياض دار المريخ، 1985).
- إبراهيم (= نجيب اسكندر) ومنصور (= رشدي فام)
- التفكير الخرافي (القاهرة: مكتبة الأنجلو - المصرية، 1962)
- الأسود (= نزار)
- الحكواتي في دمشق (مجلة المأثورات الشعبية، الدوحة 1990/18).
- بدوي (= عبد الرحمن)
- الموت والعبقرية (الكويت: وكالة المطبوعات - بيروت: دار القلم).
- البياتي (= عادل)
- الملاحم العربية (بغداد دار الجاحظ، 1986).
- الجابري (= محمد عابد)
- بنية العقل العربي (بيروت، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1986).
- تكوين العقل العربي (بيروت، دار الطليعة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1985).
- الحجاجي (= أحمد شمس الدين)
- مصادر الراوي والرواية في السيرة الشعبية العربية (مجلة المأثورات الشعبية، الدوحة، 1989/15).
- حسن (= محمد رشدي)
- أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974).
- حسين (= فؤاد)
- قصصنا الشعبي (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1947).
- خلوصي (= صفاء)
- دراسات في الأدب المقارن والمذاهب الأدبية (بغداد: مطبعة الرابطة 1957).
- خورشيد (= فاروق)
- السير الشعبية العربية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988).
- دوجلاس (= فدوى مالطي)
- بناء النص التراثي (بغداد: دار الشؤون الثقافية، د.ت).
- الدوري (= عبد العزيز)
- دراسة في سيرة النبي ومؤلفها ابن إسحاق (بغداد: مطبعة العاني، 1965).
- ذهني (= محمود)
- سيرة عنترة (القاهرة: دار المعارف، 1979).

- زكي (= أحمد كمال)  
 - الفن القصصي في التراث العربي (مجلة الآداب - بيروت 7-8/1989).
- الزيات (= أحمد حسن)  
 - تاريخ الأدب العربي (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1942).
- سعد (= فاروق)  
 - من وحي ألف ليلة وليلة (بيروت: المكتبة التجارية، 1962).
- سليمان (= موسى)  
 - الأدب القصصي عند العرب (بيروت: دار الكتاب، 1969).
- شيخو (= لويس)  
 - شعراء النصرانية (بيروت: مطبعة الأباء اليسوعيين، 1890).
- الصالح (= صبحي)  
 - علوم الحديث ومصطلحه (بيروت: دار العلم للملايين، 1965).
- صالح (= مدني)  
 - ابن طفيل وقصة حي ابن يقظان (بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1989).
- صمود (= حمّادي)  
 - الوجه والقفاني تلازم التراث والحداثة (تونس: الدار التونسية للنشر، 1988).
- ضيف (= شوقي)  
 - الترجمة الذاتية (القاهرة: دار المعارف، د.ت).  
 - المقامة (القاهرة: دار المعارف، د.ت).
- طرشونة (= محمود)  
 - مدخل إلى الأدب المقارن وتطبيقه على ألف ليلة وليلة (تونس: مطابع الوحدة، 1986).
- عبد الدايم (= يحيى إبراهيم)  
 - الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1975).
- العمد (= هاني)  
 - دراسات في كتب التراجم والسير (عمان: المؤسسة الصحفية الأردنية، 1981).
- عواد (= مختار)  
 - ألف ليلة وليلة امرأة الحضارة والمجتمع في القرن الرابع (بغداد: مطابع المؤسسة العراقية، 1962).
- عوض (= يوسف نور)  
 - فن المقامات بين المشرق والمغرب (مكة المكرمة: مكتبة الطالب الجامعي، 1986).
- فضل (= صلاح)  
 - تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي (القاهرة: مؤسسة شباب الجامعة، 1985).

- فوزي (= حسين)
- حديث السندباد القديم (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1943).
- القلمواوي (= سهير)
- ألف ليلة وليلة (القاهرة: دار المعارف، 1959).
- القيسي (= نوري حمودي)
- محاولات في دراسة اجتماع الأدب (بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1987).
- الكك (= فيكتور)
- بديعات الزمان (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1961).
- كيليطو (= عبد الفتاح)
- الغائب (الدار البيضاء: دار توفال، د.ت).
- مبارك (= زكي)
- الثر الفني في القرن الرابع (بيروت: دار الجيل، 1985).
- مرتاوض (= عبد الملك)
- ألف ليلة وليلة: دراسة سيمائية تفكيكية لحكاية حمال بغداد (بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1989).
- المرزوقي (= سمير، شاکر (= جميل)
- مدخل إلى نظرية القصة (تونس: الدار التونسية للنشر، د.ت).
- المقدسي (= أنيس)
- تطور الأساليب الشعرية في الأدب العربي (بيروت: دار العلم للملايين، 1982).
- المنجد (= صلاح الدين)
- المنتقى من دراسات المستشرقين (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، 1955).
- مقوش (= ثوبا)
- سيف بن ذي يزن بين الحقيقة والأسطورة (بغداد: دار الحرية، 1980).
- يونس (= عبد الحميد)
- الحكاية الشعبية (بغداد: دار الشؤون الثقافية).
- دفاع عن الفلكلور (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973).
- الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي (القاهرة: مطبعة القاهرة، 1956).
- 2 - المراجع المترجمة:
- أوليري (= دي لاسي)
- الفكر العربي ومركزه في التاريخ، ترجمة إسماعيل البيطار (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1972).
- بروب (= فلاديمير)
- مورفولوجية الخرافة، ترجمة إبراهيم الخطيب (الدار البيضاء: الشركة المغربية للنشئين المتحدنين، 1986).

- بروكلمان (= كارل)  
 - تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحلیم النجار (القاهرة: دار المعارف د.ت).  
 بلاشير (= ريجيس)  
 - تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، دمشق وزارة الثقافة والإرشاد القومي،  
 (1974).  
 تودروف (= تزفتيان)  
 - الشعرية، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة (الدار البيضاء: دار توبقال).  
 - رونباوم (= جوستاف فون)  
 - حيازة الإسلام، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويدا. (القاهرة: مكتبة مصر، 1956).  
 جول. سهر (= اجنتس)  
 - ماهاجر العصور الإسلامية، ترجمة عبد الحلیم النجار (القاهرة: مطبعة الخانجي،  
 1955).  
 دير لاينز (= فريداوش فون)  
 - الكتابة الخرافية، ترجمة نبالة إبراهيم (القاهرة: دار نهضة مصر، 1965).  
 روزنتال (= فرانز)  
 - مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة أنيس فريحة (بيروت: دار الثقافة،  
 1980).  
 ستروس (= كلود ليفي)  
 - الأنثروبولوجيا البنوية، ترجمة مصطفى صالح (دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي،  
 1977).  
 سزكين (= فؤاد)  
 - تاريخ التراث العربي، ترجمة فهمي أبو الفضل (= القاهرة: الهيئة المصرية العامة  
 للتأليف 1971).  
 كوربان (هنري)  
 - تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة نصير مروة وحسن قبسي (بيروت: دار عويدات،  
 1966).  
 كيرزول (اديث)  
 - عصر النبوية، ترجمة جابر عصفور (بغداد: دار آفاق عربية، 1985).  
 لنتفلت (= جاب)  
 - مستويات النص السردي الأدبي، ترجمة رشيد بنحدو (مجلة آفاق: المغرب،  
 1988/9-8).  
 ليديف (= فيكتور)  
 - أثر الموروث الشعبي للجنوب العربي في ألف ليلة وليلة، ترجمة حسن البياتي (بغداد:  
 دار الشؤون الثقافية، 1989).

متز (= آدم)

- الأدب العربي، تعريب رفيق وناس وآخرون (تونس: الشركة التونسية لفنون الرسم، 1979).

هورفتش (= يوسف)

- المغازي الأول ومؤلفوها، ترجمة حسين نصار (القاهرة: مطبعة الحلبي، 1949).

### 3- المراجع الأجنبية:

**Chatman** (= Seymour)

Story and Discourse (London: Cornell University Press, 1978).

**Ching** (= Marvin), Hale (= Michael), Lunford (= Ronald) ed.

Linguistics perspectives on literature (London: Routledge and Keegan Paul, 1980)

**Culter** (= Jonathan)

On Deconstruction, (New York: Cornell University Press, 1986).

Structuralist poetics (London: Routledge and Keegan Paul, 1975)

**Ducot** (= Oswald), Fodorov (= Evetan)

Encyclopedic Dictionary of the sciences of language (London: Ithous Kopkins University Press, 1979).

**Fowler** (= Roger)

Linguistics and the novel (London-New York: Methuen, 1979).

**Frye** (= Northrop)

Anatomy of criticism (New Jersey: Princeton: University Press, 1973).

**Genette** (= Gerard)

Narrative Discourse (New York: Cornell University Press, 1980).

**Gerhardt** (= Mia)

The Art of story - Telling: Aliterary study of the thousand and one nights (Leiden: Brill, 1963).

**Ghazoul** (= Ferial Jabouri)

The Arabian Nights: A structural Analysis (Cairo, 1980) Group 4.

A General Rhetoric (London: John Hopkins University Press, 1981).

**Hartmann** (= R.R.K) Stork (= F.C)

Dictionary language and Linguistics (London: Applied Science Publisher, 1970).

**Ong** (= Walter)

Orality and literacy (London-New York: Methuen, 1989).

**Preminger** (= Alex)

Princeton Encyclopedia of poetry and poetics (Princeton-New Jersey: Princeton University Press, 1974).

**Scholes** (= Robert), Kellogg (= Robert)

The Nature of Narrative (London-New York: Oxford University Press, 1984).

**Scholes (= Robert)**

-Structuralism in literature (New Haven-London: Yale University Press, 1974).

**Stevick (= Phillip) ed**

- The Theory of the novel (London: Free Press, 1967).

**Todorov (= Tzvetan)**

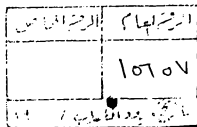
- The Poetics of Prose (Oxford: Basil Blackwell, 1977).

**Tompkins (= Lane) ed**

- Reader-Response Criticism (London: Johns Hopkins University Press, 1980).

**Wales (= Katie)**

- Dictionary of Stylistics (London-New York: Longman).



5	المقدمة
9	مدخل: السردية: المفهوم والاتجاهات
19	الباب الأول: الموجّهات الخارجيّة للسرد العربي: استنتاج
21	الفصل الأول: النظرية الشفاهية وتقييد المنطوق
21	1. الرؤية الكتابية للوجود
26	2. الصوت وميتافيزيقيا المعنى
33	3. ركائز النظرية الشفاهية
40	4. الجبر ومعضلة الوضع
43	5. أركان نظرية الإسناد
49	الفصل الثاني: الرؤية الدينية وهيمنة الأصول
49	1. القص: فضاء الدلالة الدينية
52	2. الرسول وأحكام القيمة
55	3. القص: إشكالية الريادة الزمنية
60	4. الصياغة النظرية لموقف الإسلام من القص
69	الباب الثاني: الحكاية الخرافية: تشكل النوع والبنية السردية
71	الفصل الأول: الخرافة: تشكل النوع القصصي
71	1. الخرافة: فضاء الدلالة
73	2. حديث الخرافة
78	3. التأليف الخرافي عند العرب
82	4. ألف ليلة وليلة: معضلة الانتماء والتأليف
92	الفصل الثاني: البنية السردية للحكاية الخرافية
93	1. خرافة شهرزاد والحكاية الإطارية
98	2. مظاهر ثنائية الراوي والمروي له
108	3. بنية المروي الخرافي
116	4. الخرافة والبطل الخرافي

120	5. نسج البنية السردية .....
123	<b>الباب الثالث: السيرة: تشكل النوع والبنية السردية</b>
125	<b>الفصل الأول: السيرة: تشكل النوع القصصي</b>
125	1. السيرة: فضاء الدلالة .....
126	2. السيرة النبوية: الأصل الموجّه .....
130	3. أشكال السير العربية: .....
130	أ - التراجم .....
131	ب - السير الموضوعية .....
132	ج - السير الذاتية .....
136	د - السير الشعبية: .....
143	<b>الفصل الثاني: البنية السردية للسيرة الشعبية</b>
143	1. وظائف الرواة: .....
144	أ - وظائف الراوي المفارق لمرؤيه .....
149	ب - وظائف الراوي المتماهي بمرؤيه .....
150	2. بنية الوحدة الحكائية .....
161	3. بنية الشخصية السيرية .....
169	4. نسج البنية السردية .....
173	<b>الباب الرابع: المقامة: تشكل النوع والبنية السردية</b>
175	<b>الفصل الأول: المقامة: تشكل النوع القصصي</b>
175	1. المقامة: فضاء الدلالة .....
176	2. تضاريس عصر قصصي .....
182	3. إشكالية الريادة الإبداعية .....
185	4. ثبات البنية التقليدية .....
187	5. محاولات تقويض البنية التقليدية .....
193	<b>الفصل الثاني: البنية السردية للمقامة العربية</b>
193	1. بنية الاستهلال السردية .....
196	2. الراوي المفارق لمرؤيه وبناء العالم الفني .....
201	3. البطل راوياً .....
205	4. التعرف وبنية الحكاية .....
210	5. نسج البنية السردية .....
213	<b>الخاتمة: السردية العربية: البنية السردية وتجليات الاصول</b>
225	كشّاف الباحثين في الدراسات السردية .....
228	كشّاف مصادر البحث ومراجعته .....



